الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

٦١٧
١٨

أرباب المهن في الشعر الجاهلي

١٨
٥٤٠٩

إعداد

علي مصطفى محمد عشا

إشراف

الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن

عميد كلية الدراسات العليا

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

١٤١٤هـ/١٩٩٣م

عمان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ١٩٩٣/٩/١م

أعضاء اللجنة

١- الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن ..... (مشرفاً)

٢- الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم ..... (عضواً)

٣- الدكتور فواز طوقان ..... (عضواً)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

إلى أشقائي.....

محمد وإبراهيم ويوسف الغائبين الحاضرين

الذين عاشوا معي تجربة الحياة الكبيرة .

هذه ثمرة من ثمار كفاحكم المرير من أجل الحياة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

يطيب لي بعد أن فرغت من هذه الرسالة أن أتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الكبير الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن الذي اغترفت من فيض علمه، وأظلني بعطفه الأبوي الكريم فله مني كل الحب والوفاء .

و أن أشكر الأستاذين الكبيرين :

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

والدكتور فواز طوقان

اللذين تفضلاً بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة مما زادني شرفاً ، فلهما مني كل الاحترام والتقدير .

وأقدم شكري وامتناني إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية ، فقد كان لتشجيعهم لي الأثر الكبير في إغناء تجربتي العلمية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتوى

رقم الصفحة

قرار لجنة المناقشة	أ
إهداء	ج
شكر وتقدير	د
محتويات الدراسة	هـ-ى
الملخص	ز-ح
الفصل الأول : الصورة العامة للمهن في العصر الجاهلي .	١-١٦
الفصل الثاني : الفنان في الشعر الجاهلي	١٧-٧٣
الكاتب	١٨
المغني والموسيقي والحادي	٤٢
النحات	٦٧
الفصل الثالث : الصائد والمشتار في الشعر الجاهلي	٧٤-١١٢
صائد ثور الوحش	٧٥
صائد حمار الوحش	٨٦
الغائص والبحار	٩٦
المشتار	١٠٨
الفصل الرابع : الراعي في الشعر الجاهلي	١١٣-١٢٢
الفصل الخامس : الزارع في الشعر الجاهلي	١٢٣-١٤٨
الفصل السادس : التاجر في الشعر الجاهلي	١٤٩-١٧٩
تاجر السوق	١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تاجر الخمر ١٥٨

غلمان الحانات ١٦٥

القوافل التجارية ١٧٢

الفصل السابع : الصانع في الشعر الجاهلي. ١٨٠-٢١٠

القين ١٨١

النساج ١٨٦

الهالكي ١٩٤

الإسكاف ٢٠٣

الصائغ ٢٠٥

الخاتمة ٢١١

المصادر والمراجع ٢١٥

الملاحق ٢٢٦

الملخص باللغة الإنجليزية ٢٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

العنوان : أرباب المهن في الشعر الجاهلي

إعداد: علي مصطفى محمد عشا

يعالج هذا البحث موضوع أصحاب المهن في الشعر الجاهلي، ومما يسّوغ لنا دراسة هذا الموضوع شيوع الحديث عن أصحاب المهن في الشعر الجاهلي، وندرة الدراسات التي تناولت هذا الموضوع .

ولعل علاقة هذا الموضوع بالحياة الاقتصادية للعرب في العصر الجاهلي، وأنماط معيشتهم يزيد في أهمية دراسته دراسة شاملة، تبين موقع هذه المهن ودورها في بناء الحياة الاقتصادية الجاهلية .

ولقد شاع بين كثير من الدارسين أن الحياة الجاهلية حياة بدوية رعوية خالية من كل مظهر من مظاهر الحضارة والرقي، فكان لا بد من إعادة قراءة هذا العصر قراءة جديدة من خلال الشعر الجاهلي، لنتبين فيما إذا كان الشعر الجاهلي يتحدث عن حياة حضرية ام حياة بدوية .

ويستند هذا البحث إلى فرضية أساسية، تتلخص في أن الشعر الجاهلي يتحدث عن مهن كثيرة أقلها مهنة الرعي، وهو يفترض أن الشعر الجاهلي تحدث عن الزراع والتجار والصنّاع وأهل الفن أكثر مما تحدث عن الرعاة .

ويهدف هذا البحث إلى جلاء صور أصحاب المهن في الشعر الجاهلي، ومناقشة الآراء التي شاعت عن هذا العصر من غلبة الرعي على حياة العرب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتسير هذه الدراسة على هدي منهجين هما : المنهج الوصفي ، والمنهج التحليلي. أما المنهج الوصفي، فقد أفدت منه في تبين مقدار الشيوع في الحديث عن أصحاب المهن، أما المنهج التحليلي، فقد أفدت منه في تحليل النتائج التي انتهيت إليها على هدي من المنهج الإحصائي الاستقرائي .

وتبين للباحث من خلال هذه الدراسة شيوع صور أصحاب المهن في الشعر الجاهلي، وأهمية هذه المهن في بنية الحياة الاقتصادية الجاهلية .

وتبين للباحث أيضا أن الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من صور "الرعاة"، وبالتالي، يكون الشعر الجاهلي قد صور لنا حياة حضرية تقوم على الزراعة والصناعة والتجارة، بينما ارتبطت مهنة الرعي بالعبيد أكثر من ارتباطها بالأحرار على نحو ما يبدو في الشعر .

ولقد صور لنا الشعر الجاهلي الكتّاب، والزرّاع، والصنّاع، والتجار، وأهل الفن، بينما أغفل الحديث عن الرعاة .

وقد تبين للباحث أن المهن لم تكن محتقرة عند العرب ، وإذا وجد من العرب من يحتقر المهن، فهذا يصدق على أهل البدو دون أهل الحضر ، الذين استقروا في المدن والقرى اعتمدوا الزراعة والصناعة والتجارة اعتماداً أساسياً .

وبالتالي، يكون البحث قد عاد إلى الفرضية التي انطلق منها، وهي أن الشعر الجاهلي صور لنا حياة حضرية لا حياة بدوية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الصورة العامة للمهن في العصر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل الحديث عن واقع المهنة في الشعر الجاهلي، علينا أن نعرض للواقع اللغوي "للمهنة" لأن الواقع اللغوي لم ينشأ في فراغ، وإنما نشأ عن واقع اجتماعي واقتصادي معين كان له الأثر العميق في توجيه هذا اللفظ في تجاه دون آخر .

يقول صاحب اللسان : "مهن : المِهْنَة والمِهْنَة والمَهْنَة والمَهِنَة كلّه : الحذق بالخدمة والعمل نحوه، وأنكر الأصمعي الكسر. وقد مَهَنَ يَمْهُنُ مَهْناً إذا عمل في صنعته. مَهَنَهُم يَمْهَنَهُمُ مَهْناً وَمَهْنةً ومِهْنةً أي خدمهم .

والماهنُ : العبد، وفي الصحاح : الخادم، والأنثى ماهِنَة. وفي الحديث : ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمعته سوى ثوبي مَهْنَة، قال ابن الأثير أي بِذْلَته وخِدْمته، والرواية بفتح الميم، وقد تكسر . قال الزمخشري : وهو عند الإثبات خطأ . قال الأصمعي : المهنة بفتح الميم ، هي الخدمة، قال: ولا يقال مهنة بالكسر، قال: وكان القياس لو قيل مثل جِلْسَة وخِدْمة، إلاّ أنّه جاء على فعلة واحدة .

وأَمهَنْتهُ : أضعفته. وَمَهَن الإبل يَمْهَنُهَا مَهْناً وَمهْنةً : حلبها عند الصدر وأنشد شمّر :

فقلت لمـــا هِنَيٌّ : أ لا احـــلُباهـــا

فقامـــــا يحلُـــبانِ وَيْمـــرِيـــــانِ

وأمَة حَسَنة المِهْنَة والمَهْنَة أي الحلب: ويقـال خـرقـاء لا تحـسن المِهْنَةَ اي لا تحـسن أي الحلب. ويقال خرقاء لا تحسن المهنة أي لا تحسن الخدمة. قال الكسائي :

المِهْنَة الخدمة . وَمَهَنَهُم أي خدمهم. وامتهنت الشيء : ابتذلته . ويقال : هو في مِهْنَةِ أهله، وهي الخدمة والابتذال .

وقال الأعشى يصف فرساً :

فـــلأيـــاً بِلأيٍ حَـــمَلْنا الـــــغُلا

مَ كَـــرهاً ، فأرْسَلَـــه فامتَـــــــهَن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي أخرج ما عنده من العُنوِ وابتذله.

وفي حديث سلمان : أكره أن أجمع على ما هِنِي مهْنَتَين؛ والماهِنُ : الخادم أي أَجْمَعَ على خادمي عملين في وقت واحد كالَخْبزِ والَطْحنِ مثلاً .

وامَتهنَه : استعمله للمهنة"[١].

ولا يختلف رأي الزبيدي عن رأي ابن منظور في تحليله لمادة مهنة، فالمهنة "الحذق بالخدمة والعمل" ، والماهن : العبد والخادم، والمِهْنَة العمل" [٢].

يكشف لنا التحليل اللغوي لمادة مهنة، أن المهنة تأتي بمعنى الحذق بالعمل والخدمة، وهذا مما تتطلبه المهنة، فهي من جهة تحتاج إلى مهارة واتقان، ومن جهة أخرى تحتاج إلى الممارسة الطويلة والمداومة عليها، وهذا ما نفهمه من كلمة الخدمة .

والماهن هو الخادم؛ لأنه يلازم عملاً معيناً فهو بهذا المعنى خادم، والماهن صاحب مهنة، أي يحترف عملاً معيناً، ومنه حديث سلمان"أكره أن أجمع على ما هني مهنتين الذي -سبق ذكره-.

وقد تكون بمعنى إخراج الإنسان ما عنده من قدرة وطاقة في إنجاز عمل معين، ومنه قول الأعشى السابق الذكر "فأرسله فامتهن"، أي بذل ما عنده من قدرة وطاقة في العدو.وقد يرد "الماهن" بمعنى العبد، لملازمته العمل والخدمة .

أما الحرفة فترد في اللغة بمعنى "الصناعة . وحرفة الرجل: ضَيْعَتُه او صَنْعَتُه. وحرف لأهله واحترف : كسب وطلب واحتال، وقيل الاحتراف لأهله واحترف : كسب وطلب واحتال، وقيل الاحتراف الاكتساب أياً كان"[١] .

فالحرفة تشترك مع المهنة في العمل والكسب ، واتقان الانسان عملاً معيناً يعتمد عليه في شؤون معيشته ورزقه .

هذا هو الواقع اللغوي للمهنة، اما الواقع التاريخي . فإن العرب في الجاهلية لم يكونوا يعيشون معيشة واحدة، فقد كان العرب في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الطائف ووادي القرى يعتمدون في حياتهم على الزراعة، أما أهل مكة فقد اشتهروا بالتجارة واعتمدوا عليها اعتماداً اساسياً، وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً في طرق معلومة، كما كانت تجوبها شرقاً في طريقين: طريق إلى الخليج من شرقي مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية، وطريق ثانٍ كانوا يذهبون فيه شمالاً إلى خيبر ، ثم يخترقون الصحراء في وادي الرُّمة، ومنه يهبطون إلى الحيرة[٣].

وكان للعرب أسواق كثيرة من أهمها : سوق دومة الجندل في شمالي نجد و سوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحجر باليمامة وسوق المشقر بهجر وسوق حضرموت، وسوق صنعاء وعدن ونجران [٤] .

أما العرب في نجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين فقد كانت عيشتهم بدوية بسيطة، ويعتمدون اعتماداً أساسياً على رعي الأغنام والأنعام، وبالتالي لم يستوطنوا، ونظروا إلى الزراعة والصناعة نظرة احتقار[٣].

وقد فرق بعض العلماء بين العرب والأعراب، فأطلقوا لفظ العرب على أهل الأمصار، أما الأعراب فهم سكان البادية [٤] .

وتعدّ أجيال البدو الحضر عند ابن خلدون طبيعية، ويعود السبب في انقسام الناس إلى بدو وحضر إلى اختلاف نحلتهم في المعاش، فإذا استعملوا الفلح من الغراسة والزراعة كانوا أهل حضر، وإذا اعتنوا بالحيوان، من غنمٍ وبقر وغيرها، فالضرورة تدعوهم إلى البدو ، لأنه متسع لما يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك؛ فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم ومعاشهم من القوت والدفء إنما هو بالقدر الذي يحفظ الحياة .

أما أهل الحضر فهم الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل الصنائع في معاشه، ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أغنى وأرفه من أهل البدو لأن أحوالهم وحاجاتهم زائدة على الضروري [٥].

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يفهم من كلام ابن خلدون أن العرب في الجاهلية انقسموا إلى قسمين : أهل مدر ، وأهل وبر، أما أهل المدر فقد كانوا أهل زراعة وتجارة، اتخذوها طريقاً وسبيلاً لمعيشتهم وكسبهم، بينما اختار قطان الصحارى الإبل والأغنام والقيام عليها والعناية بها حرفة لهم يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، ينتجعون منابت الكلأ ، ويرتادون مواقع القطر، لا يستقرون في مكان، فلا تزال حياتهم بين حل وترحال .

وربما يكون عدم التناسق والتناسب والاتزان بين نسب توزيع الخصب إلى الجدب هو الذي أحدث التباين في كيفية توزيع الناس في الجزيرة العربية، وأدى بالتالي إلى انقسام العرب إلى طبقات : فأهل المدر وهم حضر مستقرون ، وهم أرقى أهل جزيرة العرب، وأهل وبر، وهم أعراب يقطنون البوادي . وهناك طبقة ثالثة كانت بين بين، ووسط بين الحضر وبين البدو ، عاشت على اتصال ومقربة من الحضر، لما تبتعد عنهم، ولم تفارق الماء والحضارة، ولم تعن في البادية إلا في ايام الربيع عند نزول الغيث، واخضرار الأرض ، وهي جماعة الرعاة. وكان هؤلاء مادة الحضر في الغالب، والجرثومة التي كونت المجتمع الحضري .

هذا التباين الطبقي أدى إلى التباين في اقتصاد العرب الجاهليين ، فاقتصاد الاعراب كان واحداً يعتمد اعتماداً جوهرياً على البادية وتربية الإبل وليس في البادية غير كلأ وشجيرات او أشجار تعلف الإبل أوراقها، ويستعملون حطبها وقوداً لهم. وكانت مشترياتهم بسيطة، تمور ودقيق وأبسط انواع الثياب . وبالتالي كان الاقتصاد البدوي بسيطاً، فهو لا يساعد على ظهور رأس مال كبير ، ومن جهة أخرى لا يؤدي الى حدوث تطوير في الصناعة .

أما اقتصاد أهل الحضر فقد كان متفاوتا في الدرجات، أبسطه مراكز الحضر الصغيرة المنتشرة في بواطن جزيرة العرب واعلاه اقتصاد المدن الواقعة في أطراف الجزيرة وعلى سواحل البحر، وفي أرضين خصبة غنية بالماء والزرع. وقد اشتهر بعض أهل هذه المستوطنات بالتجارة، واشتهر بعضهم بالزراعة، وجمع بعضهم بين الزراعة والحرف اليدوية القائمة على أساس تحويل المنتجات الزراعية الى منتجات أخرى، او تحويل الجلود إلى أدم، أو تحويل المواد الأولية إلى مواد ذات ضرورة للمجتمع، وتعد هذه المواد المنتجة للاستهلاك المحلي، وبعضها كان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد للتصدير .

ومن اشهر مراكز الحضر التي ظهرت في باطن جزيرة العرب، مستوطنات اليمامة، والمستوطنات التي ظهرت على الأودية ومواضع الماء، وقد عاشت على الزراعة، وموّنت الاعراب بالتمور، وموّنت الحجاز بالحبوب .

أما المستوطنات التي ظهرت في أطراف الجزيرة فكان اشهرها مكة والمدينة. مكة في التجارة والمدينة في الزراعة .

لقد كان للطبيعة اثر في تكييف اقتصاد الجاهليين وفي توجيههم توجيهاً تجارياً في المواضع التي قلّ فيها الزرع، مثل مستوطنات الأطراف حيث نجد أهلها يميلون إلى التجارة ويرون فيها مهنة من أشرف المهن وتوجيهاً زراعياً في المواضع التي توافرت فيها شروط الزراعة، وتوجيهاً رعوياً في المواضع الأخرى (٦).

بناءً على ما سبق، تتضح لنا الخطوط العامة للصورة، حيث نرى سكان شبه الجزيرة العربية ينقسمون -تبعاً لوسائل العيش- إلى ثلاث جماعات : جماعة مستقرة تعمل في الزراعة وجماعة غير مستقرة تعتمد في عيشها على الرعي، وجماعة بين الاستقرار والترحل، وهي تمثل طور الانتقال من الحالة الثانية إلى الأولى الأعلى من سابقتها .

وفي نهايات مرحلة الجاهلية الأخيرة، بدأ العرب الجاهليون يستغلون الإمكانات الكامنة في الموقع الجغرافي لبلادهم وفي خصائصها المناخية وقواها الطبيعة . ويتجلى ذلك في الاستفادة من الأهمية التي يتمتع بها موقع شبه الجزيرة الجغرافي كطريق تجارية تصل أطراف العالم المعمور آنذاك بعضها ببعض . وتحوّل هذه الاستفادة إلى موارد خدمات متنوعة على طرق القوافل التجارية ، وإلى تبادلات تجارية تسرّب خلالها التعامل النقدي .

وكذلك استخدام موارد المياه وقابليات التربة، للسقي وتنويع المزروعات، من الفواكه و الحبوب والبقول، أي لزيادة انتاجية الطبيعة .

وكذلك ظهور الصناعات اليدوية الاستهلاكية الانتاجية لمعالجة بعض المعادن والأتربة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجلود (مثل صناعة الاسلحة، وصناعة الآلات الحديدية للحراثة، وصناعة الفخاريات والدباغة) ، وانفصال هذه الصناعات عن الزراعة (٧).

ومن هنا كان ظهور المهن من صناعة وزراعة وتجارة ونتيجة طبيعية لانقسام العرب إلى أهل حضر وأهل بدو، وكان هذا الانقسام نتيجة طبيعية للتنوع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية.

وكانت التجارة والصناعة والزراعة من معايش العرب واسبابها في جاهليتهم، وكان لها دور هام في تطوير البنية الاقتصادية للمجتمع الجاهلي .

وإذا كان هناك من يحتقر المهن (من صناعة وتجارة وزراعة) من العرب، فهذا يصدق على أهل البدو الذين فرضت عليهم معطيات حياتهم وظروفهم ان يعيشوا حياة بسيطة تعتمد على الرعي، والانتقال من مكان إلى مكان طلباً للماء والكلأ ، ولا يصدق على أهل الحضر الذين اشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة، واعتمدوا عليها اعتماداً اساسياً في حياتهم ، وكانوا لا يأنفون من العمل بها .

وتحدثنا المصادر العربية من التجارة وطرقها، وأسواقها، وأشهر المشتغلين بها، وتحدثنا عن البضائع والسلع التي كانت تتنقل بين الأسواق .

وتحدثنا عن الفلاحة ، والمناطق الزراعية ، وانواع النباتات المشهورة في شبه الجزيرة العربية. وتحدثنا عن الصنائع التي اشتهر بها العرب، مثل الحدادة والنسيج، والصياغة، وصناعة الأدوات الحربية، والخياطة والإسكاف.

وتحدثنا بالتفصيل عن أدوات الحدادين وأعمالهم، ومنتجاتهم .

وتحدثنا عن أدوات النسيج التي كانوا يستعلمونها في الحياكة، وتحدثنا عن الأدوات التي كان يستعملها أصحاب المهن الأخرى (٤) .

يتبين لنا مما سبق، أن العرب في الجاهلية لم يكونوا مجتمعاً واحداً بل كانوا طبقات اجتماعية مختلفة متباينة تمثل المجتمعات الانسانية التي مرت بها البشرية في تاريخها الطويل.(٨:٩)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هنا" كان من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن ينظر إلى العصر الجاهلي نظرة واحدة، وأن يحكم عليه حكم عام مطلق، وأن يوصم عرب الجاهلية جميعاً بالبدواة والجهالة، فلا تراعى هذه هذه الفروق الواسعة في البيئات الاجتماعية المتباينة"(٨:١٠) .

وكان من الخطأ ايضا أن ينظر إلى العرب جميعاً أنهم كانوا يحتقرون المهن، ويأنفون من العمل بها، وينظرون إلى من يعمل بها نظرة احتقار واستعلاء .

أما من حيث الواقع الشعري، فقد ورد في شعر الأعشى لفظ "امتهن" بمعنى ابتذل الشيء واستعمله للمهنة، قال الأعشى (٩:٧١).

فـــلأيـــا بلأي حمـلـــــنا الفـــلا

مَ كـــرْهـــاً فأرسلـــه فـامـتـــهنْ

يريد : لا يحمل عليه- يعني الفرس- الفلام إلا بعد جهد، فإذا أرسله أسلس القياد وسكن.

وأعترف أنني لم أعثر في الشعر الجاهلي على نفط "مهنة" بالمعنى الذي أشرنا إليه في اللغة وهو الحذق بالعمل، أو بالمعنى المتعارف عليه ، وهو أن يحترف الإنسان عملاً معيناً سواء كان زراعياً أو تجارياً أو صناعياً أو فنياً، يعتمد عليه في معيشته ورزقه .

ولكني عثرت في الشعر الجاهلي على صور كثيرة لأصحاب المهن من كتاب ومغنين ومغنيات وصيادين وزراع وتجار وصنّاع، وبدت بعض هذه الصور واضحة في الشعر الجاهلي، وسنتناول هذه الصور بالتفصيل في الفصول القادمة إن شاء الله.

ولكن إلى أي مدى يمكن اعتبار أصحاب هذه الصور أصحاب مهن بالمعنى الذي أشرنا إليه: وهو أن يتقن الإنسان عملاً معيناً يعتمد عليه في معيشته ورزقه ؟

يبدو هذا التساؤل في غاية الأهمية في سياق بحثنا ، وتحتاج الإجابة عليه نوعاً من الدقة وتوخي الحذر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن هو صاحب المهنة الذي نبحث عنه في الشعر الجاهلي؟

من خلال الواقع اللغوي والتاريخي، يبدو لي ان للمهنة جانبين : أما الجانب الأول فيتعلّق باتقان عمل معين كالكتابة أو الغناء أو النحت أو الزراعة أو التجارة أو الحرفة اليدوية كالحدادة وغيرها .

أما الجانب الآخر فهو يتعلق بالكسب من خلال هذه المهنة بمعنى أن يتقاضى اجراً معيناً من هذه المهنة يعتمد عليه في معيشته، بحيث تكون هذه المهنة مصدراً لرزقه .

فصاحب المهنة يقوم بعمل معين يغطي حاجة من حاجات المجتمع سواء أكان هذا العمل مادياً مثل الأعمال التي يقوم بها التجار والزرّاع والصنّاع ، أو معنوياً مثل الأعمال التي يقوم بها المغنون والموسيقيون ، ولا بد ان يتقاضى اجراً معيناً بأي صورة من صور الأجور المتعارف عليها ضمن شروط الزمان والمكان التي يعيشها المجتمع .

فلنحاول إذن مناقشة هذه القضايا من خلال الصور التي جمعتها عن أصحاب المهن في الشعر الجاهلي، حتى نتبين إلى أي مدى يمكن أن نعد أصحاب هذه الصور أصحاب مهن، تاركين عرض صور اصحاب المهن الى الفصول القادمة من هذه الرسالة.

٤٢٠٩١٦

ولنبدأ مناقشة هذه القضية من خلال صورة الكاتب .

ترد صورة الكاتب في الشعر الجاهلي ، في مواضع متعددة -كما ستبين لنا في الفصل الثاني- من الشعر الجاهلي، حيث نجد صورة الكاتب وقد أكب على كتابته بدواته، كما سيتبين لنا في شعر سلامة بن جندل . ويظهر الكاتب وهو يكتب في وقت الضحى، وذلك في شعر طرفة بن العبد . وتظهر صورة الكاتب وهو يسوي سطوره مرة ويخالف أخرى، ويجيء بها على غير استواء، كما سنعرض له في شعر ثعلبة بن عمرو العبدي . وأبرز لنا الشعر الجاهلي الكاتب اليماني، وذلك في شعر لبيد بن ربيعة .

ونجد كذلك صورة الكاتب الحميري وهو يكتب من دواة على صحف كالرياط ديناً على

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخص معين ، شهد له العدول بالقدرة على الوفاء بالدين، وذلك في شعر ابي ذؤيب الهذلي ويظهر الكاتب في الصورة متقناً الكتابة، حتى اطلق عليه الشعراء الجاهليون لفظ "المرقش" .

ولكن هل يمكن عدّ الكاتب صاحب مهنة بالمفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً ؟

من العسير الأجابة عن هذا السؤال ، صحيح أن الكاتب يظهر في الصورة كما قلنا متقناً كتابته يزخرفها ويزينها ويفتن فيها، وبالتالي فهذا الجانب من مفهوم المهنة قد تحقق في الصورة الشعرية، أما الجانب الأخر الذي يتعلق بالكسب من هذه المهنة واتخاذ الكاتب عمل الكتابة مصدراً لرزقه ومعيشته فلا يظهر ذلك في الشعر الجاهلي .

وترد في الشعر الجاهلي صورة المغني في مواضع متعدده وتحظى القينة"وهي الأمة المغنية " بعنايه الشعراء الجاهليين ، وترتبط صورة المغني والقينة الموسيقين بمجالس اللهو والشراب في الشعر الجاهلي .

ويظهر المغني مجيداً للغناء، وذلك من خلال الانسجام الذي يظهر بين صوته وصوت الآلات التي تعزف، كذلك من خلال تأثير صوته وادائه على جمهور الندامى الذين يتابعون الأغنية بشغف وانفعال.

وكذلك القينة، حيث تظهر ماهرة في غنائها وعزفها على الآلات الموسيقية .

واحياناً نجد الفرقة الموسيقية تصاحب المغني اثناء ادائه للأغنيه .

كل ذلك سنعرض له بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا البحث .

ولكن المشكلة نفسها نجدها في صورة الكاتب، حيث لا يظهر -في الشعر الجاهلي- اصحاب الفن يتقاضون أجراً معيناً على عملهم، ولا يظهر كذلك انهم قد اتخذوا من الغناء او العزف وسيلة للعيش والرزق .

ولكن هناك ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا، وتتمثل في تكرار صورة المغني او القينة او الموسيقي في مجالس اللهو والشراب، ومن المعلوم أن مجالس اللهو والشراب كانت على الأرجح تعقد في الحانة، ومن المعلوم أن الحانة كانت تبيع الخمور، وبالتالي فقد كانت تمثل جزءاً من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحياة التجارية الجاهلية . و يبدو أن اصحاب دكاكين الخمر كانوا حريصين على اجتذاب الندامى وطلاب اللذة واللهو، ومن كمال هذه اللذة أن يجمع تاجر الخمر بين تقديم الخمور للندامى وبين الغناء. فهل كان تجار الخمر يوظفون المغنين والمغنيات والموسيقيين في حوانيتهم وبالتالي يمنحونهم أجراً معيناً لقاء الخدمة التي يقومون بها في دكاكينهم؟

أجد نفسي أميل إلى هذا الرأي ، ولكن الواقع الشعري ، لا يظهر فيه ذلك، إذ يكتفي الشاعر الجاهلي برسم صورة المغني او المغنية او الموسيقي ، ولكن لا يظهره بمظهر الذي يعتمد على هذه المهنة في معيشته ورزقه .

وتتكرر نفس المشكلة في صورة الحادي، حيث تظهر صورة له، ولكن لا يظهر في الشعر الجاهلي أنه يتقاضى اجراً معيناً على عمله الذي يقوم به .

أما الصائد، فتظهر صورته في الشعر الجاهلي وقد احترف الصيد، فدرب كلابه جيداً لتقوم بالمهمة على اكمل وجه (وذلك في صورة صائد ثور الوحش) ، ويبدو أنه صاحب مهنة اتخذها ليكتسب بها "فهو أخو قنصٍ" كما يظهر في شعر أوس بن حجر .

وفي شعر قيس بن الحدادية ، تظهر صورة الصائد الدرب، الذي اعتاد الصيد .

وقد صور الشعر الجاهلي الصائد الذي فشل في صيده، ورسم له صورة الكآبة والألم التي عاشها لحظة الفشل في الصيد، مما يدل على أن الصائد قد اتخذ الصيد مهنة للكسب .

ويبدو الصائد في بعض الصور نحيلاً، خفيف لحم الفخدين ، خبيراً بمهاجمة الوحوش في معاقلها تتبعه كلابه الضواري، التي دربها جيداً .

أما في صورة صائد حمار الوحش ، فيتبين لنا بجلاء أن الصائد قد اتخذ الصيد مهنة لها بكل أبعادها، فقد صوره الشعر الجاهلي ، فقيراً، دنس الثياب، "ابو خمس صغار يحطن به" لم يترك لهن زاداً في البيت، وهو إذا لم ينجح في صيده جاع اطفاله "أخو قترات" وهو "إذا لم يصب لحماً من الوحش خاسف" كمافي شعر أوس بن حجر .

وسيتبين لنا في الفصل الثالث اثناء الحديث عن صورة الصائد، مدى الفرق بين صورة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصائد من اجل الكسب وبين صورة الصائد من اجل المتعة، فالأول يحترف الصيد من اجل رزقه ورزق عياله ، على حين يتخذه الثاني للرياضة والمتعة .

أما الغائص، فتظهر صورته في الشعر الجاهلي، نحيفاً ، ضامراً، متمرساً بالغوص والعوم يبشر اصحابه أن هذه الدرة التي يستخرجها من أعماق البحر تجبر البائس المحتاج لنفاستها .

ويظهر لنا بجلاء ان الغائص كان من اصحاب المهن، قد اتخذ من الغوص على اللؤلؤ مهنة له ، يتكسب بها .

وفي صورة أخرى تظهر صورة الغائص الذي ظل غائصا في اعماق البحر حتى وقع على درة، فاستخرجها وعاد بها إلى اصحابه الذين خافوا على مصيره، فتوجهوا بها الى السوق ليبيعوها إلى التجار، طالبين فيها ثمناً غالياً ، وذلك في شعر منسوب للأعشى .

ولس هدفنا في هذا الفصل أن نعرض لصور أصحاب المهن ؛ لأننا سنعرض لهذه الصور ونحللها في الفصول القادمة. ولكننا نعرض ملامح عامة لهذه الصور نحاول من خلالها ان نبين مفهوم المهنة من خلال هذه الصور .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة مشتار العسل، ويذكر لنا الشعر الجاهلي ادواته التي يستعملها في الاشتيار، ويصور لنا صفاته الجسدية وكذلك النفسية في بعض الأحيان.

ففي شعر ساعدة بن جؤية يبدو المشتار رجلاً خشن الأصابع قد أكلت أظفاره الصخر، قد اعتاد التسلق إلى الأماكن الغليظة . ويصور لنا فقره الشديد فهو لا يملك إلا ادوات الاشتيار، ويصور لنا -كذلك- مهارته في الاشتيار وبالتالي يظهر مشتار العسل صاحب مهنة اتخذها وسيلة للرزق والكسب، وتتكرر الصورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي .

أما فيما يتعلق بمهنة الرعي، فصورة الراعي أكثرصور أصحاب المهن خفاءً في الشعر الجاهلي حتى يكاد الشعر الجاهلي يخلو من صور الرعاة كما سيتضح لنا في الفصل الرابع .

فقد وردت صورة الراعي في الشعر الجاهلي بإشارة عابرة وذكر لنا الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض اسماء الرعاة وأعمالهم .

وإذا كنا لا نمتلك صورة واضحة المعالم لشخصية الراعي في الشعر الجاهلي، فلا نستطيع أن نتبين مفهوم المهنة من خلال صورة الرعاة التي أشار إليها الشعر الجاهلي بصورة عابرة .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الساقي و كذلك الزرّاع ، وجناة الثمر .

ففي شعر لبيد بن ربيعة العامري ، تظهر صورة الساقي : فهو رجل قد ابتذل نفسه للعمل، غليظ الكف والأصابع حيث يظهر الساقي في هذه الصورة قد اتخذ من الزراعة مهنة له .

اما في شعر زهير بن أبي سلمى، فتظهر صورة الساقي الذي يسقى الزروع على السانية "الناقة الساقية" ، حيث يبدو وهو يحدو للناقة ويعنفها كلما تباطأت في العمل، ويقف بجانب البئر قابل يتلقى الدلو ويأخذها، فيصب ما فيها في جدول تحبو فيه الضفادع .

ويمكن ان نلمح من وجود السائق الذي يحدو للناقة "السانية" ووجود "القابل" مبدأ تقسيم العمل، وبالتالي يظهر لنا أن الساقي كان صاحب مهنة فهو خبير بري المزروعات وقادر على استعمال الناقة في عملية الري والسقاية .

وفي شعر المخبل السعدي تظهر صورة الزارع وهو يقسم الأنهار بين مشارات الزرع.

وفي شعر بشر بن أبي خازم تظهر صورة الأنباط الذين كانوا يهتمون بالزراعة اهتماماً عظيماً. وتظهر صورتهم يوم الحصاد وهم يلبسون لباساً خفيفاً وقصيراً يتقون به شدة الحر أيام الحصاد كمافي شعر الأعشى .

ويظهر لنا في الشعر الجاهلي بعض أعمال الزرّاع ، مثل شق القنوات بين مشارات الزرع، وتغطية الثمار، وري المزروعات، وتأبير النخيل، ووضع الدعائم لتستند عليها الكروم .

يُفهم من هذه الأعمال التي كان يقوم بها الزراع أن الزراعة كانت مهنة، لأن هذه الأعمال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحتاج إلى خبرة ودراية، بالإضافة إلى العناية الشديدة بالمزروعات، وهذا لا يتأتى إلا لإنسان قد وطن نفسه لهذا العمل الذي يحصل على قوته وقوت عياله منه .

وقد ورد في الشعر الجاهلي صور التجار، منهم تجار السوق، ومنهم تجار دكاكين الخمر.

ولكن تاجر الخمر حظي بعناية الشعراء الجاهليين أكثر من غيره .

ويظهر أن التعامل التجاري في هذه الأسواق كان يتم بالنقد او بنظام المقايضة .

وصوّر لنا الشعر الجاهلي التاجر اليماني .

وفي شعر النابغة الذبياني نجد صورة المرأة الحرْمّية التي عرضت عليه ان يشتري الأدم في سوق "ذي المجاز" .

أما صورة تاجر الخمر فقد افتن الشعراء الجاهليون في رسمها، وتظهر صورة المساومة على البيع بين التاجر والمشتري واضحة في شعر الأعشى .

ويحدثنا الشعر الجاهلي عن الأماكن التي كان يذهب إليها تجار الخمرة ليجلبوا الخمور الجيدة إلى دكاكينهم .

وفي شعر عبيد بن الأبرص تبدو صورة تاجر الخمر وهو يغالي في ثمن خموره لجودتها، ولكلف العرب بها .

أما غلمان الحانات فتظهر صورهم- في الأغلب- ملازمة لحوانيت الخمر، ويظهر من خلال هذه الصور أنهم كانوا يقومون بالخدمة في داخل هذه الحانات، من حيث تقديم الخمور للندامى وذلك في شعر الأعشى .

وقد يقوم غلمان الحانات احيانا بالترجمة لتاجر الخمر الأعجمي و الندامى ، نجد ذلك في شعر الأسود بن يعفر .

وتبدو صورة غلمان الحانات متكررة في الشعر الجاهلي في الأغلب، حيث يظهر غلام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحانة وقد علق في أذنيه لؤلؤتين ، وشد على فمه وأنفه خرقة بيضاء .

ولكن يكتفي الشاعر الجاهلي برسم صورة غلمان الحانات، ولكن لا يظهر في الشعر الجاهلي سوى أنهم كانوا يقومون بعملهم بخفة ونشاط .

ولكن ملازمتهم لحوانيت الخمر وقيامهم بعمل محدد بمهارة في داخل الحانة يدل على أنهم كانوا يتقاضون اجراً معيناً على هذا العمل .

وتظهر صورة الصناع في الشعر الجاهلي، حيث أنهم كانوا يتخذون هذه الحرف مهناً لهم كالحدادة والخياطة والنسيج وغيرها . ونجد في الشعر الجاهلي صور القيون، ونجد ايضا ذكراً لأدواتهم التي كانوا يستعملونها في عملهم .

ويبدو أن أصحاب هذه الحرف كان ينضم بعضهم إلى بعض مكونين "صنفاً"، أي طبقة خاصة تتعاون فيما بينها تعاون النقابات المهنية والحرفية في الوقت الحاضر .

أما الأجور فقد تكون يومية وقد تكون سنوية وقد تكون مقطوعة، ولا يشترط في الأجر أن يكون نقداً، فقد يدفع عينة أي مالاً مثل طعام ، أو كساء لندرة النقد في ذلك الوقت (٦).

وترد في الشعر الجاهلي صورة القين، وكذلك صورة النساج، والقراري (الخياط) والهالكي (صانع الأدوات الحربية) والإسكاف والصائغ .

وقد صور لنا أوس بن حجر صورة صانع القوس، ووصف كيفية عمل صانع القوس. أما الشماخ فيعرض ما يمكن أن نسميه قصة صانع القوس، ويبدو بجلاء أن صانع القوس صاحب مهنة، يتخذ من صناعة "القسي" مهنة يكتسب بها ، ويحصل على رزقه منها.

ولا يظهر في الشعر الجاهلي أن العرب كانوا يحتقرون هذه المهن، ويأنفون من العمل بها وهذا ما سنتناوله في الفصل السابع.

أما المثل القائل : "إذا سمعت بسُرى القين فإنه مصبحٌ، فقد قال الأصمعي تعقيباً على هذا المثل : "وأصله -أي المثل- أن القين بالبادية ينتقل في مياههم فيقيم بالموضع اياماً فيكسد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه عمله، فيقول لأهل الماء إني راحل عنكم الليلة، وأن لم يرد ذلك ، ولكنه يشيعه ليستعمله من يريد استعماله، فكثر ذلك من قوله حتى صار لا يصدق " [١] .

نستنتج مما سبق أن مفهوم المهنة قد ظهر بصورة واضحة في بعض صور اصحاب المهن مثل الصائد والمشتار والتاجر والصانع، وظهر بصورة أقل وضوحاً في صورة الزرّاع ، بينما يخفى هذا المفهوم في صورة الكاتب والمغني والموسيقي .

وإذا قمنا بالمقارنة بين نظرة الجاهليين إلى المهنة ونظرة مجتمعنا المعاصر إليها ، نلمح بعض التشابه في النظرة، فقد وجد في المجتمع الجاهلي من يحتقر المهنة، ويحتقر المشتغلين بها، وإلى جانب ذلك وجد من اتخذ المهنة وسيلة للعيش والرزق وكذلك الشأن في واقعنا المعاصر فإننا نجد بعض الناس يحتقرون المهن كالزراعة وبعض الحرف اليدوية، ونجد بعض الناس يتخذونها وسيلة للعيش والرزق، فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان !

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الفنان في الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-١-

الكاتب

شاع بين كثير من الناس ان العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون حياة رعوية خالية من كل حضارة ورقي، فهم لا يقرأون ولا يكتبون، وأن الكتابة كانت نادرة بينهم، فالكتابة تعد مظهراً من مظاهر الحضارة والنضج الفكري ، والوعي التاريخي بالذات ، وضرورة حفظها من التفكك والإندثار "فأية حضارة لإنسان راع ينتجع مساقط الغيث؟ فهو لم يكن يحسن إلا الحلب والصر، بيته وبر، وطبه مأخوذ عن العجائز ، وعلمه بالنجوم من أجل الاهتداء بها"(٢١:١٠).

ويبدو لي أن السبب في شيوع هذه المقولة يرجع إلى عدم عناية القدماء من المسلمين -فيما وصل إلينا من كتبهم- "بدراسة مناحي الحياة الجاهلية دراسة مفصلة، تتناول اجزاءها ودقائقها في كتب أو رسائل منفردة ، يختص كل كتاب بمنحى من مناحي الحياة تلك الحياة المتشعبة. ولا يعني ذلك أن هؤلاء القدامى قد أغفلوا الجاهلية إغفالاً ، بل لا يكاد كتاب قديم يخلو من ذكر الجاهلية وحياة أهلها، و لكن الحديث عن هذه الجاهلية لم يكن يقصد لذاته ، فتسبر أغواره، ويلم شتاته، وأنما كان يقصد لغيره من موضوعات العصور الإسلامية التي كانوا يكتبون فيها ، فيستطردون للحديث عن الجاهلية : متمثلين مستشهدين ، او مقابلين موازين، أو واعظين منذرين، او ممهدين بين يدي حديثهم الأصيل حديثاً موجزاً يدخلون منه إلى الحديث عما يقصدون ، فيكاد يكون حديثهم عن الجاهلية حديثاً عابراً منثوراً نثراً متباعداً في تضاعيف كتبهم وثنايا رسائلهم "(٨:٤١-٤٢).

ويفهم من ذلك، أن دراسات القدماء عن العرب قبل الإسلام لم تكن ذاتية، حاولت فهم الإنسان الجاهلي من خلال معطيات حياته وظروفه، بل كانت دراسات تقوم على المقارنة والموازنة بين الحياة الجاهلية وغيرها من العصور الإسلامية وبالتالي جاءت هذه الدراسات مضطربة مشوشة لم تنصف هذا الإنسان الذي كان له دوره المتميز في حركة التاريخ الإنساني،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من اثر هذه الدراسات "أن اخبار حضارة الجاهلية جاءت في هذه الكتب ناقصة شائهة ، ثم متناقضة في الكتاب الواحد للمؤلف الواحد. ولكن الصفة الغالبة والسمة الظاهرة التي لا يكاد يشد عنها كتاب قديم، هي وصف تلك الجاهلية بأنها كانت قليلة الحظ من عمران ورقيّ، بعيدة عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية، وأن العرب كانوا أمة أمية جاهلة لا حظ لها من علم او معرفة أو كتابة"(٨:٤٢).

ويكفي في هذا الصدد ذكر مثال على تجني المصادر العربية القديمة على العرب الجاهليين ما قاله الجاحظ "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احداً من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون (١١).

وتبدو صورة العربي الجاهلي، في هذا الكلام غاية في الانحطاط، فهو في عيشه يعتمد على العفوية والارتجال؛ وبالتالي فهو لا يمتلك وجوداً فكرياً وإنسانياً يستحق الكتابة والتسجيل.

أما فيما يتعلق بأمية العرب الجاهليين ، "فلا تعني الأمية الكتابية ولا العلمية، وإنما تعني الأمية الدينية، أي أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل "أهل الكتاب" من اليهود والنصارى، الذين كان لهم التوراة والإنجيل"(٨:٤٥).

وبناءً على ما سبق فالأمية الجماعية التي ألصقها الإخباريون بالجاهليين، "ودعوى أن الجاهليين كانوا أميين وعلى الفطرة والبديهة، لا يحسنون كتابة وقراءة خلا نفر بمكة وأشخاص بيثرب، دعوى لا يمكن لمن له إلمام بأحوال الجاهلية أن يصدق بها. فأهل الأخبار الذين يروون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الرواية يعودون فيخطئون أنفسهم، بسرد أسماء رجال من جزيرة العرب ومن العراق وبلاد الشام ، ذكروا أنهم كانوا يقرأون ويكتبون ، بل ذكروا أكثر من ذلك، وذكروا أن منهم من كان يقرأ العبرانية او السريانية، كالأحناف ، ثم إنهم يذكرون أخبار مراسلات سادات القبائل في مختلف مواضع جزيرة العرب مع الرسول، ومكاتبة مسيلمة مع النبي وتأليفه كتاباً زعم أنه وحي نزل عليه من السماء مثل ما نزل على الرسول، فهل يعقل بعد ذلك، قول قائل إن العرب كانوا أميين، خلا نفر، وقد رأينا أنهم تركوا آلاف الكتابات باللهجات العربية والجنوبية وبالثمودية واللحيانية والصفوية ، بل قد نجد الكتابة في بعض قبائل الجاهلية مثل قبائل الصفاة، أكثر اتساعاً وانتشاراً مما عليه الحال بين قبائل هذا اليوم" (٦:١٤١- ١٤٢).

وبالتالي فإن التشديد على أمية الجاهليين ، كان ناتجاً عن عاطفة دينية وذلك "لإظهار معجزة للرسول -وهو في غنى عنها- في أنه ظهر بالنبوة في أمة أمية، وجاء من الله بأحسن بيان، وهي حجة له على أهل المشركين"(٦:١٤٢).

ويربط ابن خلدون في مقدمته بين الكتابة والعمران، وبالتالي فهو يرى أن "أكثر البدو أميون لا يكتبون ولا يقرأون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصراً أو قراءته غير نافذه ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً لاستحكام الصنعة"(٥:٤١٨).

ونحن نقر ابن خلدون في أن أهل البوادي النائية عن الحواضر، هم أميون ، لأن طبيعة البادية لا تساعد في تعلم الكتابة والقراءة ، ولا في ظهور العلوم وتطويرها ، ولكن لا يعني هذا أنهم جميعاً أميون، فكان بينهم من يقرأ ومن يكتب، شأنهم في ذلك شأن أهل الحواضر، فقد كان بينهم من يقرأ ومن يكتب، كما كان بينهم من يجهل القراءة والكتابة، والدليل على أن أهل البوادي كان منهم من يقرأ ويكتب "هذه النصوص الجاهلية التي عثر عليها مبعثرة في مواضع متناثرة من البوادي، وفي أماكن نائية عن الحضارة . وهي كتابات أعراب ورعاة إبل وبقر وأغنام، دونوها تسجيلاً لخاطر، أو للذكرى، أو رسالة لمن قد يأتي بينهم ، فيقف على امرهم"(٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تدل الكتابات الصفوية على "أن أعراب الجاهلية كانوا في أيام الجاهلية أحسن حالاً من حيث علمهم بالكتابة والقراءة من أعراب هذا اليوم. فالكتابات الصفوية الكثيرة المبعثرة في البوادي، هي كتابات أعراب متجولين، كانوا يرعون الإبل وبقية الماشية ، يسلّون أنفسهم بالكتابة والتصوير على الحجارة، بينما لا نكاد نجد بين أعراب هذا اليوم من يكاد يقرأ أو يكتب"[٦].

(٢)

ويشيع الحديث في الشعر الجاهلي عن الكتابة، وتتنوع مظاهر هذا الحديث، أذ نجد صوراً مكونة من منظر كاتب أكب على كتابه ومعه دواته، ونجد حديثاً يتعلق بموضوعات الكتابة الجاهلية ، بالاضافة إلى مواد الكتابة التى تشمل المواد التي كانوا يكتبون عليها مثل الجلد، والمهارق والنبات، والعظام، والحجارة وغيرها، والمواد التى كانوا يكتبون بها مثل القلم والدواة.

وتشمل هذه الصورة كاتباً قد أكب على كتابه بدواته، كقول سلامة بن جندل:(١٢:١٥٣-١٥٤)

لمن طللٌ ، مثل الكتاب المنمّق ... خلا عهدهُ بين الصليب فمُطرِقِ*

أكبَّ عليه كاتبٌ بدواتهِ ... وحادثُه في العين، جِدَّةُ مُهرَقِ

وتبدو من خلال هذين البيتين صوره الكاتب و قد أقبل على كتاب ولزمه ، وهو ينّمق هذا الكتاب . ويبدو أنّ عرب الجاهليه " كانوا يعتنون في خطوطهم وكتاباتهم، ويحبرونها ويذهبون فيها مذاهب من التجويد والاتقان " (٨:١٠١).

ويظهر في الصوره ايضا الماده التي كانوا يكتبون بها وهي الدواة، وكذلك الماده التي كانوا يكتبون عليها وهي المهارق أي الصحف . ونلا حظ كذلك ارتباط صورةالكتابة بالموقف

---

* منمق : موشى محسنٌ . يقال : نمقه إذا حسنه

الصليب ومطرق : موضعان

حادثهُ : أي حادث ذلك الرسم كأنه جدة الكتاب .

المهرق :الصحيفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطللي ، وهذا ما سنتناوله في البحث إن شاء الله .

وقد ترتبط صورة الكاتب بالزمان ، كأن يكتب الكاتب في وقت معين كقول طرفة (١٣:٩٧٥) :

أشجاكَ الرّبْعُ أم قِدَمُهْ ... أم رمادٌ ، دارسٌ حُمَمُهْ *

كسطور الرقّ رقّشهُ ... بالضحى ، مرقّش يَشِمُهْ

تتجلى صورة الكاتب هنا، وهو يكتب في وقت الضحى، وذلك اكمل لصنعة الترقيش ، والكاتب هنا يزين كتابته ويفتنّ بها حتى تظهر جميلة ، كما يفهم هنا من الفعل يشمه بمعنى ينقّشه ويزينه، ويجعله كالوشم في المعصم.

وقد تقترب الصورة كثيرا من عملية الكتابة نفسها عندما تحدق "بأنامل" الكاتب وهي تتبع سطور الكتابة كقول تميم بن أبي بن مقبل (١٤:٢٣٩) :

ولِلدارِ منْ جنبيْ (قَرْوَى) كأنّها ... وُحِيُّ كتابٍ أتْبعتهُ أناملُهْ **

فقد شبه آثار الدار الدارسة بسطور الكتابة، وأنامله: يريد أنامل الكاتب الذي يكتب في الصحيفة . وصورة التزيين جليّة في وصف الكتابة في الشعر الجاهلي، وهذا يعكس سمة حضارية جديرة بالتأمل ، فالكتابة لا يلاحظ فيها البعد الموضوعي فقط، وإنما ايضا البعد الجمالي، يقول الأخنس بن شهاب التغلبي (١٥:٢٠٤) :

لابنةِ حطان بن عوفٍ منازلٌ ... كما رقش العنوان في الرق كاتبُ

وقد تأتي صورة الكاتب كاملة ، أذ يظهر الكاتب في الصورة وهو يسوي سطوره مرّة ويخالف أخرى، ويجيء بها على غير استواء، وقد رجا صنعه، ساجياً، وقد اطبق أحد جفنيه

---

* الربع : المنزل .

الرق : الجلد الرقيق الذي يسوى ويرقق ويكتب عليه .

** قروي : اسم موضع . الوحي جمع وحي وهو الكتابة هنا .

والكتاب : بمعنى الصحيفة المكتوبة هنا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الآخر "طارف" ، ويرفع عينيه عن الصنع، في صورة مليئة بالحيوية الداخلية، والحركة الخارجية ، قال ثعلبة بن عمرو العبديّ (١٥:٢٨١):

لمن دمنٌ كأنّهنّ صحائفُ قِفَارٌ خلا منها الكثيب فواحِفُ *

فما أحدثت فيها العهودُ كأنّما تلعّبُ بالسَّمّان فيها الزّخارفُ

أكبّ عليها كاتبٌ بدواته يقيمُ يَدَيْه تارةً و يخالفُ

رجاءُ صُنْعَه ما كان يصنع ساجياً ويزفع عينيه عن الصُّنع طارفُ

وقد تكون الصورة"صورة الكاتب مرتبطة بالمكان ، فالكاتب ينتسب إلى مكان معين، كما يبدو في قول الأسود بن يعفر(١٦:٦٣) :

كأن بقايا رسمها بعدما حلّت لكالريح منها عن محلّ مُدَمَّنِ

مجالس أيسارٍ وملعبُ سامرٍ وموقد نارٍ عهدها غير مزمنِ

سطورُ يهوديين في مُهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدينِ

فالكاتبان المجيدان هنا من تيماء أو أهل مدين، ومما هو جدير بالذكر أن هاتين المدينتين كانت تسكنهما قبائل يمانية، ومدين كانت منازل جذام (١٧).

أما تيماء ففيها ناسٌ كثيرٌ من بني حُوين، من طيء (١٧). ويبدو لي أن ربط الكاتبين المجيدين بهذين المكانيين اللذين تسكنهما قبائل يمانية له أهمية خاصة عند دارسي الشعر الجاهلي، حيث نجد بعض الشعراء يجعلون الكاتب يمانياً حميرياً . قال عبدالله بن العجلان(١٨).

أم الدّار أمست قد تعفّت كأنها زَبورُ يمانٍ نقشته سطورها؟

---

* الدمن : جمع دمنه وهي آثار الناس وما سووا بالرماد، صحائف : أراد ما فيها من النقش والكتابة. الكثيب وواحف : موضعان.

العهود : الأمطار التي يعهد بعضها بعضاً . السماق : الأصباغ التي يزخرف بها في السقوف وغير السقوف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد ذلك ايضا في شعر لبيد بن ربيعة (١٣٨:١٩) :

دَرَس المنا بمُتالعٍ فأبانِ وتقادمت بالحُبْس فالسُّوبانِ *

فنعافِ صارةَ فالقنان كأنها زُبُرٌ يرجعها وليد يمانِ

متعوّدٌ لَحِنٌ يعيدُ بكفّه قلماً على عُسُبٍ ذَبَلْنَ وَبانِ

فالكاتب هنا وليدٌ يمان، وهو متعود ذلك، فهم يكتب على عسيب النخل .

وقال امروء القيس (٨٥:٢٠) :

لمن طللٌ أبصرته فشجاني كخطٍّ زبورٍ في عسيبٍ يمانِ

ويروى "في عسيب يمانٍ" على الإضافة أي في عسيب رجلٍ من اليمن وقد كان أهل اليمن يكتبون في عسيب النخلة عهودهم وصكاكهم .

وقال عبدالله بن عجلان النهدي (٢١).

وعاود عيني نَصْبُها وعزورُها أهمٌّ عناها أم قذاها يعوُرها **

أم الدار أمست قد تعفّت كأنها زبورُ يمانٍ رقشته سطورها

فالدار هنا قد امحى أثرها وزال ، حتى اصبحت مثل كتابٍ يمانٍ مزينة سطورها.

ونجد في شعر أبي ذؤيب الهذلي صورة جلية لكاتب حميري، يكتب من دواة على صحف كالرياط وهي الملاء، ويشبه في هذه الصورة آثار الديار بالكتابة، وهي صورة تتكرر في الشعر الجاهلي، قال(٢٢) :

عرفت الدّيار كرقم الدوا ة يذبرهُا الكاتب الحميريُّ***

---

* النعاف : رؤوس الاودية . صارة : موضع : القنان : جبل . يرجعها : يرددها . بان : شجر ، واحدها بانة، لحن : فهم ، فطن.

** عفا الأثر : امحى وزال ، زبور : كتاب .

*** الذبر : القراءة ، الرقم : الخط والأثر ، الوشم : النقش ، المشيم إبرة تضرب بها المرأة في يدها وكفها . الهدي : العروس التي هديت إلى زوجها . المزدهاة : التي استخفها عجب بنفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

برقـم ووشـمٍ كمـــا زخـــــزفت بميثَمِهَـــا المُزدهـــاةُ الهَـــدِيُّ

أدان وأنـــبأهُ الأوّلـــــــــون بـــــأنّ المُدان مَـــلِيٌّ و فـــيّ

فَنَـمْنَـمَ في صحفٍ كالرّيـــــا طِ فيهـــنّ إرثُ كتـــابٍ مـــــحيٌّ

"ويظهر من الأبيات جانب من الحياة الاجتماعية يتعلق بأصول المعاملات في ذلك العصر من حيث كتابة الدين، وتوافر الشهود العُدول الذي يشهدون أن المدين قادر على الوفاء بالدّين في أجله، وفيها جانب آخر من الحياة الاجتماعية يرتبط بالزواج حيث تزخرف او تزين العروس عندما تهدى إلى عروسها، وفي مفهوم الزواج في الجاهلية في عدّهم العروس هدية من أهلها ، لا يرجون من ورائها بدلاً أو عوضاً" (٢٣:٧٦).

ونلاحظ ايضا ذكراً للادوات التي كانوا يستعملونها في الكتابة كالدواة والصحف، وفي هذا السياق نجد أبا ذؤيب الهذلي "يلح على صورته إلحاحاً شديداً ويعنى بالتفصيل ويدقق في الوصف ولا يترك الصورة إلا بعد أن يستوفي جوانبها المختلفة" (٢٤:٧٢).

وثمة سؤال يطرحه دارسو الشعر الجاهلي، هو لماذا تظهر صورة الكتابة مرتبطة بالكاتب اليمني الحميري؟

و يرى صاحب الخزانة بصدد تعليقه على البيت الأول من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي أنه ذكر الحميري "لأن الكتابة أصلها من اليمن".(٢٥)

ويرى ابن خلدون كذلك أن أصل الخط العربي من اليمن، بمقتضى نظريته في العمران لأن الكتابة والخط من الصنائع الحضرية، يقول "وقد كان الخط العربي بالغاً مبالغة من الإحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين .....

ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من اسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم :

قـومٌ لهم ساحـــة العـــــراق إذا ســاروا جميعاً والخـــطّ والقلـــــم

وهو قول بعيد لأن إياد وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة، والخط من الصنائع الحضرية وإنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال ، وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة.(٤١٨:٥)

وبالتالي فإن بعض الشعراء يجعلون الكاتب يمانياً حميرياً لأن اصل الكتابة من اليمن . يقول صاحب المزهر "وقال ابن دريد في اماليه : أخبرني السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن عوانة قال : أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مرامر بن مُرّة وأسلم بن جددة الطائيان ثم علموه أهل الأنبار ، فتعلمه بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك الكندي صاحب دومة الجندل، وخرج إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت ابي سفيان فعلم جماعة من أهل مكة، فلذلك كثر من يكتب بمكة من قريش ، فقال رجل من أهل دومة الجندل من كندة يمنّ على قريش بذلك :

لا تجحـدوا نعمـاء بشر عليكـــمو فقـد كـــان ميمون النقيبة أزهـــرا

أتـاكم بخـط الجـزم حتى حفظتمـو من المـال مـا قد كان شتى مبـعثرا

واتقنتمو ما كـــان بالمال مهمـــلاً وطـــامنتمو مـا كـــان منه منفرا

فأجريـتمُ الأقـلام عـــوداً ويـــــداةً وضاهيتمو كتـاب كسرى وقيصـرا

وأُغنيتمو عن مُسند الحي حمـــــيْر ومأزبَرت في الصحف أقيال حـميرا

قال شرقي بن القطامي : إن أول من وضع خطنا هذا رجال من طيء منهم مُرامر بن مرة قال الشاعر :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تـــــعلمت بـاجـاد وآل مـــــــرامر وسودت سربـــالي ولست بكـاتب

وإنما قـال : آل مـرامـر؛ لأنه قـد سـمى كل واحـد من أولاده بكلمـة من أبي جـاد وهم ثمانية"(٢٦:٣٤٦-٣٤٧).

وأخذ بـهذا الرأي صاحب كتاب بلوغ الأرب الذي نقل رأي ابن خلدون، والسيوطي(٤).

ويبدو أن العرب، كانوا يدونون قبل الإسلام بقلم ظهر في اليمن بصورة خاصة هو القلم الذي اطلق عليه أهل الأخبار (القلم المسند) أو قلم (حمير) وهو قلم يباين القلم الذي نكتب به الآن . ويظهر من عثور الباحثين على كتابات مدونة (بالمسند) في مواضع متعددة من جزيرة العرب، ومنهاسواحل الخليج العربي ، بعض منها قديم، وبعض منها قريب من الإسلام، أن قلم المسند، كان هو القلم العربي الأصيل والأول عند العرب (٦) (٢٧).

وربما تكون صورة الكاتب اليماني المتعوّد اللحِن -كما يقول لبيد- أعلق في نفوس الشعراء الشماليين من صورة الكاتب الشمالي" وبالتالي فان انتشار خط المسند وارتباط هذا الخط باليمن، هما من الأسباب التي جعلت بعض شعراء الشمال ومنهم أبو نؤيب يجعلون الكاتب يمانياً" (٢٣:٧٨).

(وانظر إلى نماذج من خط المسند في الملحق) .

وفي الشعر الجاهلي نجد قصيدة فيها ذكر لاسم كاتبين (ابن منذر) وبالتالي ترد صورة الكاتب مرتبطة باسمه، ونلاحظ تكرار صورته من حيث زخرفته للكتاب ، وارتباط الكتابة بالموقف الطللي) قال عامر بن جُوين الطائي(٢٨:١٧٨) :

هـاج رسـمٌ دراسٌ طَرَبـــــــــا فطويـلاً ظَـلْتَ مُكتئـــــــبا*

أن رأيت الـــدار موحشـــــــةً بِلِغَاطٍ لـــــم لهـا رجَبـــــاَ

---

* الطرب : هنا الحزن ، لغاط : اسم جبل من منازل بني تميم

لها رجباً : أي كم مرت عليها من أعوام ، وكني برجب عن السنة ، وكانوا يعظمون شهر رجب في الجاهلية ويجعلونه من اشهر الحرم (ياقوت : الغمر)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دار هندٍ بالستار وقـــــــــــد رثَّ حبل العهد فانقضبـــــــا

بين سيل الواديين كمـــــــــا نمنم ابنـــا منذرٍ كُتُبـــــــــا

وكذلك في قصيدة لزهير بن أبي سلمى ،، نجدُ "أبا الحويرث" شخصاً كاتباً مذكوراً بالاسم (٢٧٦:٢٩) :

أخبرت أن أبـــا الحويرث قـــــد خط الصحيفة ، أيْتَ للحِلْـــــمِ !

يريد عجباً لحلمه، كيف غاب عنه، حين خط الصحيفة .

وفي المقابل ترد صورة الكاتب " الغلام" الذي يكتب كتابته على الصخر، وقال عبدالله بن سليم بن الحارث الأزدي (٣٠:٢٨) :

لمن الديـــار تلوح بالغمـــرْ درستْ لمـــرّ الر يـــح والقطْـــر

فبشط بسيان الريـــاغِ كمـــــا كتب الغلامُ الوحـــيَ فـــي الصخـــر

ونلاحظ في هذين البيتين ذكراً للصخر وهو من الأدوات التي كانوا يكتبون عليها .

وتتكرر صورة الكاتب الذي يرقش كتابته ، وتظهر الصورة مرتبطة بالموقف الطللي، في شعر الأخنس بن شهاب التغلبي (١٤٠:٣٠). وفي شعر صخر الغي(٣١)، وفي شعر حاتم الطائي(٣١) .

أما موضوعات الكتابة الجاهلية فهي متعددة، حيث نجد صوراً للكتابة الدينية، ومن الثابت أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى "كانت كتبهم مدونة بين أيديهم يتلونها ، وأن هذه الكتب لم تكن نسخاً قليلة العدد موقوفة على الرهبان والأحبار وحدهم ، وإنما كانت مصاحف كثيرة العدد يتداولها أهل هاتين الديانتين، ووجود التوراة والإنجيل بالعبرية أو السريانية، لا ينفي أن هذين الكتابين كانا باللغة العربية، وأن بعض العرب كان يقرؤهما بهذه اللغة"(٦١:٨).

ونجد في الشعر الجاهلي ما يشير الى معرفة عرب الجاهلية بهذه الكتب الدينية ، قال امروء القيس (٨٩:٢٠) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قفا نبك من ذكرى حبيب وعِرْفان ... ورسمٍ عفَت آياته منذ أزمانِ

أتت حججٌ بعدي عليها فأصبحت ... كخط زبورٍ في مصاحف رهبانِ

وقال المرقش الأكبر (٢٨٦:٣٢) :

وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌ على أحدٍ بدائم

قد خطّ ذلك في الزُّبو ... ر الأوليات القدائم

ونجد ذلك في شعر للشماخ(١٢٩:٣٣) :

أتعرف رسماً دارساً قد تغيّرا ... بذُروةَ أقوى بعد ليلى وأقفرا

كما خطّ عبرانيةٌ بيمينه ... بتيماء حَبْرٌ ثم عرّض أسْطرا

فالعبرانية هنا لغة اليهود، والحبر : هو العالم، ويبدو الحبر في هذه الصورة يكتب وهو في عجلة من أمره لا يتأنى ولا يتأنق ، فيأتي خطه غير بيّن، ويدلّ هذا النص على معرفة العرب بالنصوص الدينية التي كان يكتبها الأحبار بلغتها العبرانية .

وقال النابغة الذبياني يمدح عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الغساني (٥٦:٣٤).

مخافتهم ذاتَ الإلٰه ودينهم ... قَويمٌ فما يَرْجُون غير العواقبِ

قال أبو عمرو: وروى ابن دأب "مجلتهم ذات الإلٰه" وقوله : مخافتهم ذات الإلٰه، يريد يخافون أمر الله تعالى . وذات الإله : كتابه . وفي رواية "مجلتهم ذات الإله" يريد : كتابهم الإنجيل وكانوا نصارى، وكل كتاب عند العرب مجلة، وهم لا يطلبون غير عواقب أمرهم ، وفي هذا دلالة واضحة على معرفة العرب بهذه الكتب الدينية .

ومن موضوعات الكتابة الجاهلية العهود والمواثيق التي تربط بينهم، قال الأعشى(٢٧٩:٩):

ربي كريمٌ لا يكدّر نعمةً ... وإذا يناشُد بالمهارق انشدا

ويعلق الدكتور ناصر الدين الأسد على هذا البيت بقوله : "وربه هذا إنما يعني به سيداً كريماً متفضلاً عليه -كما يتضح من البيت السابق لهذا البيت- والمهارق هنا قد تعني الكتب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدينية، فيصف هذا السيد الكريم بالتدين وبأنه يلبي داعي الدين إلى صلة المحروم واعطاء المحتاج، وقد تعني المهارق كتب العهود والأحلاف ، فيكون معنى البيت ان هذا السيد الكريم لا يخفر ذمته لا ينقض عهده، وإنما يفي بما عاهد عليه فإذا ما ذكره بهذه العهود المكتوبة في المهارق بادر الى المحافظة عليها والوفاء بها" (٦٥:٨).

وقال قيس بن الخطيم(٤٩٦:٣٠) :

لما بـــدتْ، غُـــدْوةً ، جباهُهمُ حنـــت إليـنا الأرحـام ، والصّـحُفُ

والمقصود بالصحف : العهود والمواثيق . التي في الصحف .

ويتحدث قيس بن الخطيم عن حلفائهم من ذبيان وعبس، أذ كان للأوس والخزرج حلفاء من قبائل العرب يستعينون بهم في حروبهم(٧٢:٣٥) :

لعمري لقدْ حـــالَفتُ ذُبـيان كلّها وعـبساً على مـا في الأديـم المـمدَّدِ

قال أبو عمرو : كتبوا صحفاً وتحالفوا عليها(٧٢:٣٥).

ويذكر الحارث بن حلزة حلف ذي المجاز، وقد كان حلفاً موثقاً في الصحف ، قال(١٣:٣٦):

واذكـروا حلـف ذي المجاز ومـا قـدم فـيه العـهود والكـفلاء

حـذر الجـور والتعـدي ولـن ينـ ـقض ما فـي المهـارق الأهـواء

فهو يرى أن الأهواء لا تغير ما خط في المهارق ، وما أخذ على القوم من العهود والمواثيق حذر الجور والتعدي .

ويبدو أن كتب الأمان كانت معروفة لدى العرب، لذلك قال الطفيل الغنوي عندما اعتدى النعمان بن المنذر -وكان كسرى عمله على العرب- على إبل لسنان بن عائذ الضبي من بني عبس بن خبيب (٩١:٣٧).

أأجـرم أم جنـى أم لـم تخـطوا له أمـناً فيوجـد فـي الكتاب

يريد : هل أتى بجناية جارم ، أم لم تكتبوا له أمناً في كتاب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من موضوعات الكتابة الجاهلية الصكوك، ويبدو أنها كانت شائعة ، ويعود السبب في ذلك إلى أن كثيراً من القوم كانوا تجاراً فكان من الطبيعي ان يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة يحفظون به حقوقهم أن تضيع.(٦٩:٨).

وقد مر معنا قصيدة أبي نؤيب الهذلي يصف كاتباً من اليمن يكتب دينه علي رجل آخر أثنى عليه"الأولون" بأنه من الأوفياء بدينهم .

وهناك نوع من أنواع الصكوك يسمى الوِصْر، وهو الصك وكتابة العهد، وهو أن يقطع رجل لرجل أرضاً ويكتب له الوصر(أي الصك) قال عدي بن زيد العبادي (٥٥:٣٨) :

فأيكم لم ينلْهُ عُرفُ نائلِهِ ... دَثْراً سَواقاً وفي الأرياف أوصاراً *

ومن موضوعات الكتابة عند العرب في الجاهلية المراسلات قال الألوسي "وربما كتبوا ابياتاً من الشعر تؤدي مقاصدهم إذ الشعر كان يؤمئذ "ديوان العرب".(٤) .

قال لقيط بن يعمر الإيادي ينذر قومه من غزو الفرس لهم، ويبدو انه قد أرسل ابياته في رسالة (٣٥:٣٩) :

سلامٌ في الصحيفة من لقيطٍ ... إلى من بالجزيرة من إياد

ويختم قصيدته بقوله(٥١:٣٩) :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم ... لمن رأى رأيه منكم ومن سَمِعَا

وقال المرقش الأكبر(٢٣٥:١٥) :

أتتني لسان بني عامرٍ ... فجلّت أحاديثها عن بَصَر

بأن بني الوخم ساروا معاً ... بجيش كضوءِ نجوم السَّحَر

واللسان هنا الرسالة .

---

* الوصر : كتاب العهد والوثائق وجمع الوصر اوصار . أي اقطعكم وكتب لكم السجلات في الأرياف (انظر اللسان : مادة وصر) (ج٥ :٢٨٤) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- ادوات الكتابة

ويشيع في الشعر الجاهلي الحديث عن أدوات الكتابة ، فمن هذه الأدوات التي كانوا يكتبون عليها "الحجر الأملس"، قال زهير بن أبي سلمى(٢٢٩:٢٩) :

لمن الديار ، غشيتها بالفد فد كالوحيِ ، في حجر المسيل المُخلدِ

وحجر المسيل : هو الحجر الذي يكون في مجرى الماء، فهو أصلب له. فقد شبه الديار بالكتابة في حجر المسيل ، ووجه الشبه بينهما الثبات .

وكانوا يكتبون على الجلد، ويرد في الشعر الجاهلي باسماء مختلفة الرق و الاديم ، و القضيم.

قال حاتم الطائي(٤٣:٣١) :

أتعرف أطلالاً ونُؤياً مُهدما كخطك في رَقٍّ كتاباً منمنما

وقال امرؤ القيس(٥٢:٢٠) :

فعادى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ وبين شبوبٍ كالقضيمة قَرْهبِ

يريد تابع هذه الفرس ووالي صيد الوحش، من بين ثور ونعجة وثور مسنّ (شبوب) وخصه بالذكر لفضله على الثيران والنعاج لسنه وقوته؛ وأنه فحلها الذابّ عنها ، وشبهه بالقضيمة.

أما الأديم ، فقد ورد ذكره في شعر المرقش الأكبر بقوله(١٨) :

الدار وحشٌ والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

والفرق بين الرق و الأديم والقضيم واضح من خلال النصوص، ويرى صاحب اللسان أن الرق : هو ما يكتب فيه وهو جلدٌ رقيق، أما الأديم فهو الجلد الأحمر المدبوغ، أما القضيم فهو الجلد الأبيض يكتب فيه، ويظهر الرق ايضا في شعر معقل بن خويلد(٢٢) :

وإنّي كما قال ممملي الكتا ب في الرقّ إذْ خطه الكاتبُ

يرى الشاهد الحاضر المطمئـ نّ من الأمر ما لا يرى الغائبُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول الأخنس بن شهاب التغلبي(٣١:٤٠):

لأبنة حطـــان بن عـــوف منـــازل كما رقّش العنـــوان في الـّرق كاتبُ

ويرد في الشعر الجاهلي ذكر "المهارق" واحدها "مُهرق" وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها، فارسي معرب ؛ قال حسان "

كـم للمنـــازل مـــن شـــهر وأحوال، لآل اسمـــاء مثل المُهـرق الـــبالي

وقيل : المُهرق : ثوب حرير يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه، وهو بالفارسية مُهر كرد، وقيل : مهر لأن الخرزة التي يصقل بها يقال لها بالفارسية كذلك" (١).

قال الحارث بن حلّزة اليشكري (١٨:٣٦) :

لمـن الديـــار عفـــون بالحُبْـــسِ آياتـــُها كمهـــــارق الفُـــــرس

وقال أوس بن حجر(٧٧:٤١):

تضمنـــــها وهـــمٌ ركـــوبٌ كأنّـــه إذا ضـــــم جنبيـــه المـخارِم رَزْدقُ

على جـــازعٍ جَـوزِ الفـــلاة كـــأنّه إذا ما علا نشـــزاً مـن الأرض مُهـرِقُ

يريد تضمن الطريق هذه الناقة وذلك إذا علت وأخذت فيها . والمخارم جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل ، وشبهه بالسطر الممدود لاستوائه وامتداده .

وترد (المهارق) في شعر سلامة بن جندل(١٢)، في شعر الأسود بن يعفر(١٦) وفي شعر الأعشى(٩).

ويرد في الشعر الجاهلي "العسيب وهي "جريدة من النخل مستقيمة، دقيقة يكشط خوصها، وجمعها اعسبه وعُسبٌ

وعُسُوب عن أبي حنيفة ، وعسبانٌ وعُسبان، وهي العسيبة ايضا، وفي الحديث : أنه خرج وفي يده عسيب ، قال ابن الاثير : أي جريدةً، وهي السعفة، مما لا ينبت عليه الخوص"(٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر من الشعر الجاهلي أنهم كانوا يكتبون عليها، قال لبيد بن ربيعة(١٣٨:١٩):

"متـــعوّدٌ لَحِـــن يعـــيد بكفـــه قلماً علـــى عُسبٍ ، ذبـــلن ، ويـــان

وقال امرؤ القيس(٨٥:٢٠) :

لمـــن طللٌ ابصـــرته فشجانـــي كخـطّ زبـــورٍ في عســـيبِ يمـــانِ

ومن المواد التي كانوا يكتبون عليها القرطاس، قال طرفة بن العبد يصف ناقته(١٧٤:٤٢):

ووجه كقرطاس الشآمـي ومشفرٌ كسِبْت اليـماني قـدّهُ لـم يُحـدَّدِ

قال أبو بكر بن الانباري شارح المعلقة بصدد تعليقه على هذا البيت "ووجه" اراد هو عتيق ليس فيه شعر، ويقال : أراد بياضه . قال الطوسي والتوزي : شبه بياض خدها ببياض القرطاس . وقال أحمد : جعله كالقرطاس في نقائه وقصر شعرته"(١٧٤:٤٢).

ويعلق الدكتور ناصر الدين الأسد على هذا البيت بقوله : "ونحن نرجح أنه أراد بالقرطاس هنا ورق البردي -لا الجلد- لأنه ذكره في مقابل "السبت" وهو جلد البقر المدبوغ بالقرظ فحينما أراد تشبيه خدها شبهه في نقائه وبياضه بالورق، ثم شبه مشافرها بالجلد المدبوغ بالقرظ"(٩٢:٨).

ويرد في الشعر الجاهلي ذكر المواد التي كانوا يكتبون بها، مثل القلم، قال توبة بن مضرس العبدي(٧٤:٤٣):

أضحـــت ديـــار بني أبيـــك كأنها بالبـــر قتـــينِ تخـــط بالأقـــلام *

وقال معاوية بن مالك (٥٣:٤٤) :

فـــإن لـــها مـــنازل خاويـــات على نمـــلى وقـــفت بها الرّكابـــا

من الأجـــزاع أسفلَ من نُمَـــيْلٍ كـــما رجّـــعتَ بالقلـــم الكتابـــا

---

* البرقتان : موضعان (معجم البلدان، ياقوت) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد ذلك في شعر عدي بن زيد العبادي (٣٠:٧٤٢) :

يا ليت مـــن مُبلـــغٍ عنـــي مالكـةٍ إذ حيلِ دونِ كتـــاب الكـــفّ بالقـــلمِ

ومن المواد التي كـانوا يكتبـون بهـا "المداد" ويسـمى "النقس" ايضـا ، قـال زهيـر بن مسعود(٤٥:١٩٥) :

وكـأن رحلـــي فـــوق ذي جُـــددٍ بشـــواهُ والخـــديـــن كالنـــقسِ

والنقس هنا المداد ، وهو ما يكتب به.

ونجد ذلك في شعر سويد بن كراع العكلي(٤٦:٦٦) :

ومختلـــف العصـــرين حتـى كأنها صحائـــف يعلـوهـــن بالنِّقـــس واشـــمُ

وفي الشعر الجاهلي نجد صورة فريدة (لصوت القلم) حيث يشبه السحاب الذي لرعده صوت، يشبه صوته بصوت القلم، قال بشر بن أبي حازم(٤٧:١٠٩) :

فجنـــب عنـــيزةٍ فـــنوات خـــيرٍ بهـــا الـــغزلان والبـــقر والرتـــاعِ

عفـــاها كـــل هطـــالٍ هـــزيمٍ يشبـــهُ صـــوته صـــوت اليـــراعِ

ويشيع في الشعر الجاهلي الحديث عن اسماء عامة كانوا يطلقونها على المواد المكتوبة وما كتب عليه معاً، ترد بألفاظ مثل الصحيفة، قال أوس بن حجر(٤١:٦٤) :

وقد سألت عـنّي الوشـاة فُخـبّرت وقـد نُشرت منهـا لـديّ صحـائف

ونجد ذلك في شعر عبيد بن الأبرص ، قال(٢١:٣٨) :

فالمـــرَوْرَاتِ كالصّحـــيفة قـــفرٌ كـــلّ وادٍ وروضـــةٍ مِحْـــلالِ

حيث شبه آثار الديار بالصحيفة في بياضها واستوائها .

ونجد ذلك في شعر قيس بن الخطيم(٣٠:٤٩٦)، قال :

لما بدت، غـــدوة ، جباهُـــهم حَنَّـــتْ إلينا الأرحـــام والصحـــفُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرد ذكر الصحيفة في شعر المتلمس عندما هجا عمرو بن هند بعد لحاقه بالشام فقال(١٨):

أطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب ما تتل

ورهنتني هنداً وعرضك في صُحُفٍ تلوح كأنها خِلَلُ

ويرد كذلك ذكر "الكتاب" بمعنى المادة المكتوبة نجد ذلك في شعر معاوية بن مالك(١٥:٣٥٧):

من الأجزاع اسفل من غُيْلٍ كما رجّعتَ بالقلم الكتابا

حيث يشبه اثار الديار بالقلم إذا عاد على الكتابة، وكذلك في شعر عبيد بن الأبرص، قال(٣٢:٦٠٢):

أمن دمنةٍ أقوت بجوّة ضَرْغَدِ تلوح كعنوان الكتاب المجدّد

وفي شعر بشر بن عُلَيْق الطائي ، حيث يربط بين الكتابة والموقف الطللي(٢١) :

اذاعت به الأرواح حتى كأنما حسبتَ بقاياه كتاباً مُنمنمَا

وفي شعر عبيد بن عبدالعزى السلامي (٢١):

رسوماً كآيات الكتاب مبينةً بها للحزين الصَّبِّ مبكى وموقف

ومن الألفاظ التي كانوا يطلقونها على المادة المكتوبة "الزبور"، نجد ذلك في شعر امرىء القيس (٢٠:٨٥):

لمن طللٌ ابصرته فشجاني كخط زبورٍ في عسيب يمانِ

وقد تقدم هذا البيت .

وفي قول لبيد بن ربيعة(١٩:١٣٨):

فنعاف صارة فالقنان كأنها زُبُرٌ يرجعها وليد يمانِ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي قول عبدالله بن عجلان النّهدي[٢١] :

أم الـــدار أمست قد تعفت كأنهـا زبـورُ يمـانٍ رقشـته سطـورهـا

ونجـد في الشـعـر الجـاهلي ذكـراً لكتب مـأثورة مـثل كـتـاب "تميم"، قـال بشـر بن أبي خازم[٧٨:٤٧] :

وجدنـسـا فـــي كتـــاب بني تميمٍ : أحـــقُّ الخيـــل بالرّكـــض المُعـــار

وفي المفضليات : "المعار : المسمن ، يقال : أعرت الفرس أسمنته ، وقيل المعار : المضمر، وقيل انه الذي تركه صاحبه يعير أي ينفلت ويذهب ههنا وههنا من المرح. وقال الجوهري : والناس يروونه المعار من العارية وهو خطأ" [٣٤٤:١٥].

ومن القضايا الفنية المهمة في الشعر الجاهلي هو ربط الكتابة بالموقف الطللي والسؤال الذي يطرح نفسه : لماذا يربط الشاعر الجاهلي بين حديثه عن الاطلال وبين الكتابة ؟ لماذا يتكرر في الشـعـر الجـاهلي تشبيـه اثار الديار بالكتـابة؟ هل العـلاقـة بين اثار الديار وبين الكتـابة هـي علاقة مبنية على الزخرفة التي نلاحظها في خط "المسند" الذي كان يكتب به اهل اليمن والذي كان شائعا في الجزيرة العربية، بحيث دفع الشاعر إلى الربط بينهما بعلاقة تشبيهية وجه الشبه فيها هو صورة الزخرفة والتزيين الشكلي؟ ولا سيما أن الصورة التي ترد في الشعر الجاهلي مبنية علي التشبيه (بين اثار الديار والكتابة) .

يقول الدكتور نصرت عبدالرحمن "والواقع ان التشبيه من اكثر قضايا النقد تعقيداً وهو ينغرس في اعماق الوجدان البشري .... فالتشبيه أخطر من أن يكون الغرض منه التزيين والأيضـاح .... والتـشـبـيـه اخطر من أن يقـال عنه أن العـلاقـة بين المشـبـه والمشـبـه به حسية[١٤:١٠] .

"واخطر ما في نقد الشعر ان نظن ان الصورة ظل للعالم الخارجي ، فتظل عيوننا محدقة في المادة ، وما الصورة كذلك فهي تنبع من ارقى ملكات النفس الإنسانية وهي التصور . والعلاقة بين المشبه والمشبه به وإن تبدى فيها الحس فهي في حقيقتها علاقة معنوية قد لبست

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لباساً حسياً"(١٥:١٠).

قال لبيد بن ربيعة في معلقته المشهورة (٥٢٠-٥١٧:٤٢) :

عفت الديار محلها فمقامها بمنىً تأبد غولها فرجامُها *

فمدافع الريان عُرّيَ رسمها خلقاً كما ضمن الوحيُّ سلامُها

قال ابو بكر محمد بن القاسم الانباري في شرحه لهذه الأبيات :

"اثار هذه المنازل كأنها كتابٌ في حجارة" (٥١٩:٤٢) بين طرفي التشبيه هي علاقة حسية تتمثل في الكتابة المنقوشة على الحجارة في شكلها الخارجي .

ربما يكون الموقف الطللي يمثل" تعبيراً عن شعور عميق بالأسى والفقدان يعانيه الشاعر عدنما يعود إلى الأطلال ويراها دارسة مدمرة"(٥٧:٤٨).

ولكن هذا الغياب المطلق الذي نجده في الصورة الطللية "ليس الخصيصة الوحيدة المهمة والمثيرة للإستغراب في هذا ، ذلك أن المشهد نفسه، والذي يفترض أنه مشهد للخراب الشامل والخواء ليس في الواقع كذلك"(٥٧:٤٨) .

يبدأ البيت الأول بقول الشاعر "عفت الديار" وهذه تمثل عملية سلبية، ولكن سرعان ما تتلوها إشارة اخرى "تأبّد" أي أن الحياة ما تزال موجودة في المكان ولكنها تتخذ صورة حيوانية لا إنسانية ، وبالتالي يمثل هذا (البيت ثنائية . أما البيت الثاني فإنه يثير الدهشة بصورة فورية بسبب صورة مجاري الماء التي تبرز فيه، إذ أن إدخال صورة الماء والمجاري التي يتفجر منها إلى المشهد العام له دلالته مع أنه يأتي في مظهر نفي لوجود الماء الآن ، في اللحظة الحاضرة، ومجاري الماء عارية . إلا أن المكان نفسه دال، فهو الريان : أي أن الرواء خصيصه

---

* عفت الديار : معناه درست. تأبد : توحش . المحل : حيث يحل القوم من الديار . المقام : حيث طال مكثهم فيه. منى : موضع . وقال بعض الرواة : الغول والرجام جبلان ، ومنى ومكة .

المدافع : مجاري الماء وهي التلاع . الريان : وادي بالحمى "عري رسمها خلقاً : أى ارتحل عنه فعري بعد أن أخلق لسكونهم إياه. الوحي : الكتاب . السلام : الصخور .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أساسية من خصائص المكان تمنحه، بسبب ديمومتها فيه، اسم (الذي يشتق من الرواء). ولكن اعمق ملامح البيت دلالة هي الصورة الشعرية نفسها ، التي يحاول الشاعر عن طريقها إضاءة خصائص مجاري الماء بربطها (عن طريق التشبيه) لا بعنصر فيزيائي معرى ، دارس الملامح، بل بعملية زمنية تكون حصيلتها النقيض المباشر للعفاء والامحاء والعزاء. هكذا توصف مدافع الماء ومجاريه بأنها عريت كما يحفظ الحجر الكتابة المنقوشة فيه يخلدها ويمنحها الديمومة. هل يمكن اعتبار هذا التشبيه تناقضاً؟ هل يمكن أن يكون هذا التصوير حسياً ؟

إن هذه الصورة تقدم مفارقة جذرية وجوهرية : إذ تضاء عملية سلبية عبر عملية ايجابية : وكلا العمليتين تنبع من حركة الزمن ومروره -الزمن في مروره يجر الأشياء ويعريها ، لكنه في الوقت نفسه يخلد الاشياء ويمنحها الديمومة"(٤٨).

وفي البيت الثامن من معلقة لبيد، يبرز الشاعر صورة التخليد (منح الخلود)، ولكن بصورة اكثر نصاعة وحيوية(٤٢:٥٢٦) :

وجلا السيّولُ عــن الطلـول كأنّهــا زُبُــــرٌ تجــــدُّ متونهـــــا اقلامُهــا

يقول الألوسي "وكشفت السيول عن اطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها فكأن الديار كتب تجدّد الأقلام كتابتها؟ شبه كشف السيول عن الأطلال التي غطاها التراب بتجديد الكتاب الدراس، وظهور الأطلال بعد درسها بظهور السطور بعد درسها" (٤).

إذن العلاقة بين طرفي التشبيه هنا، هي علاقة التجدد والاستمرار لقدعبرت السيول، أهي سيولٌ مدمرة ؟ لا . لأنها كشفت عن الطلول. وبالتالي بقيت الأطلال .

فليس الخط الدلالي المسيطر خط العفاء والزوال ، إذ أن الطلول تضاء عبر صورة للبقاء والكينونة الأبدية المتجسدة في الكتابة وخلود ما يكتب .

والتشبيه هنا ليس تشبيهاً جامداً لا زمنياً بل أنه ليخلق عملية حركية زمنية لا حالة قرار والفعل "تجد" فعل جوهري الأهمية في الصورة كلها، إذ أن ما يقال هو أن الأقلام تجد الكتابة (وستجدها إلى الأبد) بدلاً من أن يقال أنها جددتها" (٤٨:٦١). ويتكرر الموقف الطللي في

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر الجاهلي مرتبطاً بالكتابة، نجد ذلك في شعر ربيعة بن مقروم(١٥٨:٤٥):

لمن الدّيار كأنّها لم تُحْلل ... بجنوب أسْنَمةٍ فقف العُنْصلِ*

دَرَسَتْ معالمها فباقي رسُمها ... خَلَقٌ كعنوانِ الكتاب المُحْوِلِ

وفي شعر عبيد بن عبدالعزى السلامي(١٢٩:٢٨):

يحطّ الوعولَ العُصمَ من كل شاهقٍ ... ويقذف بالثيران في المتحيّرِ**

فلم يتركا إلا رسوماً كأنها ... أساطيرُ وَحْيٍ في قراطيسَ مُقْتري

وفي شعر عمرو بن قميئة (٨١:٤٩):

هل عرفت الديار عن أحقاب ... دارساً آيها كخط الكتابِ

وفي الشعر المنسوب للمتلمس الضبعي(٢٨٧:٥٠):

فكأنما هي من تقادم عهدها ... رقّ أتيحَ كتابُها مسطورُ

وفي شعر تميم بن أبيّ بن مقبل (١٤٧:١٤):

قفا في دار أهلي فاسألاها ... وكيف سؤال أخلاق الدّيارِ

دواثرُ بين أرقامٍ وغُبْرٍ ... كباقي الوحي في البلد القِفَارِ

وكذلك في شعر أبي دواد الإيادي(٢٩٣:٥١):

لمن طللٌ كعنوان الكتاب ... ببطن لُواقَ أو بطن الدّهابِ

وفي شعر عبيد بن الأبرص(٢١:٥٢):

لمن الدار أقفرت بالجنابِ ... غير نؤيٍ ودمنةٍ كالكتاب

---

* اسنمة، قف العنصل : أسماء مواضع .

** الوعول العصم : التي في أيديها بياض او لون يخالف لون بقية جسمها .

المتحير : مجتمع الماء والمتحير : السحاب الدائم الذي لا يبرح مكانه يصب الماء صباً ولا تسوم الريح (اللسان : حير) .

الاساطير هنا : الخط والكتابة جمع سطر، الوحي : الكتابة . المقتري : القارىء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك قال عبيد بن الأبرص[٦٧:٥٢] :

لمن الديار بصاحةٍ فَحَرُوس درستْ من الإقفار أيَّ دروس*

إلا أواريّاً كأن رسُومها في مُهْرقٍ خَلَقِ الدواة لَبِيسِ

وفي صورة أخرى لعبيد بن الأبرص تظهرفيها صورة الأطلال مرتبطة بالكتابة عبر عملية التجدد الزمني المستمر من خلال صورة التسبيه[٥٢:٥٢] :

لمن دمنةٌ أقوت بجُوَّة ضَرْغَدِ تلوحُ كعنوان الكتاب المجدَّدِ**

ونجد الصورة تتكرر في شعر بشر بن أبي خازم[٤٧] وفي شعر سلامة بن جندل[١٢] وفي شعر زهير بن أبي سلمى[٢٩]، وفي شعر تميم بن أبي بن مقبل[١٤].

بناءً على ما تقدم لا يمكن فهم الصورة التي تتكرر في المقدمة الطللية والتي يربط فيها الشاعر الجاهلي بين آثار الديار والكتابة ، من خلال علاقة تشبيه ، إلا اذا فهمنا أن الشعر لم يكن يعي المكان والزمان الاّ بوصفهما تجسيداً للتغير. وكانت استجابة الشاعر الجاهلي للتغير "هي محاولة بعث رموز الثبات والديمومة ، محاولة تأكيد الثبات والمستمر والمطلق في خضم الهشاشة والتقطيع الطاغي والنسبي، ولم يكن ثمة من عناصر ثبات و أستمرارية في وجوده سوى القيم والعالم المادي الطبيعي، أما عالم الإنسان وما أنتجه فكان التحدي الأسمى للتغير .

يبدو لي أنه في هذا المنظور نستطيع ان نفهم الصورة الضدية التي تنبع من قرن الأطلال الدارسة بالنص المكتوب او المنقوش في الحجر.

وفي البعد الأعمق للصورة ، يحول المكان من وجود هش مدمر إلى وجود أبدي إذ تطغى عليه صورة الكاتب المنمق ولغة التجدد[٤٨].

---

* صاحه : جبل وهضاب حمر قرب عقيق المدينة . حروس : موضع .
دروس امحى . الاواري : جمع اوة وهي الموقد . المهرق : الصحيفة .
الخلق : البالي . البيس : الخلق البالي .

** الجوة : القطعة من الأرض فيها غلظ . ضرغد : حرة بأرض غطفان من العالية أو أرض لبني هنديل وبني غافرة وبني عامر بن صعصعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

المغني والموسيقي والحادي

يشيع في الشعر الجاهلي الحديث عن الغناء، وتشمل صورة الغناء المغنين والمغنيات، وآلات الموسيقى ، بالإضافة إلى الحداة الذين يحدون بالظعائن في رحلتها.

إن الغناء بعد جوهري في حياة البشر، يجسم إحساس الفنان وعلاقته بالكون والحياة، والغناء ناقذة يطل من خلالها الإنسان عى الوجود والغناء الذي تعد الموسيقى جزءاً جوهرياً في تكوينه "يستجيب للرغبة العميقة للكائن الذي يهدف الى تغيير زمنيته القلقة إلى زمنية سعيدة، وهي تمكنه من تنوق الراحة في الحركة والأمن في التعبير، وهذا التوافق السردي بين الفرد ونفسه وبينه وبين العالم الذي يسير في طريقة للوجود يختلف عن طريقنا ونعني بذلك الأبدية ، فاذا كانت الموسيقى تنتزع الإنسان من الزمن العادي الكريه الذي يسير فيه نحو الفناء، أليس هذا إذا لكي يغرق من جديد في نفسه؟"(٣٥٦:٥٣).

وفي الشعر الجاهلي، يرتبط الغناء بمجالس اللهو والشراب، مما يضفي عليه احساساً بالأمن وشعوراً باللذة، يقبض عليهما الإنسان الجاهلي ، الذي يرى الزمن هاربا من بين يديه .

نجد ذلك في شعر ربيعة بن مقروم ، يصف مجلساً للشراب واللهو، ويصحبه في هذا المجلس "فتيان صدق"، قد سقاهم وقت "الصبوح" خمراً لينة سلسة، ويناول بعضهم بعضاً، وتبدو صورة المغني (المسمع) الذي يغرد في صوته ، وقد امتلأ رياً من هذه الخمرة، فدوى صوته(٣٧٦:١٥) :

وفتيان صدقٍ قد صبحتُ سُلافةً ... إذا الدّيكُ في جَوْش من الليل طرَّبا*

سخامية صهباءَ صرفاً، وتارةً ... تعاور أيديهم شواءً مُضهَّبا

---

* السلافة : خالص الشراب وأوله . جوش في الليل :قطعه من آخره . السخاقية : السهم اللينة اراد الخمر . الصهباء : التي تقرب إلى البياض تعاور : يناول بعضهم بعضا . المضهب : الذي لم ينضج . ينزو : يرتفع : الغريد : المغني . تجبب :روي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومشجوجة بالماء ينـــزو حـــبابها إذا المُسمـــع الغرِيـــد منها تحبّبا

وفي موضع آخر، يشبه امرؤ القيس ناقته -لنشاطها وسرعتها بالحمار الوحشي، الذي يصيح لنشاطه ويصوت في الغسق ، فكأنه شارب يغني ويطرب المتنادمين ، هذا المغني (يميح) في جانبيه أي يميل شدة ونشاطاً (٤٥:٢٠) .

بأدمـــاءَ حُرْجُـــوجٍ كـأنّ قتـــودها علـــى أبلـــق الكشحـين ليس بمغْربِ*

يغرّد بالأسحار فـــي كـل ســـرفةٍ تغـــرّد ميّاح النّـدامى المطـــرَّبِ

ويصف الأعشى "مغنيا" في مجلس من مجالس اللهو الشراب، ويصاحب غناءه العود، ينقل اصابعه على اوتاره الدقيقة، فيختلط صوته بأنغامه (٢٩٣:٩) :

و لقـــد أغـــدو عـــلى ندمانـــها وغـــــدا عندي علـــيها واصْطَبَحْ**

ومغـــنّ كلمـــا قـــيل لـــــه أسمـــــع الشربَ فـــغنّى فَـصدَحْ

وثـــنّى الكـــفّ عـــلى ذي عتبٍ يصـــــلُ الصّوت بـــذي زير أبَـــحْ

نلاحظ: أن المغني هنا هو الموسيقي الذي يعزف، وكذلك نلاحظ مدى التفاعل بين المغني وجمهور الندامى، فالمغنى يستجيب لهتافهم فيصدح صوته بالغناء والتطريب .

وفي صورة أخرى "للمغني"، تبدو اكثر اهمية، نلاحظ وجود اكثر من آلة موسيقية تعزف، فهي فرقة موسيقية متكاملة ، ونلاحظ مدى الإنسجام بين صوت المغني وصوت الموسيقى ، قال الأعشى (٤٠٩:٩) :

وطـــــــلاءٍ خســـــروانيّ إذا ذاقـــه الشيـخ تغـــنى وارجـــحنْ***

وطنابـــــير حســـانٍ صوتُهـــــا عنـــــد صَـــنْج كلـــــما مُسّ أرنّ

---

* الأدماء : الناقة البيضاء . المرحوج : الطويلة على وجه الأرض . القتود: أداة الرّحل . المغرب : الأبيض الوجه والاشفار .

** العتب : العيدان المعروضة : الأبيض الوجه والأشفار .

العود : الزير : الدقيق من الأوتار . الأبح : خشن الصوت :الأحلام : العقول .

*** خسرواني : نسبة الى خروشاه، ارجحن : مال واهتز ، الطنبور : آلة من آلات الطرب ذات عنق طويل وستة اوتار من النحاس (فارسي معرب) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا المسمـــعُ أفـــــنى صوتـــــه عـــزف الصّـــنج فنـــادى صوت وَنْ

وإذا مـــا غـــــضّ من صوتـــيهما وأطـــــاع اللحـــن غّنانـــا مُغَـــنّ

تبدو الصورة فيها اكثر من آلة موسيقية (طنابير)، وصنج ، ونلاحظ أن (المغني) يغير من طبقات صوته ليحدث الانسجام بين صوته وصوت الموسيقى، فاذا فني صوته وخفت ، انبعث (الصنج) يجيبـه (الون) يمهدان للغناء من جديد. فإذا اطاعت الألحان ، خفت رنين الأوتار ، وانطلق المغني بصوته الصّراح .

في هذه الصورة ، نلاحظ أن المغني لا يعزف، بل ثمة من يعزف على هذه الآلات ، ولكن الصورة لا يظهر فيها ذلك، ولنا أن نتساءل هنا : من الذي كان يصنع هذه القطعة الموسيقية لتتألف من صوت المغني ، وكلمات الأغنية ؟

فـهناك تنظيم واضح في الإيقـاع الموسـيـقي، يظهر بصورة جليّة في هذة الصورة التي رسمـها الأعشى ، فإذا عزف الصنج، نادى صوت (ون) ، وهذان الصوتان يأتلفان مع طبقة الصوت التي يغني بها المغني .

وإذا المُسمـــع أفـــــنى صوتـــــه عزف الصنـــج فنـــادى صـــوت ون

لا نجد في الشعر الجاهلي إجابة عن هذا التساؤل . ثمة آلات موسيقية تظهر في الصورة ، سنتحدث عنها في سياق البحث .

وجدير بنا ونحن نتأمل هذه السمات الحضارية التي تتسم بها حياة الجاهليين الذين وصموا بالبدائية والسطحية، أن نتسأل : هل كان الغناء العربي الجاهلي : اصيلاً فيهم ؟ أم أنه كان بتأثير أجنبي؟ وخاصة أننا نلمح صوراً لآلات موسيقية فارسية.

في البداية نجد انفسنا امام نص مهم لابن عبدربه ، يتحدث فيه عن أصل الغناء "وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في امهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة واليمامة، وهذه القرى مجامع اسواق العرب"(٥٤) .

وممن يعتقد بأصالة الغناء العربي وساميته فارمر، يقول "اصبحت مدينة الحيرة في زمن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاسرة الحاكمة الأخيرة " الأسرة اللخمية " من ازهر مدن الشرق وابعدها ذكراً. ومع أنها كانت إلى حد ما خاضعة الى التأثير الفارسي فإنها لم تحد عن تقاليد الساميين إلا قليلا جداً، وإلى الحيرة أرسل الملك الفارسي بهرام جور(حكم ٤٣٠-٤٣٨)م ايام كان اميراً ليتلقى علومه وتهذيبه في كل العلوم ومن بينها ولا شك الموسيقى" (٥٥:٤٠-٤١).

ويتابع فارمر قوله "ونظرا إلى العلاقة الوثقى بين الشعر والموسيقى فما لا شك فيه أن الصنعة الأخيرة كانت تلقى التفاتاً مساوياً لما يلقاه الشعر" (٥٥:٤١).

"وكانت الحيرة ايضا اول مدينة ظهرت فيها بشائر الصنج او الجنك harp ، والطنبور Pondore" (٥٥:٤١).

ويتحدث فارمر عن اهمية الموسيقى عند العرب الجاهليين، فقد كانت الموسيقى في ايامهم كما في ايامنا هذه، صناعة بارزة ذات حيثية في الحياة العربية الخصوصية والعمومية والدينية" (٥٥:٥٧).

ويرى فارمر أن مصدر الغناء هو الحداء وهو غناء القافلة، وقيل أنه يتسق مع رفع اقدام الحمل ووقعها، وجاء من الحداء جنس (النصب) . وكان النصب حتى نهاية القرن السادس الميلادي وبداية القرن السابع الميلادي يسود بلاد الحجاز وهي البلاد التي لم تحرز تقدماً يذكر في الموسيقى كما احرزت الحيرة وغسان، ثم ادخل الشاعر المغني "النضر بن الحارث" ت ٦٢٤م. الذي قدم وافداً من الحيرة(الغناء) وهو الصوت المتقدم في الصنعة الموسيقية فحل محل (النصب) ، واستبدل العود الخشبي البطن بالمزهر الجلدي البطن (٥٥).

ولا يهمنا في هذا البحث، ان نسهب في الحديث عن اصالة الغناء العربي واصالة موسيقاه ، ولكن حسبنا هذه الاشارات السريعة التي تلقي الضوء على هذه القضية المهمة، ونختتم هذه الإلمامة السريعة برأي الدكتور ناصر الدين الأسد : "إن الأثر الاجنبي لم يكن إلا جداول صبت في مجرى هذا الغناء الثرّ الفياض، فاندمجت فيه، وتدفقت معه، وقد تكون أضافت إليه جديداً أو زادت عليه طريفا، ولكنها اولاً لم تكن منبعة ولا سبب جريانه ، ولم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تستطيع ثانيا، أن تغير مجراه، أو ان تخرج به عن الحدود التي رسمتها له طبيعة ارضه.(٥٦:١٤٤)

ولم يحظ المغنون بعناية الشعراء الجاهليين، كما حظيت المغنيات، إذ غلب في الشعر الجاهلي الحديث عن (القينة) بصورة شائعة، وتفنن الشعراء الجاهليون في رسم صورتها، ووصف صوتها ، وعزفها على الآلات الموسيقية بالإضافة الى وصف ملابسها .

والقينة هي "الأمة الغنية، تكون من التزين لأنها كانت تزين، وهي كلمة هذلية، وقيل : القينة الأمة، مغنية كانت أو غير مغنية. قال الليث : عوام الناس يقولون القينة المغنية . قال ابو منصور أنما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . والقينة الماشطة . قال أبو بكر : قولهم فلانة قينة معناه في كلام العرب الصانعة".(١) .

قال ابن فارس "القاف والياء والنون "اصل صحيح يدل على إصلاح وتزيين . من ذلك القين: الحدّاد ، لأنه يصلح الأشياء ويلمها؛ وجمعه قيون . ويقولون التقيين : التزين ومنه يقال للمرأة مقينة، وهي التي تزين النساء ويقال إن القينة:الأمة ، مغنية كانت أو غيرها . وقال قوم : إنما سميت بذلك لأنها قد تعد للغناء، وهذا جيد".(٥٧).

وقال صاحب الخزانة : "القينة" بالفتح: الأمة، مغنية كانت او غير مغنية" (٢٥).

ويبدو لي أن (القينة) قد مرّت بمراحل من التطور ، حتى اصبحت تدل على الأمة المغنية فاللفظة (القينة) في أصل مدلولها إنما هي مؤنث، "القين" بمعنى الصانع، فالقينة إذن هي المرأة الصانعة، ولما كان العمل واحتراف الصناعة مما يقوم به العبيد دون السادة والإماء دون الحرائر صارت "القينة" الأمة الصانعة. ثم اطلقت القينة على نوع خاص من الإماء هنا الإماء المغنيات(٥٦).

والذي يهمنا في هذه القضية هو الواقع الشعري الذي يتحدث بإسهاب عن "القينة" بمعنى الأمة المغنية فيما يختص بموضوع الغناء .

ويرد في الشعر الجاهلي اسماء متعددة للقينة، منها في أصله صفات تفيد السماع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغناء. ومن المرأة المغنية : (المسمعة) -وقد وردت في الشعر الجاهلي قال لبيد بن ربيعة(١٩:٥٠٢):

وإن بكروا غدوت بمسمعاتٍ وأدكن عاتق جَلْدِ العِصَامِ*

وقال حرملة بن حكيم -ابن عسلة(٤٠:٤٠٢) :

يا كعب إنك لو قَصَرْت على حُسْنِ المداح وقلّة العزمِ **

وغناء مُسمعة تعللنا حتى تؤوب تناؤم العُجْمِ

وقال تميم بن أبيّ بن مقبل(١٤:١٢٠) :

والمسمعاتِ لدى الشّرُوبِ كأنّها أدْمُ الظِّباءِ نواعمُ الأبشار

وقال معقّر البارقي(٢١):

فباتوا لنا ضيفا وبتنا بنعمة لنا مُسمعاتٌ بالدفوف وسامُر

وقال برج بن مسهر(٥٨):

فبتنا بين ذاك وبين مسكٍ فيا عجباً لعيشٍ لو يُدومُ

وفينا مسمعاتٌ عند شربٍ وغِزْلانٌ يعدُّ لها الحميمُ

حيث تبجح الشاعر بانهم نالوا اكثر انواع اللذات، من شرب و لهو، و طرب، و ذكر الحميم لتنعمهن ، ولان بلادهن كانت مرتفعة، وهي ابرد الاماكن .

وقال عدي بن وداع(٢٨:٦٢) :

ونَدمانٍ رهنت له بريٌّ وراووقٍ ومسمعةٍ وساقي ***

---

* العصام : الذي يشد به رأس الزق او القربة ، العاتق : الزق الذي قد عتق وجادت فيه الخمر وطابت . مسمعات : مغنيات . أدكن : يعني الزق .

** تناؤم من التنيم اي تتكلم بما لا يفهم .

*** الراووق : الباطية ، وأصل الراووق : المصفاة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الأسماء إيضا (الداجنة)، وقد ورد ذلك في شعر بشر بن عمرو(١٥:٢٧٦):

وتبيت داجنةٌ تجـــــــاوب مثلها خوداً منعمةً وتضـربُ مُعتبـــا *

ومن هذه الاسماء (المُدجنة)، وورد ذلك في شعر ثعلبة بن صُعَيْر المازني(١٥:١٣٠) :

فَقَصرْتُ يومَهـُـمُ برَنّةِ شـــــــارفٍ وسماع مُدجنةٍ وجدوى جـازرِ **

ومن أسمائها أيضا (الصناجة) وقد ورد ذلك في شعر ساعدة بن جؤية(٢٢).

بأوْبِ يَدَيْ صنّاجةٍ عنـــد مـــــُدمنٍ غوي إذا ما ينتشي يتغـــــرُّدُ***

ومن أسـمـائهـا ايضـا (الكرينة)، وهي مـشـتـقـة من الكران وهو العـود، قـال لبـيـد بن ربيعة(١٩:٣١٤) :

وصبوح صـــــــافية وجذب كرينةٍ بموتَرٍ تأتالـــــهُ إبهامهـــا****

أما (القينة) وهـي الأمة المغنية، فقد حظيت بعناية الشعراء الجاهليين ، فقد وصف طرفة بن العبد مجلساً من مجالس اللهو والشراب، تبدو فيه (القينة) ، تروح في "بُرد" و "مجسّد" ، وهي "رحيب قطاب الجيب"، رفيقة بجس الندامى، بيضاء ناعمة رقيقة(١٣:٢٩-٣٠) :

ندامـــــــاي بيضٌ كالنّجـوم وقينةٌ تروح علينـــــــا بين بردٍ ومُجْسَدِ

رحيبٌ قطاب الجيب منهـــــا، رفيقةٌ بجسّ النّدامى، بضّة المتحـــــرّدِ

إذا نحن قلنا : أسمعينا ، انبرت لنـــا على رسلها مطروقةً لـــم تشـــدّد

تبدو صورة القينة هنا منعمة، تلبس ثياباً مبتذلة، وإنما وصف قطاب جيبها بالسعة، لأنها

---

* الداجنة : القينة المغنية ، يقال دجن في الشيء: إذا انس به وأقام فيه حتى يعتاده . الخود الحسنة الخلق . تضرب معتباً : يعني عوداً، إذا ضربته جاوب بما تريد ، فكأنه معتب يرضي معاتبه .

** الشارف: الناقة المسنة ، ورنتها : صوتها عندا لنحر. سماع موخية : أي سماع مغنية تغني في يوم الدجن، وهو تكاثف القيم . الجدوى : العطية ، واراد الجدوى الجارزما يتحضم به من اطايب الطعام .

*** أوب يديها : رجع يديها يضرب الصنج . يتغرّد : يطرب .

**** الموتر : ذو الاوتار، تأتاله : تصلحه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت توسعه ليبدو صدرها، فينظر إليه ويتلذذ به، وإذا طلبوا منها الغناء، اعترضت على رسلها أي على مهلها ورفقها، فاترة الطرف ، تغني بعفوية لم تجتهد "لم تشدد" .

وتبدو في شعر أوس بن حجر، تخطر بين الشرب بثوبها المتعدد الألوان "ذات أشكال"(١٠٢:٤١) :

أوْهبَ منه لذي أثر وسابغةٍ وقينة عند شَرْبٍ ذاتِ أشكال *

وتبدو في شعر بشر بن أبي خازم، مجموعة من القيان كالدمى، كواعب، حور، تعزف المزاهر بأيديها(١٥٥:٤٧) :

الواهبُ البيض الكواعبَ كالدّمى حُوراً بأيديها المزاهرُ تعزِفُ

ولا تظهر القينة في هذه الصورة وهي تغني ، وأنما تظهر صورة العزف بالمزهر.

وفي شعر سلامة بن جندل، تبدو (القينة) بيضاء ، ناعمة، مثل "المهاة" وهي من اللينات المتثنيات من نعمتهن (خراعيب)(٢٢٥:١٢) :

وعندنا قينةٌ بيضاءُ، ناعمةٌ مثلُ المهاة، من الحُور الخراعيبِ

ونجد في شعر أبي دواد الإيادي، القيان تغدو في ثياب كتان فيها حرير (تنسب إلى القس بمصر) تغدو عليهم بخمر قد غولي في ثمنها(٣٤٨:٥١) :

بعد حيّ تغدو القيان عليهم في الدّمقس القسي براح سبيئة

وتبدو القينة في شعر الأعشى تلبس ثوباً واحداً كأنها مبتذلة في لباسها، وتبدو وهي تغني على نغمات العود وجرس الصنج(١٠٩:٩) :

ومستجيبٍ تخال الصّنج يسمعهُ إذا تُرجِّعُ فيه القينةُ الفُضُلُ **

وتظهر في الشعر الجاهلي "القينة" منعمة، نجد ذلك في شعر امرىء القيس(٨٦:٢٠) :

---

* السابغة : الدرع .

** مستجيب : العود يجيب الصنج ويشاكله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن أمس مكروباً فيـــا ربّ قينـــةٍ منعمة أعملتُهـــا بِكِـــــرانِ*

وفي شعر الأسود بن يعفر وصف دقيق لجسد القينة، فهي لعساء (الشفة: سواد في حمرة)، لا (ثعل فيها) والثعل : (زيادة سن او دخول سن تحت اخرى في اختلاف في النبت يركب بعضها بعضاً، ولاكسس فيها ، والكسس هو (أن يقصر الحنك الأعلى عن الأسفل)، قال الأسود بن يعفر(٤١:١٦) :

ثم ظللـــــــنا تغنّي القوم داجنةً لعساء لا ثَعلٌ فيهـــــا ولا كَسَسُ

إذن، هؤلاء القيان يبدو لنا أنهن منعمات متأنقات ، وربما كانت هذه العناية لازمة لاكتمال الجو الفني وانسجام عناصره الثلاثة : جمال الصوت، وعذوبة اللحن، وفتنة الجسد ، وصباحة الوجه، واناقة الملبس وائتلاف الزينة(١٠٧:٥٦).

ونجد في الشعر الجاهلي كذلك وصفاً لصوت القينة ففي شعر تميم بن أبيّ بن مقبل" يبدو صوتها أجش وهو الصوت الذي فيه غلظ وبحة ، لا يوجد فيه تقطع (لا قطع) وليس فيه انشقاق (يزيد مرّة ويستقيم أخرى ويكون فيه حشرجة)، قال تميم (٢٥٩:١٤) :

فضلاً تنازعها المحابضُ صوْتهـــــا بـــأجَش لاقطعٍ ولا مِصْحـــال* *

وفي شعر عبيد بن الأبرص، تبدو "القنية" وقد (أصحل) الشرب صوتها، فأصبح مبحوحاً لكثرة طلبهم منها الغناء، وهي تضرب على أوتار العود الأجوف (٢٥:٥٢).

ومُسمعةٍ قد أصحل الشرب صوتهـــا تأوّى إلى أوتار أجوفَ محنوبِ***

ويروى "الشرب" فيكون معناه أن الخمر هي التي ابحت صوتها. وعند الأسود بن يعفر ، تبدو "بحاء الغناء" مجيدة، ويبدو الصوت رخيماً (٥٧:١٦).

---

* الكران : العود يضرب به .

** فضلاً : أي مبتذلة في ثوب واحد. المحابض : الأوتار .
مصحال : الصوت الذي فيه انشقاق .

*** تأوى : تلجا . محنوب : محدوب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تغينـــه بحّـــاء الغناء مجيـــدة بصوتٍ رخيم او سمـــاعُ مرتّـــلِ

وجدير بنا ونحن نعرض لصورة القينة، أن نشير الى الآلات التي كان يعزف بها في مجالس اللهو والشراب، ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً للآلات الوترية مثل العود، وقد يسمى أحياناً المزهر، قال الأعشى (٢٢٣:٩) :

ومِزْهَرُنـــــا مُعْملٌ دائـــمٌ فـأيُّ الثـــلاثةُ أُزْرى بـــها

والمزهر : العود(٥٩).

وقال تميم بن أبي مقبل(١٢٥:١٤):

جوفـــاً، إذا نُهزتْ ترنم جولُهـــا كترنّم المكُّـــولِ عند المِـــزْهَرِ*

حيث شبه تردد أصوات الولاء في البئر بأصوات كؤوس الشراب وآلة العود (المزهر).

وقال عبد المسيح الغساني (٢١):

وربّ يوم لـــــه ضحْيان ذي أمر سارت بلهوهم فيهـــا المـــزاهير

ونجد ذلك في شعر علقمة بن عبدة التميمي(٦٤٠:٣٠) :

قد أشهـــد الشرب ، فيهم مزهر، رنـــم والقوم تصرعهم صهباء ، خُرْطُومُ**

ومن أسماء العود الكران ويرى الاستاذ فارمرأن الكران يشبه العود تمام الشبه ، وربما اشتق من أصول سريانية -عبرانية فكان تصحيف الكنار ، أو كنار وعبرانيتها : كنور ، نبطيته : كنورا(٥٥)،(٥٩). نجد (الكران) قد ورد في شعر لبيد بن ربيعة، حيث يشبه صدر النعام بصفيح الكران (١٤٨:١٩):

صعـــــــل كسافلةالقناة وظيفُـهُ وكأن جؤجؤه صفيحُ كِـــران***

---

* الجوف : واسع الجوف . نهزت إذ انهرت الولاء فيها ، أي إ ذا ضرب بها إلى الماء لتمتلىء . الجول : جدار البِر وجوانبها من أعلاها إلى اسفلها . المكوك : طاس يشرب به ، أعلاه ضيق ووسطه واسع .

** الخرطوم : اسم من اسماء الخمر .

*** الصعل : يعني النعام ، والصعل : دقيق العنق. سافلة القناة : اسفل الزج من الرمح. وظيفة كالقناة : أي طويل الساقين الجؤجؤ : الصدر . الصفيح : الخشب المشقوق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أسماء العود البربط ، وهو فارسي مؤلف من لفظتين:

بر، بمعنى صدر ، وبط. وانما سمي بذلك لشبهه بصدرالبطة -(٥٦:١١١). وقد ورد ذكره في رواية أخرى لبيت للأعشى (٣٢) ، (٥٩) :

ويربطنـــا معمـــلٌ دانـــــــم فأيّ الثلاثـــــة أنرى بهـــــا

ومن الآلات الوترية "الصنج"، وهو فارسي، (أصلها) في الفارسي : جنك(٥٥) ذكره في شعر الأعشى(٩:٢٢٣):

ترى الصّنج يبـــــــكي لـه شجوهُ مخافـــة أن سوف يُدعى بهـــا*

ومن الآلات الوترية التي كانت شائعة الطنبور، ويرى الاستاذ فارمر "أننا لا نجد في أيام الجاهلية ذكراً للطنبور وإن كان في الواقع شائعاً ، وقد ذكر الطنبور في بيت للأعشى ، سبق ذكره ص (٤٣) من البحث . ويرى الاستاذ فارمر أن الطنبور اختراع عربي(٥٥:٤٥).

قال صاحب المخصص (٥٩):

"ابن السكيت الطنبـور والطنبـار وليـست في رواية ابن الأنبـاري ولكنهـا في رواية أبي سـعيـد في بـاب فـعـلال وفـعلول في آخـر البـاب ، بعد ذكـر العنقـاد والعنقـود وهـي عـربيـة ويقـال للطنبور أيضا الدربج" .

وقد تم التوصل إلى الطنبور بتقسيم الوتر الى أربعين جزءاً (٥٥:٥٦).

ويرد في الشـعـر الجـاهلي ذكـر آلة النفخ وهي "القـصـاب" ويرى صـاحب المخـصص أن القصاب هو المزمار(٥٩).

قال سبيع بن الخطيم التميمي(١٥:٣٧٢) :

أمـــا تريْ إبلي كـــأنّ صدورهـــا قصبٌ بـــــأيدي الزامرين مَجُوفُ

يريد أن إبله تحنّ

---

*الصنج آلة من آلات الطرب ذات اوتار (دخيل معرب) . الشجو : الهم والحزن والشوط من البكاء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ورد في الشعر الجاهلي (الدف) وهو من آلات الضرب [٥٩].

نجد ذلك في شعر جابر بن حنيّ التغلبي[١٨٩:٣٢] :

وصدّت عن المـــاء الرواء لجـوفهـــا دويٌّ كـــدُف القينة المُتـــهزِّم *

وفي مجالس اللهو والشراب، وهي البيئة الملائمة للغناء، قد يكون الغناء جماعياً مع العزف على آلة واحدة، ويكون هناك نوعاً من التآلف بين صوت المغنيات وصوت "العود" ، كما يظهر ذلك من شعر لبيد بن ربيعة. [٢٦٤:١٩] :

بجاوبنْ بُحّـــا قد اعيدت وأسمحتْ إذا احتثّ بالشّرع الدقاق الأنـامل**

وقد يكون الغناء منفرداً، حيث نرى في الصورة "المغني" ، ونلاحظ صورة (القينة) وهي تعزف على (الصنج) ، قال ساعدة بن جؤية[٢٢] :

بأوبِ يديْ صناجـةٍ عند مـــدمنٍ غويّ إذا مـــا ينتشي يتغـــــرّدُ

تبدو في هذه الصورة (القينة) تحرك يديها وهي تعزف على (الصنج) ، والمغني يتفرد بعد أن تكتمل النشوة بالشرب.

وفي صورة أخرى للغناء الجماعي، نجد "المسمعات" يضربن على "الدفوف" ويغنين ، وذلك في شعر معقّر البارقي[٢١]:

فباتوا لنـــــا ضيفاً وبتنا بنعمةٍ لنـــا مسمعاتٌ بالدُّفوف وســـامرُ

وقد تشترك في الغناء "مغنيتان" بينما تعزف ثالثة على الصنج، قال الأعشى[٣٦٩:٩]:

ومسمعتـــان وصنّاجـــــةٌ تُقلّبُ بالكـــفّ اوتـارهـــــا

وفي صورة أخرى للأعشى تبدو صورة المغنية ترفع صوتها بالغناء ، بطريقة متدرجة حين تضرب على اوتار العود، إذ يهيجها الشاربون [٣٦٥:٩] :

---

* المتهزم : المتشقق .

** يجاوبن : اي هؤلاء المغنيات البح : جمع أبح وهو صفة للعود .

الشرع : جمع شرعة وهو الوتر الدقيق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصـــــــدُوحٍ إذا يهيّجها الشَّرْ ب ترقّت في مِـــــــزْهرٍ مندوفِ*

وهنالك صورة أخرى مماثلة، تبدو فيها (المغنية) وقد طلت جسمها بالمسك والزعفران فبدت بشرتها صفراء، يتحسس الندامى جسمها من فتوق قميصها المشقوق الأكمام، وإذ طلب منها الغناء نهضت إلى مزهرها، تغني، وتدير أصابعها على أوتاره، فتنبعث منه انغام كأنها الكلام قال الأعشى (٢٦٩:٩) :

ورادعة بالمسك صفراء عندنـــــا لجسٌّ النَّدامى في يد الدّرْع مَفْتقُ **

إذا قلت غنِّي الشَّرْبَ قامت بِمِـــزْهَرٍ يكاد إذا دارت لـــه الكفُّ ينطقُ

وفي الشعر الجاهلي ، ترد صورة (الموسيقي)، وقد يكون رجلاً ، كقول الأعشى يصف(موسيقيا) يعزف على "الون" وهو من الآلات الوترية، في مجلس من مجالس اللهو والشراب، حيث الخمرة الفارسية والورد، قال الأعشى(٦٠) :

فلا شر بن ثمـــــانيا وثمـــانياً وثمـــان عَشْرَةَ واثنتين وأربعا ***

من قـــهوةٍ باتتْ بفـــارس صفـوةٍ تدعُ الفـــتى ملكـــاً يميـــل مُصرعا

بالجُلَّســـــان وطيب أردانـــــه بالون يضـــرب لـــي يكُرّ الإصبعا

وتظهر صورة الموسيقي وهو يرجع بإصبعه على "الون" أثناء العزف .

وترد صورة العزف الجماعي على المزمار، حيث يشترك اكثر من عازف، قال سُبيع بن الخطيم التيمي(٣٧٢:١٥):

أوما تَرَيْ إبلي كـــــأنّ صُدُورهـــا قصبٌ بأيدي الـــــزامرين مجُوفُ

وفي المقابل تظهر صورة (العازفة)، حيث يبدو العزف منفرداً، تقوم به (القينة)، ويصف

---

* الندف : الضرب على الأوتار .

** ردعه بالشيء : لطخه به . الدرع :القميص .

*** الجلسان : الورد الأبيض او القبة ينثر عليها الورد والريحان .

ولم أعثر على هذه الأبيات في ديوان الأعشى تالكبير ، تحقيق الدكتور محمد محمد حسين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مزهرها بأن صوته يعلو صوت الجيش على كثرته وضجيجه ، قال امرؤ القيس (٨٦:٢٠) :

لهـــا مزهرٌ يعلوُ الخميس بصوْتـه أجشُّ إذا ما حركتـه يـــــدان*

إذ نلاحظ في الصورة (يدين) تتحركان في اثناء العزف. ومن صور العزف المنفرد الذي تقوم به (العازفة) ما ورد في شعر لبيد بن ربيعة، حيث تظهر صورة العازفة ، وهي تعالج آلتها الموسيقية في أناة بإبهامها قال لبيد(٣١٤:١٩).

وصبوحٍ صـــــافيةٍ وجذب كرينةٍ بموتّرٍ تئتالـــــــهُ إبهامهـــــا

وقد يكون العزف جماعيا، حيث تشترك اكثر من عازفة في أداء اللحن، قال نوجَدَن الحميري(٦١) :

لـــــدى عزْف القيان إذا انتشينـــــا وإذ نُسقى من الخمْر الـــــرّحيقِ

وفي صورة أخرى للعزف الجماعي تظهر صورة "العازفات" وهن يعزفن على المزاهر، قال مالك بن أبي كعب (٢١):

يُطـــاف عليهم بالسّديف وعندهـــــم قيانٌ يُلهّين المـزاهر بـــــالضرب

وقال عمرو بن الإطنابة (٢١).

إن فـــــينا القيان يعْزفن بالـــد ـــــف لفتياننـــا وعيشاً رخـــــيًا

يتبارين في النعيـــــم ويصْبـ ـن خلال القرون مسكاً ذكـــــيًا

إنمـــــا همُّهـــن أن يتحليـ ـنَ سُموطاً وسُنبلاً فارســــــيًا

تبدو في هذه الصورة "العازفات" وهن يعزفن "بالدف" ويصببن في نوائب شعرهن المسك الذكي، ولايشغلهن سوى التعطر ووضع الحلي من أجل أن يحصل رواد الحانات على اكبر لذة ومتعة.

---

* الخميس :الجيش . الأجش من الأصوات : الذي فيه بحة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي شعر عبدالله بن ثور العامري، نجد "العازفة" تعزف على آلة وترية، وهو نموذج من العزف المنفرد قال عبدالله بن ثور(١٥٧:٢٨) :

وندْمان صدقٍ قد رفعتُ برأســـــــه إليّ وأوتار الوليـــــــدة تَعْــزفُ

وهناك نموذج للعزف الجماعي نجده في شعر حسان بن ثابت ولكن دون ذكر لآلات العزف(٢٣٥:٦٢) :

ظـــــلٌ حولي قيانُهُ عـــــــازفاتٍ مثلُ أدمٍ كوانسٍ وَعَـــــــــواطِ*

حيث شبه القيان اللواتي يعزفن، بالظباء المستكنة في الكناس، او الظباء التي تتطاول إذا رفعت ايديها لتتناول من الشجر ونجد في الشعر الجاهلي صوراً اخرى للعزف، ولكن لا تبدو فيه صورة "المعازف"، وإنما تظهر الآلة الموسيقية وصوتها، أو الآلات في بعض الأحيان . وتختفي هنا شخصية "العازف" او "العازفين ، وراء صوت الالة الموسيقية او الآلات .

قال علقمة الفحل(٦٨:٦٣) :

قد أشهدُ الشرْب فيهم مـــــزهرٌ رنـــمٌ والقوم تصرعهم صهباء خُرطـــــومُ

وفي شعر الأعشى ، تظهر صورة عدة آلات تعزف، ولكن لا تظهر صورة (العازفين) عليها(٣٤٣:٩) :

وُمُسْتَقُ سنينٍ وونٌّ ويَرْبَـــــــطٌ يحاوبُه صنجٌ إذا ما ترنّـــــما**

وفي شعر سلم بن ربيعة، نجد صورة آلة واحدة تعزف ولا تبدو صورة الموسيقي(٥٨):

والكُـــثْرَ والخفضَ آمـــــــناً وشِـــرَعَ المـــزْهَرِ الحُنونِ ***

---

* قيانه : اي قيان صالح بن علاط . ادم كوانس : يعني ظباء وكوانس اي مستكنة . عواطي: العطو ، التناول عطا الشيء وعطا إليه تناوله .

** المستقة : آلة يضرب عليها (معرب) .

*** الكثر : يعني كثرة المال ومساعدة الحال . شرع المزهر : أي الأوتار واحدها شرعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما فيما يتعلق باسماء المغنيات فيرى الأستاذ فارمر أن التاريخ حفظ لنا اسماء الكثير من المغنيات، فمن زمن الأساطير العربية نجد أربع مغنيات على الأقل وهن : "جرادتا عاد" الشهيرتان ، ثم "قعاد وثماد" ثم "هزيلة" و "عفيرة" مغنيتا ابن جريس . وهي القبيلة التي أفنت طسما عن بكرة ابيها. وكانت أم الشاعر حاتم الطائي مغنية، أما الشاعرة (الخنساء) فقد كانت تغني مراثيها على أنغام الموسيقى . وكانت هند بنت عتبة وهي مثال المرأة العربية الجاهلية المسترجلة شاعرة ومغنية معاً (٥٥:٦١-٦٢). ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد "أن الاتفاق في جميع المظان على اقدم من غنى من العرب هما هاتان "الجرادتان"، مع اختلاف المصادر العربية في تحديد اسميهما فقد يكون اسم احداهما وردة والأخرى جرادة فقيل جرداتان على التغليب، وربما يكون اسم احداهما نفاد والأخرى ثماد، وأنهما كانتا في زمن "عاد الكبرى" (٥٦:٧٦-٧٩).

وقد قام الدكتور ناصر الدين الاسد، بتحقيق باب من كتاب محفوظ بعنوان "حاوي الفنون وسلوة المحزون" لابن الطحان الموسيقي "مخطوط في دار الكتب المصرية" (٥٣٩، فنون جميلة) ، وعنوان هذا الباب "في أول من غنى من النساء في الجاهلية، قال ابو الطحان الموسيقى: اول من غنى من النساء في الجاهلية "بعاد" و "ثماد" : كانتا في زمن عاد الكبرى ، ومن غنائهما :

يـــــا أمّ عثمانَ نوّلينـــــا قد ينفعُ النّائل الطّفيفُ - (٥٦-٢٧٨)

ويبدو لي ان الشاعر الجاهلي لم يكن يهتم بذكر اسماء المغنين والمغنيات والموسيقيين، لذلك لا تظهر هذه الاسماء في الشعر الجاهلي ، ويبدو لي أن الشاعر الجاهلي كان مشغولاً بالتحديق في صورة هؤلاء الفنانين والفنانات اكثر من شغله بذكر اسمائهم ، التي لا تعنيه كثيراً بالقدر التي تعني الذين يؤرخون للموسيقى .

وفيما يتعلق بالمغنيات يرى "فان كريمر" أن هؤلاء المغنيات كن يغنين بلغة اهل بلادهن الرومية والفارسية، ولم يغنين بالعربية، ويعقب الأستاذ فارمر على ذلك بقوله "وأنا لا اعرف لهذه المزاعم سنداً يؤيدها : فالقول أن هؤلاء المغنيات كن اجنبيات مطلقاً إنما هو زعم يجانب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحقيقة"(٥٢:٥٥).

ويبدو أن الشعر الجاهلي يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ فارمر ، فهذا الانسجام بين الشاعر الجاهلي وبين صورته التي يرسمها لهؤلاء "المغنيات" بالإضافة الى التأثير النفسي لغنائهن الذي تلاحظه في الشعر الجاهلي، يؤيد ذلك . فليس من المعقول ان يكون الشاعر الجاهلي مشغوفاً إلى هذا الحد بصور المغنيات، بالإضافة الى كلفه بهن ، وهو لا يفهم ما يرمين إليه من ضروب الكلام والمعاني . بناء على ما سبق، يبدو أن فن الغناء والموسيقى كان من الفنون التي حظيت بعناية المجتمع الجاهلي ، بل واحترامه، فلا تظهر صورة المغني، او المغنية او الموسيقي إلا في إطار من الاحترام والشغف والاهتمام . وشيوع هذا الفن في شعرهم يدل على مجتمع قد نال حظاً وافراً من الحضارة والرقي .

في ضوء ما سبق هل يمكن لنا ان نقر ابن خلدون في زعمه -وبمقتضى نظريته في العمران- أن العرب "لم يكن الملنوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذي هو ديدنهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرّقة بما حصل لهم من غنائم الأمم، صاروا الى نضارة العيش ودعة الحاشية واستحلاء الفراغ وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمزامير وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم "(٥:٤٢٧).

"إلا أنهم -أي العرب- لم يشعروا بما سواه -أي الشعر- لأنهم حينئذ لم ينتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة اغلب نحلهم"(٥:٤٢٧).

وكذلك هل يمكن لنا ان نقبل رأى الالوسي، الذي ينص على أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يعرفون من الغناء إلا ثلاثة اوجه هي : النصب ، و السناد ، والهزج .

ويرى ان "النصب" هو غناء الركبان وغناء الفتيان أما "السناد" فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات، واما "الهزج" فالخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم !!! . قال اسحاق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله تعالى بالإسلام وفتحت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم فغنوا الغناء المجزوء بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير"(٤).

كيف يمكن لنا أن نتابع ابن خلدون والألوسي اللذين حطا من شأن الغناء العربي، مع أن الواقع الشعري الذي انتهينا إليه يناقض كل المناقضة هذه المزاعم؟

نحن لا ننكر الأثر الفارسي، والأثر الرومي في الغناء العربي ولكن هذا التأثير هو سنة من سنن الحضارات ، ولكنه لا ينفي الأصالة بالضرورة، ولا سيما أننا نجد بيئات الغناء العربي تتنوع وتتعدد لتشمل الحيرة ومواطن الغساسنة والمدينة ومكة واليمامة واليمن وحضرموت، والبادية والقبائل التي نالت حظها من الغناء والقيان(٥٦) .

وهل نقر الدكتور محمد التونجي في زعمه انه "قلما ذكر الشعراء في الجاهلية -غير الأعشى- آلات الطرب والمغنين والمغنيات، واذا حصل مثل هذا فعرضاً من غير تفصيل، إلا بعض الشعراء، منهم لبيد فإنه وصف مغنية تلاعب اوتارها !!!" (٢٠٦:٦٤).

يبدو لي فيما عرضنا من شيوع صور المغنين والمغنيات والموسيقيين، عند مختلف الشعراء ما يكفي لتفنيد هذه المزاعم.

ومما هو جدير بالذكر أن الموسيقى قد وردت في شعر أبي نؤيب الهذلي في موضع بئيس، حيث صور المزمار قد قطعه السيل من يراعته في اجمة بعيدة ودفع به عبر الصحراء والحر. فتعقبه الصانع ووشاه ، قال (٢٢) :

لقد لاقى المطيُّ بنجد عُفر ... حديثٌ إن عجبت له عجيبُ *

أرقت لذكره من غير نوبٍ ... كما يهتاج موشيٌّ نقيبُ

سبيٌّ من يراعته نفاهُ ... أتيٌّ مدّهُ صُحرٌ ولوبُ

---

* المطي : الرجال بلغة هذيل . نجد عثرة : نجد مريع . أرقت لذكر الحديث : لم أنم . الموشي : المزمار : نقيب : منقوب . نوب: تأتيه من غير وجه واحد . سبي : يعني المزمار، قصابته من ارض غريبه . من يراعته اي من قصبه ، اي غريبة من قصبه ، وقالوا: اليراعة : الأجمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى الدكتور نصرت عبدالرحمن" ان شعر هذيل عامة قليل الالتفات الى الفنون من الموسيقى وغناء ونعت. ولا أرد هذه الأعمال إلى غلظة في اطباع الهذليين ، ولا إلى استغراق في البداوة؛ فالبداوة ليست مانعة من ازدهار الفنون. ولكني اميل إلى رد ذلك إلى نغمة الحزن التي كانت تأخذ بخناق الشعر الهذلي ، فبدا الرثاء اكثر موضوعاته شيوعاً ، وظهر الموت فيه آخذاً بتلابيب إنسان الأرض وحيوانها" (٧٩:٢٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحادي

والوجه الآخر لصورة الغناء العربي يتمثل في الحداة الذين يحدون للظعائن ، ولإبل الحرب . ويرى ابن خلدون أن الحداء هو أصل الغناء العربي . فكانت بداية أمرهم بالشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة ، و يفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينعطف على الآخر يسمونه البيت، ثم تغنى الحداة منهم في حداء إبلهم والفتيان في قضاء خلواتهم (٥:٤٢٦-٤٢٧).

ويبدو أن الأستاذ فارمر يتابع ابن خلدون في نظريته "لقد كان أول صوت "الحداء" هو غناء القافلة و يعزى إلى مضر بن نزار بن معد " ، "والموداد" في سفر الأيام من العهد القديم ، و أنما هو على ضرب الرجز :قياس قيل أنه يتسق مع رفع أقدام الجمل و وقعها "(٥٥:٥٤).

وأياً كانت صحة هذه النظرية، فالذي يهمنا في إطار البحث هو صورة الحادي، كما رسمها الشعراء الجاهليون.

و قبل أن ننتقل إلى الحديث عن صورة الحادي، علينا فهم الواقع اللغوي للكلمة ، ففي اللسان "حدا الإبل وحدا بها يحدو حدواً و حداءً: زجرها خلفها و ساقها . و رجل حادٍ وحداء؛ قال :

وكان حداءً قراقرّيا

الجوهري : الحدو سوق الإبل والغناء لها . و يقال للشمال حدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه؛ قال العجاج :

حدواءُ جاءت من جبال الطّور تزجي أراعيلَ الجهامِ الخور

وبينهم أحديةٍ و أحدوّة أي نوع من الحداء يحدون به؛ عن اللحياني . وحدا الشيء يحدوه حدواً واحتداه :تبعه. وحدي بالمكان حداً :لزمه فلم يبرحه . أبو عمرو :الحادي المتعمد للشيء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.يقال :حداه وتحداه و تحراه بمعنى واحد .[١]

من خلال هذه العرض لمادة "حدا" كما وردت في اللسان نلاحظ أن الحادي هو الذي يسوق الإبل ويغني لها، وهو الذي يتبعها ويلزمها فلا يفارقها، وهو المتعمد للشيء .

وترتبط صورة الحادي بالظعائن في عمومها . يبدو الحادي في جانب منها ذا صورة إيجابية، فهو يتحمل المشاق في الرحلة، وتبرز صورة التحدي واضحة في شعر زهير بن أبي سلمى، فالحداة يغشون "وعث الكثيب" خلال رحلتهم الشاقه، ويشبه حملهم الإبل على صعب الرمل باقتحام الملاحين لجة البحر بالسفن (٢٩:٨٠) :

يغشى الحداةُ بهم وعثَ الكثيب، كما يغشي السّفائنَ موجَ اللجّةِ العَرَكُ *

ففي الصورة نلاحظ مظهري التحمل والمغامرة، لأن اقتحام لجة البحر "معظم الماء" ليس بالأمر اليسير.

وفي شعر عبيد بن الأبرص، تبدو صورة الحادي وهو يكلف النوق القوية السير ليلاً، حتى تصبح مثل بقرة الوحش عندما يحثها الحادي، ولا يخفى ما في ذلك من عنصر التحدي(٥٢:٤٧) :

أنّى اهتديتَ لركبٍ طال سيرهمُ في سبسبٍ بين دَكْداكٍ وأعمادِ

يكلّفون سراها كلُّ يعملةٍ مثل المهاةِ إذا ما احثّها الحادي **

وفي صورة أخرى لتميم بن أبي بن مقبل، تبدو صورة الحداة وهم يميلون بالظعائن أثناء رحلتها إلى بستان النخيل، ويشبه الظعائن بالسفن في ساحل أوال(١٤:٢٥٦) :

مال الحداة بها لحائشِ قريةٍ وكأنّها سفنٌ بِسيفِ أوالِ***

---

* العراك : جمع عركي وهو النوتي (الملاح) وعث الكثيب : الرمل اللين الذي تغرق فيه الماشية ..

** إني اهتديت : كيف اهتديت ، السبسب : المفازة والقفر ، وما استوى من الارض . الدكراك : السهولة ، او التبد من الرمل ولم يرتفع . الأعقاد : جمع عقد وهو الرمل المتراكم . السري : السير ليلاً .

اليعملة : الناقة القوية . المهاة ك البقرة

*** الحائش : بستان النخيل . السيف : ساحل ابحر . أوال : قرية من قرى السيف بالبحرين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يخفى ما في الصورة من قدرة الحداة على القيادة في مثل هذه الرحلة التى تظهر فيها الظعائن وكأنها السفن الراسيات في الساحل.

والبعد الزمني المتمثل "بالسرعة" من الأبعاد التى تلحظها في صورة الحادي، ويمكن ملاحظته في الفعل "حثّ" الذي يتكرر في صورة الحادي . فالإسراع في السير والسبق، من القضايا المهمة في الرحلة، قال عمرو بن قميئة(١٠٧:٤٩) :

وقد ريـــــــع قلبيَ إذ أعلـــــنوا وقيل:أجـــــدَّ الخليطُ احـتمالاً *

وحثَّ بها الحـــــــــاديان النّجاء مع الصّبحِ لمّا استثاروا الجمـــالا

وتتكرر نفس الصورة في شعر لبيد بن ربيعة (٢٤٢:١٩).

وفي شعر امرىء القيس تبدو صورة الحادي مرتبطة بالغناء، بينما لم نلحظه في الصور السابقة، ويبدو الحادي في هذه الصورة يخفف المعاناة والمشقة في الرحلة وبالتالي نلمس الأثر النفسي للحادي في الرحلة ، قال : امرؤ القيس (٦٧:٢٠) :

إذا ملتُ روّحـــــــنا أرن فُرانِـــقٌ على جلْعَدٍ واهي الأباجـل ابترا **

يريد : إذا شق علينا السير، أرن الفرانق بالغناء والتطريب ليروّحنا ويسلينا عن بعض ما نجد من المشقة والعناء .

وفي شعر أبي دواد الإيادي، يبدو الحادي حاذقاً ، عالماً بالأمور، ويصور بأنه "نو نجدة" ، "عسر الخلق" ، يمضي ويمعن في السير، ويبدو حازماً، ولكنه يفرق بين الأحبّة، يرقح معيشته، وقد جانب الناس(٣٢٦:٥١) :

---

* الخليط : الشريك الذي يخلط ماله بمال شريكه ، والقوم يخالط بعضهم بعضاه والقوم الذين امرهم واحد. الاحتمال : الترحل. النجاء : الاسراع .

** ارنّ : رجع صوته بالغناء، الجلعد : الغليظ الشديد ، قوله : واهي الأباجل ابتراً، يريد لين العروق والمفاصل فيتسع لذلك في العدو .

الأباجل : عروق في الرجل . واحدها : ابجل . أبتراً : مقطوع الذنب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زمّوا بليلٍ جمـــــال الحيّ وانجذبوا لم ينظروا باحتمـال الحيّ اشراقـاً *

يحثهم نطسٌ نو نجـــــدةٍ شرسٌ اوصـــى ليزعجُهم بالـظّعن سوّاقـــا

أتى أتيح لهـــــــا حرباءُ تنضبهٍ لا يرســـل السّاق إلاّ ممسكاً ساقـــا

مفرقاً بـــــــين ألاف مُلسَّعةٍ قد جانـب النـاس ترقيحاً واشفاقـــا

وفي صورة لأبي دواد الإيادي، يصف ناقته بأنها "ذات انتباذ" ، من الحادي ، فهي تنفر منه، وهذا يضيء لنا الوجه الآخر كما رسمه الشعر الجاهلي، يصبح الحادي رمزاً للتفريق بين الأحبة ، ولنبدأ بقول أبي دواد الإيادي(٢٩٧:٥١) :

أعددت للحاجـــــة القصوى يمانيةً بين الـمهارى وبـين الأرْحبيّاتِ **

ذات انتباذٍ من الحـــادي إذا بركت خَـــوّت على ثفنـــاتٍ مُحزئـلّاتِ

وفي شعر قيس بن الحدادية، تبدو صورة الحادي وهو يسير سيراً بطيئاً كحبو الصبي مقيداً وقد جدع عرنين أنفه ، وتظهر هذه الصورة مليئة بالسخرية والمرارة(٢٤:٤٦):

فيالك من حـــــــادٍ حبوتَ مُقيّداً وانحى على عرنين أنفك جـــادعُ

أغيظـــا أرادت أن تُخبّ جمالـــــها لتفجـع بالإظفان من أنت فـــاجعُ

ويبـدو لي أن هذه الصورة إنما جاء بها الشاعر بدافع السخرية والحقد على الحادي، الذي يعد رمزاً لتفريق الأحبة ، وربما يدعو عليه بالأسر وجدع الأنف لأنه لم يلب طلبه .

وفي شعر زهير بن أبي سلمى، تظهر صورة "الحداة" وهم جماعات في رحلة الظعائن(٦٦:٢٩) :

دانيـــةً لِشَرَوَرى ، أو قفـــا أدمٍ تسعى الحُداة على آثارهم ، حزقاً ***

---

* لم ينظروا : لم ينتظروا . نطس : حاذق عالم بالأمور. لها : أي لتلك الجمال .

** يمانية : ناقة من اليمن ، الأرجيات : نوق منسوبة إلى أرحب -حي او فحل-. خوت : بركت . محزئلات : مرتفعات .

*** الدانية : القريبة . شروري ، أدم : موضعان او جبلان .

الحزق : الجماعات واحدتها : حزقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وربما جعل الحداة جماعات ، ليخبر بكثرة القوم، وعجلتهم في السير، وذلك اشدّ عليه ، وأهيج لحزنه .

وفي صورة أخرى ، تظهر صورة "الحُداة" وهم يقصدون "مياه نخلٍ" حيث يظهر البعد المكاني . قال بشر بن أبي خازم(٦٢:٤٧) :

تؤمّ بهـــا الحُداة مياه نخـــــلٍ ومنها عن أبانـــــــينَ ازورارُ *

وفي صورة أخرى يشبه الشاعر صوت حمار الوحش بصوت الحادي ، وهذه الصورة للشماخ(١١٥:٣٣) :

له زجلٌ تقولُ : أصوت حـــــادٍ إذا طـــلب الوسيقةَ أو زمـــير**

وقال النمر بن تولب(١١٨:٦٥) :

ألا يا حـــــــادِ ويحك لا تلمني ونفسك لا تضيعـــها ودعنـــي

وقال المتلمس(٦٦):

كـــأني شـــاربٌ يـــوم استبدوا وحَثَّ بهم وراءَ البيـدِ حـــادِ

وفي شعر النابغة ، تبدو صورة الحادي وقد تخلف عن الركب لحاجة، ويظهر وهو يشسعُ نعله لم يلحق ، قال النابغة (١٨) :

واذا تخلف بـــعدهنّ لحـــاجةٍ حـادٍ يُشسّعُ نعْله لـــم يلحق***

ومن الصور التي تدل على مدى حقد الشعراء على "الحُداة" صورة في شعر عبيد بن الأبرص(١١٣:٥٢) :

فلما رأيتُ الحاديـــينِ تكَمّشـــا ندمتُ على أن يذهبا ناعميْ بـالِ****

---

*تؤم : تقصد . نخل : اسم موضع . ازورار : انحراف وعدول عنه .

** الوسيقة : وهي من الإبل كالرفقة من الناس، فإذا سرقت طردت معاً .

***يشسع نعله : جعل لها شسعاً . والشسع : أحد سيور النعل .

**** تكمش : جد واسرع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يريد أن يذهبا بحبيبته وهما ناعما البال .

ونجد في شعر عبيد بن الأبرص ايضا صورة طريفة للحادي، فهو يصف الحادي بأنه شجاع هادئ النفس لا يروعه السير في القفار، ينحر الإبل ويعطيها للناس، ولا ينحر إلا الصحاح من الإبل ، التي لا داء فيها، ويظهر الحادي في الصورة أقط مشمراً اثوابه، قد اخلولق سرباله ، ونحل عوده ونأى عنه الناس من شدة نتنه، وهو مقدم على الأمور بلا تبصر(٨٥:٥٢) :

يجتابُ مهمهةً يهماء صملقةً سكنُ الخلائق حادي اللحمِ مُعتبطُ*

مُشمرٌ خلقٌ سربالهُ مشقٌ قانورةً قائلٌ مُغذمِرٌ قَطَطُ

ويظهر أن الشعراء كانوا يضمرون الحقد للحداة – ولو من الناحية الفنية – فكيف لا يحقدون على من يباعد بينهم وبين أحبتهم؟ . (٣٨:١٠)

وفي المقابل، هناك "الحداة" لإبل الحرب، قال النابغة الذبياني يرثي النعمان بن حارث(١١٧:٣٤) :

يسير بها النعمان تغلي قُدورُه تجيشُ بأسباب المنايا المراجلُ

يحث الحداة جالزا برادئه يقي حاجبيه ما تثير القنابلُ

ونختم حديثنا عن المغنين والحداة، بصورة، نادرة "للراقص"، وهذه الصورة للصُّقْعَب، قال في وصف رقاص(٦٧) .

عجبت من رجليه يتبعانهِ

يعلوهما طوراً ويعلوانهِ

كأن أفعيين يلسعانهِ

---

*اليهماء : مفازة لا ماء فيها . الصملقة والسملقة : الأرض المستوية الجرداء . سكن الخلائق : شجاع هادىء النفس. حاذي الإبل : ينحر الإبل يعطيها الناس . مقبط : ينحر الصحاح من الإبل .
الشق: كلمة مختصرة من مشيق ، المشوق الطويل القليل اللحم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٣-

النحات

عرف العرب في جاهليتهم الفنون الجميلة كالنحت والتصوير، وقد عثر الرحالون على عدد من التماثيل والصور المنحوتة على الحجارة، ولكنها قليلة ، ولا تعطينا فكرة واضحة عن الفن العربي الجنوبي، ويظهر لنا من خلال الشعر الجاهلي أن اليمن كانت مشهورة بهذا النوع من الفنون .

وقد عبر عن النحات ، أي المثال الذي يصنع التماثيل بلفظة "هصنع" أي الصانع في اللغة اللحيانية (٦).

وفي الوقت الحاضر لا تملك المتاحف تماثيل جاهلية بالحجم الطبيعي للإنسان، ولكننا نجد قطع التماثيل حطمها الإنسان بيده وهشمها بنفسه، إما للقضاء على معالم الوثنية المنسجمة في نظره في هذا التمثال ، وإما للاستفادة من احجاره في اغراض البناء او اغراض اخرى تفيده (٦) .

،من بين التماثيل التي عثر عليها، رأس رجل عربي جنوبي، حفر النحات عيني الرجل حفراً، وجعلهما واسعتين . فبدتا كأنهما قد قلعتا، وأوصل اللحية بشعر الرأس، حتى احاط الشعر بالرأس والوجه، وصار كأنه هالة . أما الفم، فصغير مفتوح ولم يتمكن النحات من حفره حفرا يقارب الطبيعة، ولم يتمكن كذلك من ابراز معالم الأنف. أما الجبين فأملس، وأما الوجنتان، فملساوان كذلك ، واما الحجر المنحوت فمن الرخام . (انظر الملحق شكل ١، ٢، ٣، ٤)

ولا يهمنا في هذا البحث اجراء المقارنة بين فنّي النحت العربي الجاهلي، اليوناني، لأن الذي بين ايدينا من التماثيل العربية -كما قلنا- قليل لا يكفي لهذه المقارنة. ولكن مع ذلك "فإننا نجد في الفن العربي الجنوبي، محاولة تستحق التقدير تظهر في طموح الفنان العربي الجنوبي،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورغبته جهد إمكانه في إظهار شخصيته ومواهبه الفنية ، وهو ولو وجد التقدير مثل نظيره اليوناني، لابدع ولا شك ابداعاً كبيراً في عمله الفني[٦].

وفي شكل رقم (٢) من الملحق نرى في الصورة تمثالاً من البرونز لثور يرمز إلى إلاله القمر وقد عثر عليه في "ظفار" . وفي شكل (٣) من الملحق نرى في الصورة تمثال رجل صنع من النحاس، تظهر على شعر رأسه نتوءات بارزة كأنها الخرز ، ربما تمثل زينة أو تعبر عن شعر صاحبها المتموج .

ومن بين التماثيل المصنوعة من البرونز تمثال امرأة وهي ترقص، وقد لبست ثوباًطويلاً يمتد على سروال ، وقد ابدع الفنان صانع التمثال في عمله فجعله حياً ينبض بالحياة، وقد ضيق خصر المرأة، وجعل الساقين بعضهما فوق بعض، ليأخذ جسمها وضع راقصة وهي في حالة رقص . (انظر شكل رقم ٤ في الملحق)

أما الأحجار المحفورة التي عثر عليها في خرائب اليمن، فقد وجدوا أن بعضها أصله من العراق ومصر ، ومن احجار يونانية من ايام القياصرة ومن العصور الهيلينية، وقد نحنت على بعض منها حروف المسند المعبرة عن بعض المعاني الدينية او عن اسماء اصحابها[٦].

أما في الشعر الجاهلي، فترد صورة النحت بكثرة، فقد كانت "الدمى" مضرب الأمثال في الجمال عند الشعراء، فإذا اراد احدهم أن يصور فتاته جعلها كالدمية "[١٠:٣٨].

والدمى جمع دمية وهي الصورة ويراد بها الأصنام . والدمية : الصنم ، وقيل : الصورة المنقشة بالعاج ونحوه. ويقال للمرأة : الدمية يكنى عن المرأة بها ، عربية وجمعها دمى . قال الشاعر :

والبيـــضَ يزْفلن في الـــدُّمى والرِّيـــط والمـــذهب المصونِ

الدمية : الصورة المصورة لأنه يبالغ في تحسينها[١].

ويبدو لي أن المعنى الأول للدمية هو الذي يرد في الشعر الجاهلي؛ أي بمعنى التماثيل المجسمة دون صور. وتكرر في الشعر الجاهلي صورة تشبيه الحبيبة بالدمى ، قال ابو دواد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإيادي(٥١:٣٢٤) :

دخلنا على البيضِ الكواعبِ كالـدُّمى لنا قصبُ الحصن الذي كـان يُمنَعُ

وفي قول عبيد بن الأبرص(٥٢:١٣٨) :

واوانسٍ مـــــــــثل الـــدُّمى حـــــــورِ الـــعيونِ قد استبينا

وفي قول بشر بن أبي خازم(٤٧:١٥٥) :

الواهبُ البيضَ الكواعبَ كالـــــدُّمى حُـــــوراً بأيديها المزاهرُ تعزفُ*

حيث شبه الشاعر النساء البيض الجميلات، بالدّمى .

وتتكرر نفس الصورة في شعر الأعشى، إذ يشبه "القيان" الناصعات البياض بالدمى(٩:٢٦٧) :

وحورٌ كأمثال الـــــدُّمى ومناصفٌ وقدرٌ وطبّاخٌ وصـــــاعٌ وديسقٌ **

ويبدو لي أن تكرار تشبيه الفتاة الجميلة، حوراء العينين بالدمية، يلقي الضوء على فن النحت العربي، وما وصل إليه النحاتون العرب من ابداع وشفافية في تماثيلهم التي نحتوها . مع أننا لا نمتلك في الوقت الحاضر تماثيل كاملة بالحجم الطبيعي للإنسان كما ذكرنا . فالصور الشعرية القائمة على التشبيه في تصويرهم للفتيات الجميلات تحتم وجود علاقة بين المشبه والمشبه به .

وقد صور الأعشى فتاته ، كريمة العنصر ، بضة الأنامل ، جميلة كالدمية ، لا يفسد جمالها العبوس، ولا يذهب بوقارها الاسراف في الضحك(٩:٢٥٩) :

حـــرّة طفـــلةُ الأنامـــلِ كالدّمـــ ـــية لا عـــابسٌ ولا مِهْـــزاقُ***

---

* الكواعب : جمع كاعب ، وهي الجارية التي كعب ثديها .

** مناصف : جمع منصف وهو الخادم . الصاع : قدح يكال به . الديسق : خوان من فضة (فارسي معرب) .

*** الحرة : الكريمة، طفلة ناعمة، مهزاق: كثير الضحك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد وردت صورة التمثال هنا مثالاً للنعومة وهذا يبين لنا اتقان النحاتين العرب في نحت تماثيلهم .

وقال قيس بن الحدادية الخزاعي(٢١):

هـــل الأدْمُ كـــالآرام والزُّهْرُ كالدّمى معـاودتي أيّامهـــنّ الصـــوالـــحُ

وقد وردت صورة التمثال ناعمة في شعر الأسود بين يعفر النهشلي، حيث شبه الحور، النواعم، اللواتي يمشين بالأقداح الضخام بالدمى، قال الأسود(٣٠:٥٦٦) :

والحور تمشي كـــالبُدُور، وكالـــــدُّمى ونواعم ، يمشينَ، بالأرفـــــــــادِ *

وقال تميم بن أبيّ بن مقبل العامري(٦٨:٣٩٨):

ومأتم كالدُّمى حـــــــورٍ مدامُعها لم تيأسِ العيشَ أبكاراً ولا عُونا **

وقد ورد في الشعر الجاهلي لفظ "تمثال" بمعنى "دمية"، نجد ذلك في شعر الأعشى ، حيث شبه فرسه اثناء الجري، وقد "تم حسناً" بالتمثال(٦٨:١٦٩) :

مستخفاً عـــــــلى القيادِ ذفيفاً ، تمَّ حسناً ؛ فصاركالتمثـــالِ***

وتتكرر هذه الصورة في شعر عبيد بن الأبرص(٥٢:١٠٩) :

يسبقُ الألفَ بالمُـــــدجَّج ذي القوْ نسِ حتى يؤوبَ كالتمثـــــال****

فقد شبه فرسه الذي لم يغيره طول الجري، بالتمثال في حسنه وكماله .

و الأعشى يشبه نساء الحانات الطوال، الضخام الناعمات، اللواتي لم يفسد جمالهن الكد، ولم يذهب به الهوان بالتماثيل(٩:٢٩٥) :

---

* الأرفاد : جمع رفد ، وهي الأقداح الضخام .

** المأتم جماعة النساء . العون ، الواحدة عوان : من كانت في منتصف العمر .

*** مستخفاً :خفيفاً . دفيفاً : سريعاً .

ولم اعثر على هذا البيت في ديوان الأعشى الكبير.

**** المدجج : الفارس المسلم . القونس : الخوذة في رأسها حديدة طويلة . يؤوب : يعود كالتمثال .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشغـــــاميمَ جسام بـــــدُنٍ ناعمات من هوانٍ لـــم يُلـــخْ

كالتماثيـــــل عليها حـــــللٌ ما يـــوارين بطون المُكتشـــخْ

وتبدو التماثيل عليها حلل، فهل كان العرب يضعون أزرا حول التماثيل كي تستر ما يجب أن يستر عند الانسان ، أم ينحتون التماثيل مؤزرة مثلما نرى في التماثيل المصرية لا التماثيل الرومانية (٣٩:١٠) .

وقـــد ترد صـــورة "الدمـــيـــة" مـــرتبطة "بالمادة المصنوعـــة منهـــا ، قـــال عـــدي بن زيد العبادي (٧٠٤:٣٠) :

زانـــهنّ الشفوفُ ، ينضحنَ بالمسْـــ ـــك ، وعيشٌ مُفْنِقٌ ، وحـــريرُ*

كدمى العاجِ، في المحاريب، أوكـــال بيض فـــي الرُّوض، زهوه مستنيرُ

وقد كان العرب يضعون "الدُّمى" على ألواح الأبواب ، إما للزينة ، وإما لدفع الشر والأذى او للتبرك والتقرب (٦).

وقد تكون هذه التماثيل منحوتة من المرمر، ويضيف إليها النحاتون العرب الذهب، قال الأعشى (١٨٩:٩):

كـــــدميةٍ صُوِّر محرابـــــها بمُذهب في مـــــرمرٍ مـــائرِ**

وفي صورة أخرى للنابغة، تبدو هذه التماثيل مصنوعة من المرمر (٦٤٣:٣٢) :

أو دميـــة من مـــــــرمرٍ مدفوعةٍ بُنيت بـــأجرٍ تشـــادُ وقرمدِ***

وفي ديوان النابغة "او دمية في مرمرٍ" (٣٣:٣٤).

وقد تكون صورة "الدمى" مرتبطة بالمكان أي المكان الذي نحتت فيه، ويبدو أن اليمن كانت

---

* الشفوف : جمع شفى : الثوب الرقيق. فنقة: ناعمة . البيض : بيض النعام ، الزهو : النور .

** مرمر مائر : اي براق يتموج لوجودة صقله .

المرمر : الرخام الأبيض والاحمر المعروف .

*** القرمد : الجص .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مشهورة بفن النحت . قال بشر بن أبي خازم(٤٧: ١٦٧) :

كأنّ عـــلى الحـــُدوج مُخـــــدّراتٍ دُمى صَنْعاءَ خُـطَّ لهـــا مثالُ*

وفي قول امرىء القيس(٢٠: ١١٠) :

هـــــما نعجتان من نعاج تبالـةٍ لدى جؤ ذرين او كبعض دمى هَكَرْ**

فقد شبه جارتين ببعض دمى هكر . وهكر : مدينة باليمن (١٧).

أما الفن الآخر من الفنون الجميلة في العصر الجاهلي، فهو فن التصوير ، وقد عثر المنقبون والباحثون عن الآثار القديمة على رسوم بشر وحيوان ونبات نقشها الجاهليون على الصخور والجحارة، يرمز بعض منها إلى أمور دينية وأساطير ، ويعبر بعضها الآخر عن مواهب فنية عند حافري هذه الصور، ومقدرة تقدر في الرسم ، ووجود ميول فطرية عند اصحابها في الفن، ومحاولة إبراز العواطف النفسية والتعابير بلغة فنية يفهمها كل إنسان هي لغة الرسم والنقش(٦) .

وقد كان الجاهليون يقتنون الصور ويضعونها في بيوتهم للزينة (٦).

ففي شعر امرىء القيس(٢٠: ٢٩):

ويـــا ربّ يـــــومٍ قد لـهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كـــأنها خـــطّ تمثـــالِ

أي كأنها نقش صورة ، وإنما شبهها بالتمثال، لأن صانعه يتأنق في تحسينه ويمثله على أحسن ما يمكنه ، وقد أشار الشاعر إلى التصوير، فالخط : الكتابة والرسم، والتمثال الصورة .

ويبدو لي أن "النحات" لم يحظ بعناية الشعراء الجاهليين ، ويظهر أن الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من ذكر "النحات" .

---

* الحدوج جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء .

** تبال : موضع تألفه الوحوش .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد، فهذة صورة أصحاب المهن والفن في الشعر الجاهلي، ولعل ذلك يكشف عن بعض الجوانب المهمة في شخصية الإنسان الجاهلي، الذي كان له دوره في سيرورة التاريخ الإنساني ضمن شروط الزمان والمكان، والذي صُوّر في الكثير من أدبياتنا ومصادرنا -قديماً وحديثا- بصورة البشر البدائيين، وهذا نص ابن طباطبا ينضح بهذا النوع من التصوير للعرب الجاهليين، قال : "واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما احاطت به معرفتها ، وادركه عيانها، ومرت به تجاربها، وهم أهل وبر : صحونهم البوادي ، وسقوفهم السماء !! فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها في فصول الزمان على اختلافها : من شتاء ، وربيع، وصيف ، وخريف، من ماء وهواء ونار وجبل ونبات وحيوان وجماد وناطق وصامت ومتحرك وساكن وكل مستولد من وقت نشوبه وفي حال نموه إلى حال انتهائه!!!!!"(١٠:٦٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الصائد والمشتار في الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(١)

صائد ثور الوحش

يشيع الحديثُ في الشعر الجاهلي عن الصيد ، وجعل الشعراء هذا الحديث فقرة من فقرات قصائدهم قلّما أغفلوها أو تجاوزوا عنها . ولا غرابة في ذلك ؛ فالصيد يمثل جانباً مهماً من جوانب الحياة لاقتصادية ، اعتمد عليه طائفة من المجتمع الجاهلي ، رأوا فيه مهنة ، ومورداً من موارد الكسب والعيش ضمن معطيات الحياة الجاهلية التي تنوّعت فيها ألوان الحياة ، شأنها في ذلك ، شأن الحياة الانسانية في كل زمان ومكان . وقد كان بعض العرب يعلي من شأن الصيد ، ويمدح الرجل بأكله من صيد يده ، ويعتبر ذلك دليلا على أنفته وكبريائه ، وعلامة على ترفّعه عمّا في أيدي الناس ، فها هو ذا امرؤ القيس – على الرغم من عراقته في الملك وأصالته في المجد يصف صائداً من «بني ثُعَل» لا يزال يعتمد الصيد وسيلته الوحيدة لكسب العيش ، على الرغم من كبر سنّه وشيخوخته . قال امرؤ القيس (١٢٣:٢٠) :

ربَّ رام من بني ثعلٍ ... مُتْلج كفّيه من قُتَـــرهْ

فهو لا تنمي رميتُـــهُ ... ما له لا عدّ من نفـــرهْ

مطعم للصيد ليس له ... غيرها كَسْبٌ على كبرهْ

ولقد أولع الجاهليون بوصف حيوانات الصحراء والتدقيق في حياتها ولعا لا يكاد يعادله ولع ، وهم لا يتحدثون عنها حديثا بعيداً ، بل يقتربون منها ، ثم يصفونها وصفا دقيقا حيا ويقصّون أخبارها في تتبع عجيب ، واهتمام بالغ ، وربمّا تكون الكثرة الكاثرة من هذا القصّ حديثا عن مشاهد الصيد . ولقد حظي «الثور الوحشي» بعناية الشعراء الجاهليين ، فيما عُرف «بقصّة الثور الوحشي» .

ولقد تشابهت عناصر هذه القصة وأبعادها عند شعراء الجاهلية ، وتبدو صورة الثور الوحشي في هذه القصّة واحدة عند الجاهليين «وفيها نرى الثور الوحشي يرعى الكلأ منفردا وحيدا فيصيبه نوء الجوزاء ، ويلجئه قطرها وبردها وريحها شجرة أرطاة ، فيلوذ بها مستضيفاً، ويقضي في كنفها ليلة رجبيّة شهباء حتى تنجلي الظلماء ويذرّ قرن الشمس فيسمع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نبأة صائد يشلي كلابه جسرا ، ويعد نفسه للقراع .

ثم يصور الشعراء العراك الذي ينشب بين الثور والكلاب ، وهو عراك تكون فيه الغلبة له ، فيشك بروقيه بطون الكلاب حتى يجهز عليها» (٨١:١٠) .

وبناء على ذلك ، تظهر قصّة الثور الوحشي مكونة من عدة محاور : الثور الوحشي ، والكلاب ، والصائد . ولا يهمّنا في سياق بحثنا سوى الصائد .

ويبدو الحديث عن قصة الثور الوحشي في الشعر الجاهلي مرتبطا - في الأغلب - بالحديث عن «الناقة» ووصفها أثناء الرحلة . ويظهر أن «الناقة - دائما - هي الذريعة التي يتوسّل بها الشعراء للوصول الى هذه الساحة العريضة من ساحات الحياة والشعر فينهجون في ذلك سبيلا واحدة هي سنّة القوم جميعا ، فما يفرغ أحدهم من القول في ناقته حتى يهرع الى تشبيهها بأحد هذه الحيوانات (الثور الوحشي أو الحمار الوحشي أو غيرها) ثم ينسى هذه الناقة نسيانا كاملا ويأخذ في الحديث عن المشبّه به ثمّ يطل به الحديث ، فاذا ما تهيّأ له ما أراد واستقام زعم ان هذا الحيوان شبيه ناقته» (٩٧:٧٠) .

والصائد هو محور من محاور هذه القصة ، وبالتالي فإنّ صورة الصائد عند هؤلاء الشعراء جميعا «إنّما تأتي - غالبا من خلال وصف الناقة .. انها تكاد تكون قاعدة مطردة .. يشبّه الشاعر ناقته بحمار الوحش أو ثوره ، ثم يصف حمار الوحش ومطاردته من قبل الصيّاد» (٦٥:٧١)

ونشير في هذا السياق الى مثال واحد من شعر بشر بن أبي خازم ، ففي الرحلة بدأ بوصف الناقة ، ثم انتقل الى تشبيهها بالثور الوحشي الذي يطوي البلاد نشاطا وقوة ، ويتعرّض هذا الثور كل يوم الى نبأة من «مكلّب» تريه حياض الموت ، ثم تقلع عنه ، ثم فوجئ بالكلاب ، ولما يسكن الثور الى الأرض ليستريح بعد الرعي ، ثم يهرب هذا الثور من الكلاب ، فكأنه كوكب في سرعته وحسنه وبياض جلده وبريقه ، ثم تدركه الكلاب ، وتدور المعركة بينه وبين الكلاب ، تكون الغلبة للثور الوحشي ، وتُصرع الكلاب ، وينتهي مشهد الصيد . قال بشر بن أبي خازم (١٢١:٤٧) :

أموناً كدكّان العباديّ فوقها ... سنامٌ كجثمان البلية أتلـــــــعُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تراها اذا ما الآل خبّ كأنها ... فريدٌ بذيٍّ بركانَ طاوٍ مُلمّـــــعُ

له كل يوم نبأة من مكلّـــبٍ ... تُريه حياضَ الموت ثُمّتَ تُقْلـــــعُ

ففاجأه من أول الرأي غـُدوةً ... ولمّا يسكنه الى الارض مرتـــــعُ

فجال على نفر تُعُرِّض كوكب ... وقد حال دون النّقع والنّقع يسطـــعُ

بأكلبةٍ زرق ضوار كأنّهـــــا ... خطاطيفُ من حول الطريدة تلمـــعُ

اذا قُلتُ قد أدركنه كرّ خلفها ... بنافذة كَلاّ تُفيـــت وتصـــــــرعُ

ويتكرر هذا المشهد في الشعر الجاهلي - غالبا - ويمكن أن نستثني مراثي الهذليين ، وحديثهم عن تقلب ادهر ، فالأمر مختلف ، وسنعرض لذلك فيما بعد .

وعلى هذا ، يرى بعض الدارسين أن مشهد الصيد ليس غرضا من أغراض القصيدة الجاهلية ، ولا غاية من الغايات التي يقصد اليها الشاعر ، كما هو الشأن بالنسبة لوصف الأطلال والتغزل بالمحبوبة والتفاخر بقطع المفاوز في الهاجرة ، وانما هو وسيلة لتحقيق غرض ألا وهو الاشادة بالمطيّة ناقة كانت أم جوادا (٧٢) .

ولم تكن عناية الشعراء الجاهليين بشخوص حكاية صيد «الثور الوحشي» واحدة ، فشخصية «الثور الوحشي» هي وحدها التي استأثرت باهتمامهم ، فرسموها بدقة وأناة ، وأمعنوا في التفاصيل ، أما شخصية الكلاب ، فتأتي في المرتبة الثانية من حيث الاهتمام والعناية ، وأما الشخصية الثالثة وهي شخصية الصائد ، محور بحثنا ، فقد تفاوت الشعراء الجاهليون بمدى العناية والاهتمام في رسم ملامح وسمات هذه الشخصية ، ففي بعض الأحيان تغيب شخصية الصائد تماما عن مشهد الصيد ، بينما تحتل شخصية الثور الوحشي، وشخصية الكلاب كلّ مساحة مشهد الصيد . نجد ذلك في شعر لبيد بن ربيعة ، ففي أثناء الحديث عن الرحلة ، يصف ناقته ، ثم يشبّهها بالثور الوحشي ، ويبدأ بسرد حكاية «ثور الوحش» الذي أضل «صواره» ، ونزلت به سحابة تنطف الماء ، فباكرته مع طلوع الشمس كلاب مسترخية الآذان ، تعدو مثل عدو الخبب ، فدارت المعركة بينها وبين «الثور» وتنتهي الحكاية بانتصار الثور . قال لبيد بن ربيعة (٧٨:١٩) :

فباكره مع الاشراق غُضْـــفٌ ... ضواريها تخبّ مع الرّجـــــال

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فجال ، ولم يجل جنبا ، ولكن تعرّض ذي الحفيظة للقتـــــالِ

فغادر ملّحما وعدلن عـــــنه وقد خضب الفرائص من طحـالِ

يشكّ صفاحها بالروق شـــزرا كما خرج السّراد من النّقـــال

وولّى تحُسرُ الغمرات عنـــه كما مرّ المراهنُ نو الجِـــــلالِ

في هذ المشهد ، لم نلحظ شخصية الصائد ، ويتكرر هذا المشهد في شعر زهير بن مسعود ، حيث تظهر في الصورة الكلاب المغرية بالصيد ، بينما تغيب شخصية الصائد ، ويتكرر كذلك تشبيه ناقته بالثور ، ووصف المعركة بين الثور والكـــلاب . قـــال زهير بن مسعود (٩٣:٢٨) :

كأنها أسفع نو جُـــــدّةٍ أوى الى غَضْباء مهضُوبُ

تلفّه ريـح خريـق وليـ ـل حالك النُقْبةِ غـربيـــبُ

فبات مقرورا مُكبّـاً علـــى روقيه والماء شآبيـــــبُ

كأنما الماء على متنـــــه لؤلؤ متن جَالَ مثقـــوبُ

حتى غدا يكلأ أقطـــــارَهُ من كلّ وجهٍ وهو مرعوبُ

فنال شيئا ثم هاجـت بـــه مُؤْسَدَةٌ فيهنّ تدريـــبُ

ثم تدور المعركة بين الثور والكلاب ، وتنتهي بانتصار الثور ، ومصرع الكلاب :

حتى تساقطن وخلّينه وروقُه بالدّم مخضوبُ

وفي قول بشر بن أبي خازم ، تتكرر نفس عناصر مشهد الصيد ، وتغيب شخصية الصائد . قال بشر بن أبي خازم (٥٦:٤٧) :

ففاجأته ، ولم يرهب فُجاءتهـــا غُضْفٌ نواحل في أعناقها القِـدَدُ

معروقَةُ الهام في أشداقها سَعَةٌ وللمرافق فيما بينهـا بَـــــدَدُ

فأزعجته ، فأجلى ، ثم كرّ لهـا حامي الحقيقة يحمي لحمه نَجِدُ

فمارسته قليلا ، ثم غادرهـــا مُجرّبُ الطّعْنِ فَتّالٌ لها جسـدُ

وفي صورة أخرى من الشعر الجاهلي ، تتكرر نفس عناصر مشهد الصيد ، ولكن تبدأ شخصية «الصائد» بالحضور في المشهد ، ولكنه حضور جزئي ، ولمحة عابرة تغيب بعدها ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتسلط الأضواء على المعركة بين الثور والكلاب . ففي شعر بشر بن أبي خازم تظهر صورة الصائد «جداية» أو «ذريح» ، مرتبطة باسمه ، هو يخبّ بكلابه نحو «ثور الوحش» . قال بشر بن أبي خازم (٥١:٤٧) :

فباكره مع الاشراق غُضْفٌ ... تخبّ بها جدايةُ أو ذريحُ

وأضحى والضباب يَزِلُّ عنه ... كوقف العاج ليس بها كُنُوحُ

ثم يمضي الشاعر في وصف المعركة بين الثور والكلاب ، حتى تنتهي نفس النهاية المعروفة :

وغادر فلّها متشُتّتاتٍ ، ... على القسمات شاملها الكُنُوح

وأصبح نائياً منها بعيدا ... كنصل السّيف جرّدَهُ المليحُ

وفي صورة أخرى للنابغة الذبياني ، تظهر صورة الكلاب مرتبطة بأصحابها من «بني فقيم» (٢٥٣:٣٤) :

فصبّحه كلاب بني فُقَيْم ... بجنب الرَّدْهِ من جُدَدٍ كِفَاحا

وتتّضح «صورة الصائد» قليلا في شعر النابغة ، حيث يبدو «الصائد» دنِس الثياب ، يشبه الذئب في غبرة ثيابه ، يسعى تحته كلابه، قال النابغة (٢٠٦:٣٤) :

أصاخ من نباةٍ أصغى لها أُذُنـاً ... صِماخُها بدخيس الرُّوْقِ مستورُ

من حس أطلس يسعى تحته شُرُعٌ ... كأن أحناكها السُّفْلى مأشيرُ

وتظهر «صورة الصائد» أكثر ، حيث يبدو الصائد صاحب كلاب (كلاّب) ، وتظهر كذلك صورة صوته ، وهو يفرّق كلابه لتهاجم ثور الوحش . قال النابغة (٨:٣٤) :

فارتاع من صوت كلاّب فبات له ... تُزجي الشّمالُ عليه جامد البردِ

فبثّهن عليه واستمر به ... صُمْعُ الكعوب بريّات من الحردِ

ولا تغيب صورة الصائد أثناء المعركة ، بل يظهر الصائد وهو يوجّه كلبه «ضمران» :

فهاب ضُمران منه حيث يوزعه ... طعن المعارك ، عند المحجر ، النجد

وفي شعر أوس بن حجر ، تظهر صورة الصائد الذي احترف الصيد ، واتخذه مهنة له يتكسّب بها (أخو قنص) ، ذكي الفؤاد ، متوقد ، جلد (شهم) ، يسوق كلابه ويدفعها أمامه ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينحي الدماء على ترائبها ، يتحدث لكلابه وهو يغريها للصيد ، ويقول لها : لم أر كاليوم مطلوبا بطلبا !! قال أوس بن حجر (٣:٤١) :

حتى أتيح له أخو قنـــص ... شهم يطرّ ضواريا كُنُبا

يُنحي الدماء على ترائبهـا ... والقد معقودا ومنقضبا

فذ أوْنهُ شرَفا وكنّ لـــــه ... حتىً تَفاضلَ بينها جَلَبا

حتى اذا الكلاّب قال لهـا ... كاليوم مطلوبا ولا طلبا

وقال أوس بن حجر (٤٢:٤١) :

كأنها ذو وشوم بـين مأفقـــــــة ... والقُطْقُطانةِ والبرعوم مذعـــورُ

أحسّ ركز قنيص من بني أســـــد ... فانصاع منثويا والخطو مقصورُ

يسعى بُغضْفٍ كأمثال الحصى زمِعاً ... كأنّ أحناكها السفلى مأشيـــرُ

تبدو صورة الصائد هنا ، يسير بصوت خافت ، يسعى بكلابه . وتظهر أسماء صيادي «ثور الوحش» في شعر امرئ القيس (١٠٣:٢٠) :

فصبّحه عند الشروق غدية ... كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبسِ

حيث يظهر في الصورة أسماء الصيّادين (ابن مرّ وابن سنبس) .

وكذلك في شعر سويد بن أبي كاهل اليشكري ، يظهـــر اسم الصـــائد (رجل من طيء) (٤٣٠:٣٢) :

راعه من طيء ذو أسهم ... وضراء كنّ يبلين الشّرَعْ

وفي هذا البيت نلاحظ انه جمع بين الكلاب والأسهم من أدوات الصيد . بيمنا كنّا نلاحظ في الصور السابقة أن صائد ثور الوحش ، يستخدم الكلاب الضارية المدرّبة فقط .

وكـذلك في شـعـر الأعـشى ، يظهـر في الصـورة الفـتى البكري (عـوف بن أرقم) من الصيادين (٣٤٥:٩) :

فصبحه عند الشروق غُديّةً ... كلاب الفتى البكري عوف بن أرقما

وفي شـعـر الأسـود بن يعـفـر ، يظهـر في الصـورة (ذريح) ، و(ابن مـيـزن) وهـمـا من الصيادين (٦٤:١٦) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأن قتودي حين لانت وراجعت　　طريقة مرفوع من السير لـين

على وَحَدٍ طاوٍ أقرّت فـــؤاده　　كلابُ ذريعٍ أو كلاب ابن ميزن

وفي شعر لبيد بن ربيعة ، يبدو الصائد ، يستأنس بالقفار (أخو قفرة) ، وتظهر أسماء كلاب الصيد «ركاح وسائل» (٢٣٩:١٩) :

فأصبح وانشق الضباب وهاجه　　أخو قفرة يشلي ركاحا وسائلا

وفي شعر قيس بن الحدادية ، تظهر صورة الصائد الدرب ، معتاد الصيد ، وهو يغري كلابه بالصيد (٢١) :

حتى اذا لاح ضوء الصبح باكره　　مُعاودُ الصيدِ يُشْلي أكلُبا غُبُسا

فيما سبق ، لم تظهر صورة الصائد كاملة ، وانما مرّ بها الشعراء الجاهليون مرورا عابرا ، وانصرف همّهم الى رسم صورة ثور الوحش ، ثم كلاب الصيد . ولكننا نجد في شعر الأعرج المعنيّ ، صورة تكاد تكون أوضح من سابقاتها لصائد ثور الوحش ، حيث يظهر في الصورة اسم (غنم) ، ويبدو على ذراعيه مئزر من صوف أو شعر ، يقود كلابه الضامرة ، بالاضافة الى البعد الانساني الذي التفت اليه الشاعر ، والذي يتمثل في صورة الألم والكآبة التي استحوذت على الصائد الذي فشل في صيده (فظل كئيبا عند أكلبه) . قال الأعرج المعنيّ (٢١) :

كأنها بعدماخَفَّتْ ثميلتهـــا　　من وحش جُبّةَ مَوْشِيٌّ الشوى لَهِقُ

أحسّ غَنْما ولا يوري بطلعته　　على مذارعه من شَمْلةٍ خـــــرقُ

وبعد أن فشلت الكلاب في مهمتها ، أحس (غنم) بالكآبة :

فظلّ غنمٌ كئيبا عند أكلبه　　ولم يَصُدْهُ فتيلا ذلك الطُّلقُ

وفي شعر الأعشى تبدو صورة الصائد أكثر تفصيلا ، فالصائد نحيل كأنه قناة الرمح ، خفيف لحم الفخذين ، خبير بمهاجمة الوحوش في معاقلها ، تتبعه كلاب مسترخية الآذان ، يسوقها هذا الصائد المغوار الأغبر وكأن لونه لون الرماد . قال الأعشى (٢٣٩:٩) :

أطلس طلاّع النّجادِ على الـ　　وحش غَبا مثل القناة أزلّ

في إثره غضف مقلّـــــدةٌ　　يسعى بها مغاور أطْحـــلْ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشبّه الشاعر الصائد بالذئب في خفته ، لا يتحول عن الصيد الذي قدر له أن يهلك على يديه :

كالسِّيد لا يُنمي طريدتَهُ ليس له مما يُحان حِوَلْ

وفي شعر بشر بن أبي خازم ، نجد صورة متعددة الأبعاد للصائد ، فهو صاحب كلاب (مكلّب) ، يشبه الذئب في سرعته وخفته ، لونه يشبه لون الغبار ، وهو (أبو صبية) شعث ، تطيف بشخصه عوابس ، كأنها اليعاسيب في الضمور (٨٤:٤٧) :

وباكره عند الشروق مكلّـــــبٌ أزلّ كسِرْحان القصيمة أغبـرُ

أبو صبية شُعثٍ ، تطيفُ بشخصه كوالح أمثال اليعاسيب ضمّرُ

هذه الظلال الانسانية التي أضفاها الشاعر على صورة الصائد ، تعكس لنا مدى المرارة التي كان يعانيها الصائد ، وخيبة الأمل التي تلازمه في مسعاه من أجل أن يطعم صبيته الجياع ، وأن يعيلهم .

وفي صورة أخرى للنابغة ، يبدو الصائد ماهرا ، كثير اللحم ، يلبس ثيابا خلقة ، يسعى بكلابه الطاوية ، التي براها السفر ، فأضحت هزيلة ضعيفة (٢٣٧:٣٤) :

حتى اذا ما انجلت ظلماء ليلتِـــهِ وأسْفَرَ الصّبحُ عنه أيَّ إسفـــارِ

أهوى له قانص يسعى بكلُبـــــه عاري الأشاجع من قُنّاص أنمارِ

مُحالفُ الصيد تبّاعٌ له لَحِـــــمٌ ما إن عليه ثياب غير أطْمـــــارِ

يسعى بغُضْفٍ براها ، فهي طاويةٌ طول ارتحال بها منه وتَسْيَـــارِ

وفي الجمهرة : (محالف الصيد ، هبّاش) (١٥٣:٦٨) . هبّاش : كثير الهبش أي الكسب.

وفي شعر الأعشى ، يظهر الصائد ، عابس الوجه ، من (جديلة) أو (نبهان) ، أفنى كلابه الضارية كثرة الملاحقة للصيد ، وظل الصائد طول نهاره يبتعد عن (ثور الوحش) ، متواريا بالرمال ، وبصغار الكثبان ، تتبعه كلاب مسترخية الآذان ، قد انتشرت كأنها النحل ، لا همّ لها الا اقتناصه وقد عضّها الجوع (٢٦٣:٩) :

لم ينم ليلة التّمام لكـي يُصـ بحَ حتى أضاءه الاشـــراقُ

ساهم الوجهِ من جديلة أو لحـ ـيان أفنى ضراءه الإطـلاقُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعادى عنه النهار تـــواريـ ـه عِراضُ الرمال والدَّرداقُ

وتلته غضفٌ طـوارد كالنّحـ ـل مغاريثُ همُّهن اللّحاقُ

وفي شعر زهير بن مسعود الضبي ، صورة مقابلة للصورة التي رسمها النابغة للصائد ، فإذا كان الصائد في قصيدة النابغة (محالف صيد) ، فالصائد في شعر زهير «محالف البؤس»، خـلق الـثياب ، ذو وفضة (جعـبة السهام) ، كلابه مثـل القداح ، كـوالح عبس (١٩٥:٤٥) :

فأحسّ من كَثَبٍ أخا قنص خلق الثياب مُحالفُ البؤس

وتتكرر صورة تشبيه الصائد بالذئب ، لسرعته وخفّته . قال لبيد بن ربيعة (١٤٥:١٩) :

حتى أشبّ له ضراءُ مكلّبٍ يسعى بهنّ أقبّ كالسِّرحان

وفي شعر عبدة بن الطبيب ، نجد صورة تفصيلية للصائد ، يظهر الصائد فيها وكأنّه مشوي في الملة (وهي الجمر والحصا والتراب) من صلاء الشمس ، متغيّر اللون للزوم القفر ، له زوجة بذيئة ، جريئة الصدر ، قد شعثت ، يشبه ولدها ولد الحمار لصغره ، يُشلي ضواريه الجائعة ، وهذه الضواري تتبعه ، فهو السّرحان ، ويبدو ماضيا متجردا يعدو أمامهن ، يُغريهنّ بالصيد . قال عبدة بن الطبيب (٨٧:٢٠) :

باكره قانصٌ ، يسعى ، بأكلبِـــــهِ كأنه ، من صِلاءِ الشمس ، مملـولُ

يأوي الى سَلَفع ، شعثاء ، عـــاريـةٍ في حجرها تولبٌ ، كالقرد مهـــزولُ

يُشلي ضواري ، أشباها ، مجوّعـــةً فليس منها ، إذا أُمكنّ ، تهليـــلُ

يتبعن أشعث ، كالسرحانِ ، منصلتـا له عليهن ، قيد الرُّمحِ ، تمهيـــلُ

فضمّهنّ قليلا ، ثـم هـــاج بهـــا سُحَمٌ ، بآذانها شينٌ ، وتنكيـــلُ

نستنتج مما سبق أن «صائد ثور الوحش» لم يحظ بعناية الشعراء الجاهليين كما حظي «ثور الوحش» أو «الكلاب» في حكاية ثور الوحش ، وقد بدا لنا الصائد في قصة الثور الوحشي كلاباً دائما – صائد ذو كلاب – وأن كلابه هي سلاحه الوحيد ، عليها وقف رزقه ورزق عياله وبها استعان ، ولها جمع نفسه وساقها يصرّف شؤونها ويرعاها . ولقد ذكر الشعراء أحيانا اسم هذا الصائد أو اسم قبيلته ، وفي بعض الأحيان كان الشاعر يضمّن صورة الصائد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة لزوجته وأطفاله .

ويبدو «صائد ثور الوحش» يفشل دائما في غايته التي يرمي اليها ، مع أنّه يتخذ كلّ السبل التي تفضي به الى الغاية المرجوّة ، في الحصول على رزقه ورزق عياله . ويمكن أن نستثني من هذه القاعدة بعض أشعار الهذليين ، والتي تتعلق أحيانا بالرثاء ، بينما يتجه بعضها الى التأمل العميق في صيرورة الكائنات الى مصيرها المحتوم وهو الموت .

ففي عينية أبي ذؤيب الهذلي ، وهي قصيدة رثائية ، تنتهي قصّة ثور الوحش بمقتله ، مع أنه قد صمد أمام قدره المحتوم ، ودافع عن كيانه ، الا أنه في النهاية ، سقط تحت وطأة قانون الموت الذي يشمل الأحياء والأشياء . يقول أبو ذؤيب الهذلي (٢٢) :

والدهر لا يبقى على حدثانه شَبَبٌ أفزّته الكلاب مروّعُ

وتدور المعركة بين الثور والكلاب ، ويتدخل فيها الصائد بشكل مباشر ، ويرمي «الثور الوحشي» ، فيسقط صريعا :

فدنا له ربّ الكلاب بكفّهِ بيضٌ رهابٌ ريشهنّ مقزّعُ

فرمى لينقذ فرّها فهوى له سهمٌ فأنفذ طُرّتيه المنزعُ

فكبا كما يكبو فنيق تارزٌ بالخبت الا أنه هو أبرعُ

قد يبدو في ظاهر الصورة ، أن الصائد هو الذي خرج منتصرا في النهاية ، بخلاف ما قد شاع في الشعر الجاهلي ، ولكن يبدو لي أن الذي انتصر في النهاية ليس هو الكلاب ، ولا الصائد ، وانما هو قانون الفناء الذي يشملها جميعا .

وتتكرر نفس الصورة في شعر مالك بن خالد الخُناعي ، قال مالك الخناعي (٢٣) :

يا ميّ لن يعجز الأيام ذو خَدَمٍ بِمشْمخِرٍّ به الظّيّانُ والآسُ

ثم ينتقل الى وصف الصائد :

حتى أُشبّ له دامٍ بمحدلةٍ نو مرّةٍ بدوار الصيد وجّاسُ

يدني الحشيف عليها كي يواريها ونفسه وهو للأطمار لبّاسُ

فقامَ في سِيتيها فانتحى فَرَمى وسهمُهُ لِبَنَاتِ الجوْفِ مسّاسُ

وجدير بنا ونحن أمام صورتين لقصّة ثور الوحش ، أن نتساءل : لماذا يفشل الصائد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكـلابه في قـصّة ثور الوحش في الرحلة ، بينمـا يسـقط الثـور صـريعـا فـي قـصـائـد الرثـاء ومجالات التعازي ؟

يبدو أن الشاعر الجاهلي عندما يتحدث عن الرحلة ، فهو يتحدث عن الحياة ، ومـهما كان واقع الحياة قاسيا فانه لا يرغب أن يذهب بها الى حافة الموت . فالشاعر الجاهلي «يغار على الحياة» ويحلم بها خصبة وافرة نقية ، ويرى حقا عليه أن يدافع عنها ويحميها من العدوان ، أن يتخطى غابة الصراع مكافحا جليد القلب، مؤمنا أن هذه هي السبيل الوحيد لتنقية الحياة وإخصابها» (٢٠٥:٧٠) .

وحين يتـحدّث الشـاعر الجـاهلي عن الموت ، لا يملك إلا أن يسلم . مـهما يكن متـفـائلا - بأن الـهـزيمة أمـام الدهر هي الفـصل الخـتـامي الجـزيـــن فـي هـــذه الدرامـــا الانسـانيـة الخالدة» (٢٠٤:٧٠) .

وبالتـالي يأتي مشـهد الصيد في قـصيدة الرثاء للتعزّي والتأسّي ، حيث يذكر الشـاعر فداحة الخطب الذي ألمّ به ، وعظم مصيبته ، ويعلن ضعفه وعجزه على مواجهتها ، ثم ينتقل الى تعزية نفسه وتسليتها بسرد ما أصاب غيرها من مصائب، واشعارها بأنها ليست وحدها التي تتعرض للمصائب والآلام ، فالدهر لا يصمد أمام أحد حتى لو كان ثورا من ثيران الوحش مستعصيا بالقفار ، فإنه لا بدّ أن يخرج مهزوما أمام قانون الموت (٧٠:٧٢) .

وقـبل أن أخـتم الحـديث عن صـورة صـائد ثور الوحش ، فـقـد ورد في شـعـر أبي ذؤيب الهذلي ، صورة مميزة لصائد ثور الوحش بخلاف الصورة التي رسمها الشعراء الجاهليون ، وهذه الصـورة قـد وردت مـرتبطة بالتـأمل العـميق فـي الموت ، وتقلّب الدهر ، وانه لا يصمـد أمـام قـانون الفناء كـائن حيّ . فـقـد صـوّر أبو ذؤيب الـهـذلي الصـائد كـأنه «في حـواشي ثوبه صُرد» ، والصرد : طائر يمتاز بالخفة واللطافة .قال أبو ذؤيب الهذلي (٢٢) :

حتى استبانت مع الإصباح راميَها كأنّ في حواشي ثوبه صُرَدُ

ويعـود هذا الافـتـراق الى «أنّ أبا ذؤيب صـوّر الصـائد الفـائز ، وصـوّر غـيـره من شـعـراء الجاهلية الصائد الخائب ، فالصائد في بعض شـعر أبي ذؤيب قد عاد بفريسته ، والصائد عند غيره خابت كلابه في قتل ثور الوحش» (١١٠:٢٣) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٢)

صائد حمار الوحش

يبدو الحديث عن «صائد حمار الوحش» ، مرتبطا بقصّة «حمار الوحش» ، هذه القصة ترتبط بوصف الناقة أثناء الرحلة . فإذا ما أراد الشاعر أن يصف ناقته من حيث سرعتها ونشاطهاوقوتها ، قام بتشبيهها بحمار الوحش ، ثمّ يغيب «المشبّه» ، وينتقل الى سرد قصة حمار الوحش ، تلك القصّة التي تتشابه عناصرها في الشعر الجاهلي ، «وتبدأ في الغالب بمنظر الحمار يرعى منفردا ، أو معه أتانه ، وتحوطه حلائله النحاص ، ويكون فيهنّ الآمر الناهي ، يتسرّى بما يشاء ، وبعضٌ أخرى ، ويضع رأسه الشتيم على كفل ثالثة . ثم يأتي فصل الصيف، فيشتدّ به الظمأ ويشتدّ بها ، ويصبح واجبا عليه أن يبحث لهنّ عن منهل ينقطن فيه علّتهن ، فيستاقهن . وهو الخبير الى ماء حتى إذا ما بلغه بهنّ تقدّم صوبه بحذر مخافة القنّاص ، وأخذ يكرع منه ويتوسط عرضه كيما تراه أتنه فتقدم لترتوي . وقد يدخل الشعر في القصّة عنصر المفاجأة ، فيضع صائدا في قترته يتربّص بها ويمنّي نفسه بصيد ثمين يسرّبه عرسه وأولاده ويدخل في قلوبهم البهجة وينشر على وجوههم الحبور» (٨٢:١٠) .

وينتظر الصيّاد الحمر حتى تنصرف الى عبّ الماء فتشغل بالشرب عن كل شيء حتى الحذر ، وتبدو منها المقاتل فيتخيّر سهما من كنانته ثم يقذف به بعض الحمر ، والنتيجة في قصائد الرحلة هي هي ، لا تتغيّر : يخطئ السهم الحيوان ويمرّ قريبا منه فتجفل الحمر وتلوذ بالفرار .

أما الصائد ، فيعض ابهامه ندما وحسرة ويلهف أمه ثم يحمل سوء طالعه الى زوجته وأولاده ، وقد طال بهم الصبر» (١٢٨:٧٠) .

ولا يهمّنا في سياق بحثنا هذه القصة ، وانما أشرنا اليها اشارة سريعة ، قصدنا منها أن نبيّن مدى ارتباط «صورة صائد حمار الوحش» بقصة حمار الوحش ، هذه القصة التي ترتبط بدورها بالناقة ، وتشبيه الناقة بحمار الوحش في اثناء الرحلة .

ففي شعر امرئ القيس ، تظهر صورة حمار الوحش ، فهو أخرق ، عنيف ، يخرق هذه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأتن ويعنف بها عند تجميعه لها ، وجعل الأتن كالضرار من النساء ، لأنّ الحمار يملك أمرهنّ ويضربهنّ على ارادته كما يفعل الرجل بأزواجه ، ثم أوردها ماء لا أنيس به ، حذرا من عمرو صاحب «القترات» (جمع قترة ، وهو مكان الصائد الذي يختفي فيه ليختل منه الصيد ويرميه) . قال امرؤ القيس (٨١:٢٠) :

عنيفٍ بتجميع الضرائر فاحشٍ ... شتيمٍ كذلق الزّجّ ذي ذمـراتِ

ويأكلنَ بهمى جعدة حبشيّـةٍ ... ويشربن برد الماء في السُّبراتِ

فأوردها ماءً قليـلا أنيسُـهُ ... يحاذرن عمرا صاحب القتراتِ

وفي شعر زهير ، يظهر الصائد ، وهو مقيم مترقب على مور الماء ، معه قوسة المنقادة المطواع ، بالاضافة الى سهمه المقوّم التي براها ، وعندما رمى الصائد السهم ، أخطأ حمار الوحش . قال زهير بن أبي سلمى (٢٠٩:٢٩) :

فأعتامه ، عند الظلام ، فسامـه ... ثم انتهى ، حذر المنيّة ، يرقـبُ

وعلى الشريعة رابيءٌ ، متحلّـس ... رام بعينيه الحظيرة ، شيـزبُ

معه متابعةٌ ، اذا هو شدّهـا ... بالشّرْع يستشزي له ، وتحـدُّبُ

ومثقّف ، مما برى ، متمالـكٌ ... بالسير ، نو أطر عليه ، ومنكبُ

فرمى ، فأخطأه ، وجال كأنّـه ... ألمٌ ، على برز الأماعز ، يلحـبُ

وفي صورة أخرى للصائد ، يظهر الصائد (عبيد) وهو يرقب ويرصد كالسبع ، أتان حمار الوحش ، التي وردت الماء لخمس ، بعد أن تمّ ظمؤها ، فمدّ الصائد يديه من قريب لسهمه ، فرمى السهم ، ولكنه أخطأ الرمي ، وبات الصائد ، قليل النوم، يتلهف من خيبة المسعى . قال عبدالله بن ثور العامري (١٥٦:٢٨) :

كحقباء من عون السّراة رجيلـةٍ ... مراتعها جنبـا قنـانٍ فمنكـفِ

تخاف عبيدا لا يزال مُلبّـدا ... رصيدا بذات الجرف والعين تطرفُ

وجاءت لخمسٍ بعد ما تمّ ظمؤها ... وجانبها مما يلي المـاء أجنَـفُ

فمدّ يديه من قريـب وصـدره ... بمعبلةٍ مما يريـش ويرصـفُ

فأعجله رجع اليمين انصرافُهـا ... وأخطأها حتفٌ هنـالك مُزْعِـفُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فباتت بملتدّ تعشّى خليسةً ... وبات قليلا نومُهُ يتلهّفُ

ويظهر في صورة أخرى حمار الوحش وأتانه ، وقد خافا «عُميرة» ، و«ابن البليدة» – من صيادي حمر الوحش – أن يصادف وردها ، فجاز حمار الوحش بأتانه . قال زهير بن أبي سلمى (٢٣١:٢٩) :

خافا عُميرة ، أن يصادف وردها ... وابن البليدةِ قاعدٌ ، بالمرصدِ

فأجازها ، تنفي سنابكُهُ الحصى ... متحلّب الوشلين ، قاربَ ضَرْغَدِ

وفي صورة أكثر وضوحا ، تبدو صورة الصائد وهو في ناموسه (بيته الذي أعدّه للصيد)، ويُلقي الشاعر الضوء على حالته ، فيظهر شديد الفقر ، ويبدو أنه يجمع بين مهنتين من أجل الكسب والعيش ، فهو يصيد ويصنع الأوتار ، وقد أحسن صنعها ، وعندما دنت منه الحمر الوحشية ، رمى ، فأخطأها ، ولهّف أمه ندما وحزنا على خيبته . وهذه الصورة للمخبّل السعدي (١٠٧:٤٣) :

والأزرق العجلي في ناموسه ... باري القداح وصانع الأوتارِ

من عيشةِ القَتَراتِ أحسنَ صنْعها ... بحصايد القَصْباء والخبّارِ

فدنت له حتى اذا ما أمكنت ... أرساغُهُ من معظم التيّارِ

وأحسّ حسّهما فيسّر قبضةً ... صفراء راشَ نضيُّها بظهارِ

فرمى فأخطأها ولهّف أمّه ... ولكل ما وقّى المنيّة صاري

ومن أسماء صيادي حمر الوحش ، «أبو بشر» ، و«جبّار بن حمزة» ، وقد وردا في قصيدة امرئ القيس بن جبلة السكوني (٢١) :

فلاقى أبا بشر على الماء راصدا ... به من زَمَاع الصيد ورد وأفكلُ

وفي قوله :

ولاقين جبّار بن حمزة بعدما ... أطاب بشكّ أيُّ أمريه أفعلُ

وفي شعر الأعشى ، وبعد أن يصف ناقته في الرحلة ، يشبهها بحمار الوحش، (كعادة الشعراء الجاهليين) ، ثم يقوم بسرد قصة حمار الوحش ، الذي رعى النبات الكثيف حيث يجتمع الماء في الوديان ، ثم رعى النبات المتخلف عن مطر الربيع ، حتى اذا اكتنز جسمه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتضخم استهوته جحشة وديعة ضامرة قد لصق عضدها بجنبها ، فيتبعها ، كلما خالفت عن أمره أهوى عليها عضا ، حتى اذا ارتفعت الشمس والتهب الحصى ، فتذكر أدنى مورد يستطيع الوارد أن يقصده ، فدفعها أمامه الى عين غزيرة من الماء ، من حولها أوكار يكمن فيها الصائد ، قد أعدّها وبناها صائد من «ذلاّن» ، خبير بصيد الوحوش واقتناصها ، وتظهر صورة الصائد فرحا حين رأى الحمار وأتانه ، وقد كمن في وكر كأنه الذئب . ويبدو أن الشعراء قد أكثروا من تشبيه الصائد بالذئب «لجامع الهزال في الاثنين ، وإدامتهما سكنى القفار ، ركضا وراء الصيد ، وتأرجح حظّهما بين الخيبة والنجاح» (١٣٧:٧٣) .

وعندما رأى الصائد حمار الوحش وأتانه قال : ما أطيب الصيد ، وهيّأ سهما محددا ، يسوقه وتر قوي ، فيمضي مصوّتا مترنّما ، فرمى به ، فمر تحت صدر الحمار ، فانثنى على جنبه ، ومضى من غير ابطاء ، وفشل الصائد في تحقيق غايته . قال الأعشى (١٧١:٩) :

فأوردها عينا من السّيف ريّةً ... بها بُرءٌ مثلُ الفسيل المكمّمِ

بناهن من ذلاّن رام أعدّها ... لقتل الهوادي داجنٌ بالتّوقُّمِ

فلما عفاها ظنّ أن ليس شاربا ... من الماء الا بعد طول تحرُّمِ

وصادف مثل الذئب في جوف قُتْرةٍ ... فلما رآها قال يا خيرَ مَطْعَمِ

ويسّر سهما ذا غِرار يسوقُهُ ... أمينُ القُوى في صلْبهِ المترنّمِ

فمرّ نضيُّ السّهمِ تحت لِبانه ... وجال على وحشيّهِ لم يثمثّمِ

وفي شعر الشمّاخ نجد صورة متكاملة «لصائد حمار الوحش» ، فالصائد من بني عامر، ويظهر في الصورة دنس الثياب ، "أبو خمسٍ صغار يحطن به" ، لم يترك لهن زادا في البيت ، ليس معه سوى قوسه وأسهمه ، ويبدو أنّه لا يمتلك غيرها في هذه الحياة ، وعندما دخلت الحمر الوحشية في الماء ، سدّد سهمه ، ولكنه فشل في صيده ، «فلهّف أمّه» وعض على أنامله الخائبات أسفا وحزنا . قال الشمّاخ (٧٠:٣٣) :

فوافقهن أطلسٌ عامريٌّ ... بطيّ صفائح متساندات

أبو خمسٍ يطفن به صغار ... غدا منهنّ ليس بذي تباتِ

مخفًّا غير أسهمه وقوس ... تلوحُ بها دماء الهاديات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسدّد اذْ شرعن لهن سَهْما يؤمّ به مقاتل باديـــــاتِ

فلهّف أمّهُ لمّـــا تولـــــت وعضّ على أناملَ خائبـاتِ

وفي رواية أخرى «لطا بصفائح» ، أراد لطأ : يعني الصياد ، أي لزق بالأرض فترك الهمز . يريد : استخفى لها هذا الصياد العامري فلصق بصخور رقيقة عريضة يستند بعضها الى بعض (٧٠:٣٣) .

وهذا الالتفات الى الأثر النفسي الذي خلّفه الفشل في الصيد في نفس الصائد ، يظهر بصورة واضحة في «صورة صائد حمار الوحش» ، بينما لم يظهر في «صورة صائد ثور الوحش» .

وتظهر صورة الفقر الذي كان يعيشه الصائد في صورة أخرى للشمّاخ ، فالصائد لا يملك غير قوس وأسهم .

قال الشماخ (١٨٣:٣٣) :

قليل التّلاد غير قوسٍ وأسهمٍ كأنّ الذي يرمي من الوحش تارزُ

وتتكرّر صورة الفقر الذي يعيشه «صائد حمار الوحش» في شعر ربيعة بن مقروم ، حيث يظهر الصائد لا يملك شيئاً سوى قوسه وأسهمه ، وهو إذا لم ينجح في صيده ، جاع أطفاله . ويظهر في الصورة الدهاء الذي امتاز به الصائد . قال ربيعة بن مقروم (١٨٩:١٥) :

فصبّح من بني جلاّن صلاّ عطيفته وأسهمـــه المتـــــاعُ

إذا لم يَجْتَزر لبنيهِ لحمـــاً غريضاً من هوادي الوحش جاعوا

وفي قول تميم بن أبيّ بن مقبل (١٦٣:١٤) :

ولمّا ينذرا بضبوء طِمْلٍ أخي قنصٍ برزّهِمَا سميعُ

يريد : الفقير السيء الحال الأغبر ،

وكذلك في قول عمرو بن قميئة (١٤٨:٤٩) :

فأوردها على طِمْلٍ يمـــان يهلّ اذا رأي لحماً طريّـــا

له شريانةٌ شغلـت يديـــه وكان على تقلّدها قويّـــا

وزرق قد تنخّلها لِقَضْـــبٍ يشدّ على مناصبها النضيّا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تردّى بُرْأة لمّـــا بناهـــا ... تبوّأ مقعدا منها خفيّـــا

فلمّا لم يرين كثيـر ذعـــر ... وردن صواديا ورداً كميّـا

فأرسل ، والمقاتل معـــوراتٌ ... لما لاقت ذعافاً يثربيّـــا

فخرّ النّصل منقعضاً رثيمـاً ... وطار القدح أشتاتاً شظيّا

وعضّ على أنامله لهيـفـــاً ... ولاقى يومه أسفاً وغيّـــا

وراح بحرّة لهفاً مصابـــاً ... ينبّئ عرسه أمراً جليّـــا

فلو لطمت هناك بذات خمس ... لكان عندها حِتْنَينِ سيّـــا

وكانوا واثقين إذا أتاهـــم ... بلحم إن صباحاً أو مسيّـا

تظهر في هذه القصيدة صورة الصائد ، فقيراً ، سيئ الحال ، قبيح الهيئة ، أغبر ، له قوس جيدة ، صنعت من الشريان ، وهو شجر تصنع منه القسيّ ، والأسنّة تخيّرها بعناية ، دخل في برأته التي بناها خصيصاً للصيد ، وتبوّأ منها مقعداً خفيّاً ، وبعد هذا الوصف الدقيق لصورة الصائد ، ينتقل الى مشهد الصيد ، حيث رمى الصائد سهمه فأصاب حمار الوحش ، ولكنّ السهم انكسر ، ولم يقتل حمار الوحش ، فعضّ الصائد على أنامله من الندم ومن اللهفة ، حيث زوجته وأطفاله ينتظرون أن يعود لهم بلحم في الصباح أو في المساء .

ونجد في شعر أوس بن حجر صورة شبيهة لهذه الصورة ، يظهر فيها الصائد من «صباح» ، وقد بنى ناموسه من الصفيح ، عطشان وغائر العينين ، وقد شقّق لحمه القيظ ، مشغولاً عن التزيّن (أزبّ) شثن البنان (خشن غليظ) ، قصيراً ، مهزولاً وجائعاً ، لا يبيت مع أهله إنما يبيت مع الوحش .

قال أوس بن حجر (٧٠:٤١) :

فلاقى عليها من صباح مدمّـراً ... لناموسه من الصّفيـح سقائـــفُ

صدٍ غائر العينين شقّق لحمـه ... سمائم قيظ فهو أسـود شاسـفُ

أزبّ ظهور الساعدين عظامـه ... على قدر شثن البنـان جُنّـادِفُ

أخو قترات قـد تيقّن أنّـه ... إذا لم يصب لحماً من الوحش خاسفُ

معاود قتل الهاديات شـواؤه ... من اللحم قُصْرى بادِنٍ وطفاطـفُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصيّ مبيت الليل للصيد مطعمٌ لأسهمــه غـارٍ ويـارٍ وراصـــــفُ

وينتقل أوس بعد ذلك الى مشهد الصيد ، فرمى الصائد سهماً ولكنه لم يصب مقتلاً من حمار الوحش ، فعضّ بإبهام اليمين ندامة وأسفاً :

فعضّ بإبهام اليمين ندامةً ولهّفَ سرّاً أمّه وهو لاهفُ

لقد رسم أوس بن حجر مشهداً زاخراً بالتفاصيل ، وصوّر الحركة تصويراً دقيقاً واعتنى باللون والصوت ، وتمهّل يحدّد النظر ، يجتهد في ذلك ويشقى ويعبر عليه حتى يهيأ له هذا المشهد الواسع الممتد ، وقد شخصت أعلامه جميعاً ولا سيما الصيّاد الذي وصل فيه القول بالقول – واضحة الملامح بيّنة القسمات ، وهذا التنسيق البديع بين هذه الصور فليس يجور ظلّ واحدة على الأخرى ، ومن حق أوس علينا أن نقول : إنه رفع هذا البناء الفني المتّسق بخبرة الصانع الماهر وموهبة الفنان الأصيل (١٤٥:٧٠) .

نستنتج مما سبق ، أنّ شخصية «الصائد» لا تفرض حضورها باستمرار ، فقد تغيب غيبة توشك أن تكون كاملة كما هو الحال عند امرئ القيس ، ويختلف الأمر عند عمرو بن قميئة وأوس بن حجر وزهير والأعشى والشماخ ، بل إننا نجد تفاوتاً واضحاً بين هؤلاء الشعراء أنفسهم ، فقد تفوّق كلّ من عمرو بن قميئة وأوس بن حجر عليهم تفوقاً واضحاً ، حيث أنهما جعلا من «قصة الصائد» ، «حكايةً» صغيرة يصحّ –الى مدى بعيد– أن نستقلّ بها عن القصة الأمّ ، بحيث تصبح شخصية «الصائد» شخصية رئيسية (١٤٣:٧٠) .

وفي «قصة حمار الوحش» ، وتمكن «حمار الوحش» من الفرار ، هل يمكن أن نقول : إن الشعر الجاهلي وهو يحدّق في مفارقات الحياة قد رسم لنا «بدقة ووضوح صورة من صور الحياة في أمنها وهناءتها وفي ضيقها واضطرابها ، أو في تقلّبها بين العسر واليسر ، وبين الأمن والخطر ؟

هل الشاعر كان حريصاً أن يرينا عجلة العمر الملونة بألوان الطيف ، وأن يسلّط الضوء على الأسود والأبيض ، ليبيّن لنا أنّ الصراع هو جوهر الحياة وهو الذي يمنح الكائنات زمانها ومكانها ؟

وهذا يعني «أنّ شخصية الصائد في قصة حمار الوحش أهم منها في قصة الثور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوحشي ، وأنّ حظها من عناية الشعراء هنا أعظم من حظها هناك» (١٤٧:٧٠) .

لقد بدت قصة «الصائد» في شعر «عمرو بن قميئة» و «أوس بن حجر» أشدّ سواداً وأبلغ حزناً من قصة حمار الوحش ، فهي تبدأ بداية قلقة وتنتهي نهاية كئيبة دامعة . لقد جمع «الصائد» فقر أولاده وجوعهم الى فقره وجوعه وعطشه ، وضمّ حظهم التعس الى حظه الأسود، ثم حمل ذلك كله الى قترته ، وانتظر الغيب أن يحمل اليه رزقاً . وتجمع الحمر عطشها وجوعها الى تعب الطريق ومخاوفه ، وتحمل ذلك وتصبر عليه في انتظار رزق يسوقها اليه حظها النكد ، ثم تبصر الحمر الماء فتنسى ضيق الشدة . ويبعد الصائد الحمر فينسى مرارة الضيق ويمنّي نفسه الأماني ويتناول قوسه وسهامه ، ويرمي ، ولكنه يفشل في صده ، فلا الحمر تشرب ولا الصائد يظفر بالرزق» وفي المدى الرحب تدوّي قهقهة الحياة الساخرة تردّدها الأودية والشعاب والنجود !!

هل يمكن القول إن الشعر الجاهلي من خلال قصة الصائد حاول أن يرسم لنا رحلة حياة في أهوائها ومسرّاتها ومواجعها ، وفي كفاحها الخائب الذي تعبث به الأقدار ، بمصيرها الشقي الذي تحكمه المفارقات فتجعل سعادة قوم رهناً بشقاء قوم آخرين !! (٧٠) .

فيما سبق عرضنا لصورة «صائد حمار الوحش» ، وهو الصائد الذي اتخذ الصيد مهنة له ، يتكسّب منها ، وتكون مصدر رزقه ورزق عياله . وفي الوجه المقابل نجد صورة أخرى للصائد ، وهو الصائد من أجل المتعة والرياضة والترفيه .

وتبدو شخصية الصائد هنا ثانوية ، بينما تظهر شخصية «غلام الصيد» الذي يتبع سيّده الصائد ، أكثر حضوراً في عملية الصيد . ففي شعر زهير بن أبي سلمى ، يبدو دور السيد ينحصر في توجيه «الغلام» ، قال زهير (٥٣:٢٩) :

وقلت له : سدّد ، وأبصر طريقهُ ... وما هو فيه ، عن وصاتي ، شاغلُهْ

وقلت : تعلّم أنّ للصيد غرّة ... وإلاّ تضيّعها فإنك قاتلُهْ

فتتبّع ، آثار الشياه ، وليدنا ... كشؤبوب غيث ، يحفش الأكْمَ وابلهْ

نظرتُ اليه نظرةً ، فرأيته ... على كل حال ، مرّة ، هو حاملهْ

يثرن الحصى في وجهه ، وهو لاحق ... سراع توالية ، صيابٌ أوائلهْ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فردّ علينا العير ، من دون إلفـــهِ على رُغْمِهِ ، يرمي نساه ، وفائلـهْ
فرحنا به ، ينضو الجياد عشيّـــةً مخضّبةً أرساغـــه ، وعواملـــهْ

في هذه الصورة ، يظهر «الغلام» ، وبدأ سيده يوصيه ، ويأمره بتقويم صدر الفرس ، فلا يذهب منه يمنة ولا يسرة ، ويطلب منه أن لا يمرّ بالفرس على جرف وحجر ، ولكن يبدو أنّ حرص الغلام على الصيد شغله عن وصية سيده .

ويتابع وصيته لغلامه بقوله له : اعلم أنّ الصيد ربما كان مغتراً ، فإن لم تضيّع في وصيتي ، وطلبت غرّته ، فإنك قاتله! فتتبع الغلام آثار الشياه (الحمير). ولقد لحق الفرس بهنّ ، فأثرن الحصى في وجه ، لشدة عودهنّ . وعندما عاد الغلام من الصيد بدا الفرس وقد تحضبت قوائمه من أثر طعن العير .

وفي شعر أبي دواد الإيادي ، يبدو الغلام قانصاً حقيقياً ، وما على السيد المترف إلا أن يصدر أوامره الى الغلام «الحقير» : فالغلام هو الذي يكتشف القنائص ، فيعود لسيده يعدو كما تعدو النعامة (يسعى تفرّش أمّ البيض شدّاً» ، ويخبرهم عما رآه من صيد وعدّ هذه التي رآها ، ثم ولّى بنعجتين وثور وجلسوا يشربون الخمر ويأكلون اللحم (٤١:١٠) .

قال أبو دواد الإيادي (٣١٩:٥١) :

وأخذنا به الصّرار وقلنـــا لحقير بنانـــه إضمـــارُ
أوف فارقب لنا الأوابدَ واربأ وانفض الأرض إنها مِذكارُ
فأتانا يسعـــى تفرّش أمّ البيـــض شدّاً ، وقد تعـــالى النهـــار
غير جُعْفٍ أوابدٍ ونعـــامٍ ونعامٍ خلالهـــا أثـــوارُ
في حوال العقارب العمر فيها حين ينهضنَ بالصباح غُدّارُ
يتكشفنَ عن صرائع ســـتّ قسّمتْ بينهنّ كأسٌ عِقَـــارُ

وفي شعر امرئ القيس ، يبدو الغلام وهو يمتطي الجواد ، ولم يكد الغلام يركبه إلاّ بعد معالجة ، ثم يصف الغلام وكأنه -وقد ركب الفرس- على ظهر باز قد حلّق في السماء يطير طيراناً شديداً . وظلّ الغلام يطعن بالرمح البقر الوحشية والحمر الوحشية ، وعاد اليهم بالصيد الكثير ، وظلّ السيد المترف وأخدانه يشتوون بنعمة وفرح وسعادة . قال امرؤ القيس (١٧٣:٢٠) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقمنا بأشلاء اللّجام ولم نَقُـــد ... الى غصن بان ناضرٍ لم يحـــرّقِ

نزاوله حتى حملنا غلامنـــــا ... على ظهر ساط كالصّليف المعرّقِ

كأن غلامي إذ علا حال متنـــه ... على ظهر بازٍ في السماء محلّـقِ

فقلت له صوّب ولا تجهـــدنّه ... فيدركَ من أعلى القطاة فتزلـــقِ

فصاد لنا ثوراً وعيراً وخاضبـاً ... عِداءً ولم يُنْضَحْ بماء فيعـــرقِ

وظلّ غلامي يضجع الرمح حوله ... لكل مهاة أو لأحقـب سهـــوقِ

وظلّ صحابي يشتوون بنعمـــة ... يصفّون غاراً للكيك الموشّـــقِ

وتتكرر نفس الصورة ، في ملامحها وقسماتها في شعر امرئ القيس أيضا (٢٢:٢٠).

وفي شعر أبي دواد الإيادي (٥١) .

نستطيع أن نرى الفرق واضحاً بين صورة الصائد من أجل الكسب وبين صورة الصائد من أجل المتعة ، فالأول يحترف الصيد من أجل رزقه ورزق عياله ، بينما يتخذ الثاني الصيد للرياضة والمتعة ، ويخيب الأول في صيده ، مع شدّة حاجته للصيد ، بينما يتمكّن الثاني من صيده ، مع أنه ليس بحاجة اليه وتلك من مفارقات الحياة الغريبة !

وهناك جانب آخر من جوانب الصيد ، وهو صيد السمك ، ولكن يبدو لي أنّ الشعر الجاهلي يخلو من صور صيد السمك . وقد ورد ذكر السمك في الشعر الجاهلي ، قال تميم بن أبيّ بن مقبل (١٠٩:١٤) :

ألم تر أنّ البحر يضحل ماؤُهُ ... فتأتي على حيتانه نوْبةُ الدهرِ

ونجد ذلك في قول المعطّل الهذلي (٢٢) :

فلو رجلاً خادعته لخدعتُهُ ... ولكنّما حوتاً بدَحْنَا أُقامسُ

وفي قول أوس بن حجر (٨١:٤١) :

أو سركّم إذ لحقنا غير فخركم ... بأنكم بين ظهري دجلة السّمكُ

وفي شعر عبيد بن الأبرص ، نجد صورة أكثر وضوحاً للسمك ، تكاد تقترب من صورة صيد السمك . قال عبيد (٧٧:٥٢) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لساني بالنّثير وبالقوافي ... وبالأسجاع أمهر في الغياصِ

من الحوت الذي في لجّ بحـر ... يجيد السّبح في لجج المغاصِ

إذا ما باص لاح بصفحتيـــه ... وبيضٌ في المكرّ وفي المحاصِ

تلاوص في المِدَاصِ ملاوصاتٍ ... له ملصى نواجنُ بالمـــلاصِ

نباتُ الماء ليس لها حيـــــاةٌ ... إذا أخرجتهنّ من المـــداصِ

إذا قبضت عليه الكفُّ حينـــاً ... تناعَصَ تحتها أيّ انتعـــاصِ

وباصَ ولاصَ مِنْ ملْصَى مَلاصٍ ... وحوتُ البحر أسودُ نو مِلاصِ

* * *

(٣)
الغائص والبحّار

إنّ الذي ينظر نظرة خاطفة الى جزيرة العرب ، يجد أنّها محاطة بالبحار من جهاتها الثلاث : الشرق والجنوب والغرب ؛ لذا سمّاها أهلها جزيرة لأنّ . الماء يدور بها من ثلاث جهات (١٧:٣)

ونجد على بحر العرب والخليج العربي (الفارسي) مرتفعات تتدرّج في انحدارها ، وتطول الشقة بين القمة والسفح ، فتصلح للملاحة ، وتجد السفن ، مراسي صالحة لرسوّها . وهذه السواحل قد خلقت من سكّانها رجال بحر ، يحبّون ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق ، كما جعلتهم أصحاب ضيافة ، يقدّمون الماء وما عندهم من طعام الى السفن القادمة اليهم ، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم» (٦) .

وبالتالي فقد عرف الجاهليون البحر ، وشاع الحديث عنه في شعرهم ، وذكروا السفن والملاّحين وما يتعتريهم في رحلاتهم البحرية ، واستمدّوا من البحر الكثير من صورهم ومعانيهم، ولا مجال للشك في هذا الشعر ، بدعوى أنّ العرب لم يكونوا على صلة بالبحر ، ولم يكن لهم معرفة به ، وأنهم اذا ذكروا البحـــر ، ذكروه بما يدلّ على جهلهم بـه لا أكثـر ولا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقلّ (٧٤).

فهذا الزعم -إذا افترضنا صحته بالنسبة الى القاطنين في قلب الصحراء ، فإنه «لا يصحّ بالنسبة الى الدانين من البحر الأحمر أو بحر العرب أو الخليج العربي ، ولا يصحّ بالنسبة الى من كانوا بعيدين عن البحر ، لكنهم من أصحاب الرحلة والأسفار» (٥٢:٧٥).

إنّ الذي يتتبّع الشعر الجاهلي ، يجد عرضاً واسعاً ومتنوعاً للبحر ، يحتلّ مساحة مهمة من الشعر الجاهلي ، ولكن من املاحظ «أنّ تصويرهم للبحر ، واستمدادهم منه لا يعدلان في كثرتهما تصويرهم للصحراء ، وعنايتهم بوصف كل صغيرة وكبيرة ، وكلّ جامدة ومتحركة من مظاهر الحياة فيها ، واستيحاءهم أكثر معانيهم وصورهم وموضوعاتهم منها ، لأنّ معظمهم كانوا يعيشون في الصحراء أو في البادية ، ولأنّ الصحراء كانت تشكل القسم الأكبر من البيئة الجاهلية» (١٢:٧٦).

وقد شاع في الشعر الجاهلي تشبيه الظّعن المرتحلة في الصحراء بالسفن التي تعوم في البحر ، قال بشر بن أبي خازم (٣٥:٤٧) :

فكأنّ ظُعْنَهم غداة تحمّلوا سفن تُلَفّأ في خَليجٍ مُغْرب

حيث شبّه الشاعر الظعائن المرتحلة بالسفن المتمايلة في الخليج المملوء بالماء.

وقال عبيد بن الأبرص (١٣٢:٥٢) :

تبيّن صاحبي أترى حمولاً يشبّه سَيْرها عَوْمَ السّفينِ

فقد شبّه الشاعر هنا الإبل عليها الهوادج بالسّفين في هدوء سيرها ولينه .

ونجد الصورة تتكرر في شعر أبي دواد الإيادي (٣٣٧:٥١) :

هل ترى من ظعائنٍ باكرات كالعَدَوليِّ سيْرُهنّ انقحام

قال البكري «عدولي : قرية بالبحرين . والعدوليّ من السفن : منسوب اليها» (١٧).

وفي شعر المثقّب العبدي (١٤٨:٧٧) :

وهنّ كذاك حين قطَعْنَ فلجاً كأنّ حدوجَهُنّ على سَفين

وفي شعر تميم بن أبيّ بن مقبل ، نجده يشبه الخيل العاديات ، ضامرة البطون ، دقيقة الحضور بالصاري (١١٩:١٤) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعاديات البرد كل عشيّةٍ قبّ البطون كأنّهنّ صَوارِي

ويرتبط بوصف البحر ، تشبيه بعض الشعراء الجاهليين ممدوحيهم في كثرة العطاء بالبحر الذي تجيش أمواجه لعظمه ، فتتقاذف السفين فيه . قال زهير بن أبي سلمى (١٥٨:٢٩) :

متى تأتِهِ تأتي لجَّ بحْرٍ تقاذَفُ ، في غواربِهِ السَّفينُ

وفي شعر المثقّب العبدي ، نجد صورة أكثر تفصيلاً ، حيث يصوّر السفينة وهي تشقّ بصدرها الماء ، وتعلو الأمواج الواسعة البعيدة ، وذلك في موضع تشبيه ناقته بها (١٨٨:٧٧) :

كأن الكور والأنساعَ منها على قَرْواءَ ماهرةٍ دهينِ

يشقُّ الماء جؤجؤها ، وتعلو غوارِبَ كلِّ ذي حَدَبٍ بَطِينِ

وليس الغرض من هذا البحث – عرض صورة البحر في الشعر الجاهلي ، لأنّ ذلك ينأى بنا عن الهدف الأساسي وهو بيان صورة الغائص والبحّار كما رسمها الشعراء الجاهليون ، ولكن هذه الاشارة تلقي الضوء على هذا الجانب المهم من شعر الجاهليين .

ونجد في الجاهلي صورة البحّار ، ويظهر في شعر سلامة بن جندل ماهراً في السباحة، وذلك في تصويره للبحر . قال سلامة بن جندل (١٧٩:١٢) :

يقمّصُ بالبوصيّ فيه غواربٌ متى ما يخُضْها ماهرُ اللّجِّ يغرق

وفي قول بشامة بن عمرو (٥٨:١٥) :

كأنَّ يديها إذا أرملت وقد جُرْنَ ثم اهتدين السُّبيلا

يدا عائم خرَّ في غمرةٍ قد ادركه الموت إلاّ قليـــلا

حيث شبّه يدي ناقته في وقت كلال غيرها من الابل ولزومهنّ المحجّة بيدي سابح كاد يغرق ، فهو أشدّ لتحريكه يديه مخافة على نفسه من الغرق .

وقد ورد في الشعر الجاهلي ألفاظ عديدة للملاّح ، وحرفته الملاحة وهو الذي يشتغل في السفن منها : (البوصيّ) ، و(الصراريّ) ، و(النّوتي) ، و(أردم) ، و(العركيّ) .

وكان العرب على معرفة بعلم الملاحة ، بحكم جغرافيتهم التي كانت محاطة بالماء من ثلاث جهات ، وبحكم العلاقات التجارية مع الهند والحبشة والروم . قال الألوسي «اعلم أنّ من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القُلْزم ، ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القلزم ، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند الى جهة الشمال الى بلاد البحرين ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، وكان سكنة هذه الأقطار والبلاد كلهم من العرب ، ولهم متاجر في الهند والحبشة والروم وغيرهم ، فكانوا ممن تمس حوائجهم الى ركوب البحر ، ومعاناة سيره ، والقيام بما يعين على ذلك وهو (علم الملاحة)» (٤) .

وقد صوّر الشعر الجاهلي الملاّحين ، من ذلك قول الأعشى يهجو علقمة بن علاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما (١٩١:٩) :

مثل الفراتيّ اذا ما طما يقذف بالبوصيّ والماهر

حيث يشبّه ممدوحه بالبحر اذا جاش بالماء فإنّه يقذف بالملاح الماهر السابح .

وفي شعر زهير ، نجد صورة الملاحين (النّواتي) ، وهم يغشون غمار الماء بسفنهم . وفيها يشبّه زهير قطع الظعائن أواسط الصحراء باجتياز الملاح معظم الماء . قال زهير بن أبي سلمى (٢٨٠:٢٩) :

يقطعن أميال أجواز الفلاة كما يغشى النواتي غمار اللّجّ بالسُّفن

ويصف المثقّب العبدي ناقته ، ويصوّرها وهي تسير في الصحراء ، ويشبّه نفسه بالملاح الذي يعدل مرّة ويميل أخرى . قال المثقّب العبدي (٤١٤:٣٢) :

كأنّي وأقتادي على حَمْشةِ الشّوى يجور صراريٌّ بها ويقيمها

أمّا زهير ، فيصف النوق النجائب ، وهنّ جادّات في السير ، وقد رمى بعضها بعضاً فلاة واسعة لا ماء فيها ، فيشبهها بالسفن العظيمة (القوادس) التي ذهب بها وقادها الأردمون (الملاحون) في بحر متلاطم الأمواج . قال زهير بن أبي سلمى (٢٢٥:٢٩) :

معصوصبات ، يبادرن النّجاء ، بنا إذا ترامت بها الدّيمومة ، الجَدَدُ

عوم القوادَسِ ، قفّى الأردمون ، بها إذا ترامَى بها المغلوبُ الزَّبَـدُ

وفي شعر طرفة بن العبد ، نلاحظ صورة الملاح وهو يعدل بالسفينة مرّة ويميل (يجور بها الملاح طوراً ويهتدي) ، أما السفينة فهي «عدو ليّة» (قرية بالبحرين) ، وقد كانت مشهورة بالملاحة في العصر الجاهلي . قال طرفة (٧:١٣) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنّ حدوج المالكيّة غدوة خلايا سفين بالنّواصف من دد

عدوليّة أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

ونلاحظ أنّ هذه الصورة قد ارتبطت بالظعائن .

ويتكرر اسم (عدولي) في شعر عمرو بن قميئة (٦٠:٤٩) :

هل ترى غيرها تجيزُ سِراعاً كالعَدوليِّ رائحاً من أوال

قال ابن الأنباري أبو بكر في شرح المعلّقات :

«قال أحمد بن عبيد : العدولية منسوبة الى جزيرة من جزائر البحر يقال لها عدولي في أسفل من أوال ، وأوال أسفل من عُمان . وقال غيره : العدولية منسوبة الى قوم كانوا ينزلون بهجر ليسوا من ربيعة ولا من مضر ولا من اليمن. وابن يامن : ملاح من أهل هجر أيضا» (١٣٧:٤٢)

وفي صورة أخرى للنابغة الذبياني ، تظهر صورة الملاح وقد بلغ من خوفه أن يتمسّك بسكان السفينة من عظم ارتجاج أمواج البحر وهيجانه . قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر (٢٢:٣٤)

فما الفرات إذا جاشت غواربُهُ ترمي أواذيُّهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ

يمدُّهُ كلُّ وادٍ متـرعٍ لَجِبٍ فيه حطامٌ من الينبوتِ والخَضَدِ

يظلُّ من خوفِهِ الملاح معتصماً بالخيزُرانةِ بعد الأينِ والنّجد

يوماً بأجوَدَ منه سَيْبَ نافلةٍ ولا يحول عَطاءُ اليوْمِ دونَ غدِ

وفي قول زهير بن أبي سلمى (٥٤٩:٣٢) :

يغشى الحداةُ بهم وعث الكثيبِ كما يغشي السفائن موج اللّجّة العَرِكُ

حيث شبّه حمل الحداة الإبل على صعب الرمل كما يقتحم الملاحون لجّة البحر.

وفي صورة للأعشى ، يصوّر الفرات وقد ازبد وتلاطمت أمواجه ، حتى يكاد صدرها يتحطم ، وترى في الصورة الملاّح وهو يتمايل وسطها ، وقد لجأ الى مؤخرة السفينة .

قال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب (٨٧:٩) :

وما مزبدٍ من خليج الفرا ت جون غواربهُ تلتطم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكبّ الخليَّة ذات القــلا ع قد كاد جؤجؤها ينحطم

تكأكأ ملأْحها وسطهـــا من الخوف كوثَلها يلْتــزِم

بأجود منــه بماعونـــه إذا ما سماؤُهم لم تغـــم

نلاحظ أنّ النابغة والأعشى قد أفاضا في وصف النهر ، ودقّقا في إظهار امتلائه بالماء ، وأثر اضطرابه على السفن والملاحين ، لكي يظهروا أريحية ممدوحيهم . وقد ظهرت صورة الملاح واضحة الى حد ما عند هذين الشاعرين ، وقد استطاعا أن يتخففا من صعوبة الأسلوب، وغرابة التراكيب التي تناوب عليها الشعراء ورسخوها بموسيقاه التي تروع السامع بخفتها ورشاقتها (٤١:٧٦) .

* * *

أمّا صورة **الغائص** فتظهر في الشعر الجاهلي أكثر وضوحاً من صورة الملاح ، بل إننا نملك صوراً تفصيلية من الشعر الجاهلي لكيفية استخراج اللؤلؤ من البحر -فيما سنتبيّنه من خلال هذا العرض . ولا نبالغ إذا قلنا إنّ «أهمّ موضوع سبقوا إليه ، وجددوا فيه هو وصف استخراج اللؤلؤ من البحر» (٤٥:٧٨) .

ويبدو أنّ هذا الوصف لم يقتصر على شعراء القبائل التي كانت تنزل اليمامة مثل قيس بن ثعلبة التي ينتمي اليها الأعشى والمسيّب بن علس ، لأنّ شعراء القبائل النجدية والحجازية قد ساهموا معهما فيه وخاصة امرأ القيس بن حجر الكندي ، والنابغة الذبياني ، وقيس بن الخطيم، والمخبل السعدي التميمي» (١٩:٧٦) .

ولكن هذا لا ينفي تفاوت الشعراء في وصف الغائص واستخراج اللؤلؤ ، فممّا لا شك فيه أنّ الشعراء الذين كانوا يعيشون في بلاد البحرين واليمامة وسواحلها وجزرها جاء وصفهم له طويلاً مفصّلاً ، وكاملاً متلاحماً ، ومحكماً ، لأنهم كان لهم بصر واسع به ، أما شعراء نجد وقفارها ومدن الحجاز وقراها البعيدة عن البحر فجاء وصفهم له موجزاً (٧٨) .

ويظهر أن الشعراء الجاهليين قد اتخذوا جميعاً تشبيه المحبوبة بالدرّة وسيلة الى وصف استخراج اللؤلؤ من البحر (٧٨) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان اللؤلؤ في الخليج العربي موفوراً ، وقد كانت شهرته عظيمة ، وكان المرجان كثيراً في البحر الأحمر ، ويظهر أن التجار كانوا يفدون الى الجزيرة ليقايضوا اللؤلؤ والمرجان بالذهب والفضة والزمرد والياقوت والزبرجد وغيرها ، وما من شك في أنّ بعض الشعراء رأوا الغواصين يغوصون في البحر ؛ ليستخرجوا اللؤلؤ أو المرجان (٥٤:٧٥) .

ويبدو أنّ العرب قد عرفوا الغوص على اللؤلؤ منذ أقدم العصور ، وقد كان سكان الخليج العربي يغوصون في البحر لاستخراج اللؤلؤ ويدلّ على ذلك شعرهم الذي وصفوا فيه الغواصين وكيفية استخراج اللؤلؤ من قاع البحر (٧٩) .

وقد اشتهرت البحرين شهرة واسعة في اللؤلؤ منذ الزمن القديم ، ولقد أشير اليه في سجلات الأشوريين قبل (٢٠٠٠ سنة) من الميلاد بعبارة (عيون الأسماك) الدلونية ، كما اشتهرت تايلوس وهو اسم قديم عرفت به البحرين بكميات اللؤلؤ الهائلة في قاع بحارها» (١:٨٠)

والبحرين بلد مشهور بين البصرة وعمان (١٧) وهي اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان ، قيل هي قصبة هجر ، وقيل هجر قصبة البحرين وقد عدّها قوم من اليمن وجعلها آخرون قصبة برأسها ، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة ، وربما عدّ بعضهم اليمامة من أعمالها والصحيح أن اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين (٨١) .

سبق أن ذكرنا ان الشعراء اتخذوا من تشبيه المحبوبة بالدرّة وسيلة لوصف استخراج اللؤلؤ من البحر . قال سويد بن أبي كاهل اليشكري (١٩٦:١٥) :

كالتوأميّةِ ان باشرتها ... قرّت العين وطاب المضطجعْ

حيث شبّه محبوبته بالدرّة التوأمية . وهي الدرّة المنسوبة الى توّام «وهي قصبة عمان التي تلي الساحل (١٧) .

وقد تنسب (الدرّة) الى البحرين ، وذلك في شعر لبيد بن ربيعة (٣٠٩:١٩) :

وتضيء في وجه الظلام منيرةً ... كجمانة البحريِّ سلّ نظامها

وذلك في أحد الأقوال (٤٢:١٠) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد ذكراً مختصراً للغائص في شعر قيس بن الخطيم ، حيث يشبّه محبوبته (بالدرّة) ، التي أزال الغائص الصدف عنها ، فانكشف غشاؤه فأبرز وجهها وأظهره وجلاه . قال قيس بن الخطيم (٦٠:٣٥) :

كأنها درّة أحاط بها الـ غواص يجلو عن وجهها الصَّدفُ

وفي شعر أبي دوادالإيادي (٣٢٩:٥١) :

درّة غاص عليها تاجرٌ جليت عند عزيزٍ يوم طلّ

وفي شعر النابغة ، نجد صورة الغائص البهج وهو يستخرج الدرّة من البحر، فيسجد شكراً لله على ما وهبه من نفاسة هذه الدرّة وجلالة قدرها .

قال النابغة الذبياني (٣٢:٣٤) :

كمضيئةٍ صدفيّة غوّاصُها بهجٌ متى يرها يهلّ ويسجدِ

حيث شبّه المرأة بالدرّة الخارجة من البحر أي التي لم تمسها يد ولا ابتذلت في سلك فهو أصفى لها وأبهى لضيائها .

نلاحظ أنّ هؤلاء الشعراء ، قد اقتصر كل منهم على تشبيه محبوبته بالدرّة ، في حسنها وجمالها ومنعتها ، وقد ذكروا «الغواص» ، ولكن لم تأت هذه الصورة مفصّلة .

وفي شعر المخبّل السعدي ، نجد صورة أكثر تفصيلاً من سابقاتها ، وفيها يشبّه صاحبته بدرّة كبيرة نادرة اشتراها ملك من الفرس بثمن مرتفع ، وزيّن بها صدر مجلسه ، فكانت تتألّق فيه ، وتسطع سطوعاً قوياً ، وتظهر صورة الغائص : فهو دقيق العظم ، رقيق الجسم ، فهو يشبه السهم في نحوله وخفته ، ومضائه وسرعته، وأنه كان يمجّ الزيت في قاع البحر ليضيء له ، وأنّ أثر هذا الزيت كان عالقاً بصدره بعد أن غاص عليها وانتزعها من بحر هائج مائج ، فيه وحوش البحر المفترسة التي تلتهم الغواصين (٤٦:٧٨) .

قال المخبّل السعدي (٣١٣:٤٦) :

كعقيلة الدرّ استضاء بها مِحْرابَ عرش عزيزها العُجْمُ

أغلى بها ثمناً وجاء بها شخْتُ العظامِ كأنّه سَهْمُ

بلبانهِ زيت وأخرجها من ذي غواربَ وسْطَهُ اللُّجمُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتحدي والإصرار بالاضافة الى السرعة . وقد أشار الشاعر اشارة سريعة الى كيفية الغوص (بلبانه زيت) ، فقد ذكر المسعودي أنّ الغواصين «يجعلون في آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن ، فيعصر من ذلك الدهن اليسير في الماء في قعره ، فيضيء لهم بذلك في البحر ضياء بيناً» (٨٢) .

وقال أبو ذؤيب الهذلي (٢٢) :

كأنّ ابنة السّميّ درّة قامس ... لها بعد تقطيع النّبوح وهيجُ

بكفّي رقاحيٍّ يحبّ نماءها ... فيبرزها للبيع فهي فريجُ

أجاز اليها لجّة بعد لجّة ... أزلّ كفرنيق الضُّحول عموجُ

فجاء بها بعد الكلال كأنه ... من الأين محراسٌ أقذّ سحيجُ

فجاء بها ما شئت من لطميّةٍ ... تدوم البحار فوقها وتموجُ

وقد شبّه أبو ذؤيب صاحبته بالدرّة النفيسة ، جاء بها قامس (غائص) ، ثم يصف الغائص ، فهو طويل نحيف ، ضامر خفيف ، متمرّس بالغوص والعوم ، كأنه احد طيور الماء في مهارته في السباحة ، ورشاقته في الحركة ، وقدرته على التلوّي ، وسرعته في الانحراف من ناحية الى ناحية ، وانه قضى وقتا طويلا تحت الماء ، وبذل جهدا كبيرا في البحث عن الدرة في قاع الفرات حتى وجدها في موضع عميق مرهوب منه ، يسكن الماء فوقه تارة ، ويضطرب تارة ثانية ، فاخذها وخرج بها ، بعد ان اصابه الاعياء ، وصار كالسهم الذي الصق الريش عليه ، ثم جردت الارض قشرته ، لكثرة ما سقط عليها ، واحتل بها وعرضها على البيع كانه تاجر متخصص ، يشرف على ماله ، ويحس تقديم بضاعته ، فكان يذهب بها الى السوق ، يضعها في كفه ، ويضعها للناس ، فتبدو لهم لا يحجبها شيء عنهم ، يريد ان يزينها لهم ، حببها اليهم ، ليشتريها احدهم بثمن كبير ، يقيم حياته ، ويسد حاجته ، ويصلح معيشته (٤٧:٧٨) .

يقول الدكتور نصرت عبد الرحمن «ونرى في تشبيه الغائص بالغرنوق وتشبيه الصائد بالصرد - كما مر معنا - تناسبا بين انسان يعمل في البحر وطائر من طيور الماء ، وانسان يعمل في البر وطائر من طيور البر . وفي هذين التشبيهين بعد آخر مثالي يرتبط بنظرة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى صيد ثور الوحش وحمار الوحش والى الغوص على اللؤلؤ : فصيد ثور الوحش وحمار الوحش ، مذموم ، والصرد طائر مشؤوم ، والغوص على اللؤلؤ محمود والغرنوق طائر محمود يتفاءل به» (١١٠:٢٣)

وقال عدي بن وداع (٥٧:٢٨) :

كدرّة الغايص تهدى الى ... ذي نَطَف في غرفة المَجْدَلِ

جاء بها آدمُ صلْبٌ أحَصّ ... صُ الرأسِ فيه الشّيب لم يشملِ

لما انتضاها موقنٌ أنه ... إن يبلغ السّوق بها يَجْذِلِ

شيّع في قرواء مدهونةٍ ... ذات قلاعٍ صُعُدا تَغْتَلي

تختصم اللجّة في العَوْطَبِ ... ذي التيار والجُلجَلِ

بشّر أصحابا له أنّها ... تَجْبُرُ فقر البائس الأرملِ

فقد شبه الشاعر صاحبته بالدرة الثمينة التي تهدي الى امراة ذات نطف . ويصف الغائص : فهو رجل اسمر البشرة ، صلب ، قد انجرد شعره وتناثر ، وقد جاء بها من اعماق البحر (العوطب) ، وبشر اصحابه ، انها تجبر البائس المحتاج لنفاستها وارتفاع ثمنها وندرتها .

وقال الاعشى (٣٦١:٩) :

من كل مرجانة في البحر اخرجها ... غواصها ووقاها طينها الصدفُ

حيث يشبه النسوة في حمرة وجوههن ونضرتها بالمرجان حال خروجه من البحر قبل ان يتسخ ويظلم .

ونجد في شعر الاعشى ما يمكن ان نسميه « قصة الغائص»، فهو يشبه محبوبته بالدرّة، ثم يسرد قصة الغائص مع هذه الدرة ،فهذه الدرة اخرجها غواصها من دارين (وهي فرضةبالبحرين) (٨١) قد سعى وراءها سنين ، وظل يرومها منذ « طرّ شاربه » ، حتى ادركته الشيخوخة وارتعشت رجلاه ، فهو يمشي في اضطراب ، لا ينثني عن طلبها ، ولا يتسلل اليأس الي قلبه ، وقد ارتسم الامل امام عينيه فاحترق طمعا . وقام من دون اللؤلؤة جنّ مارد جبّار ، يحرسها ويبالغ في حياطتها ، وقد جعل من دونها درجا . يدور من حولها ، لا تغفل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عينه عنها خشية ان تتمد اليها يد الغواصين اثناء الليل ، وقد احترق الغواص الذي يرصد الدرة حرصا عليها، ولوانه يطاوع نفسه لتحدّى اليمّ او هلك دون بغيته .

وهذا الصيد من رامه علقته حبال المنية ،ومن ظفر به نال الخلد الذي لا ينقطع ، فاضحى ناعما مسرورا .

قال الاعشى (٨٠:٩) :

كأنها درّة زهراء اخرجهـــــا ... غواص دارين يخشى دونها الغرقـــا
قد دامها حججا مذ طرّ شاربـــه ... حتّى تسعسع يرجوها وقد خفقـــا
لا النّفس تؤيسه منها فيتركهـــا ... وقد رأى الرّغب رأى العين فاحترقـا
ومارِدٌ من غواة الجنّ يحرســـها ... نو نيقة مستعدٌّ دونهـــا ترقـــا
ليست له غفلة عنها يطيف بهـــا ... يخشى عليها سُرى السّارين والسُّرقا
حرصا عليها لو انّ النفس طاوعها ... منه الضمير لبالى اليمّ او غرقـــا
في حوم لجّة آذيّ لـــه حـــدب ... من رامها فارقته النّفس فاعتلقـــا
من نالها نال خلدا لا انقطاع لـــه ... وما تمنّى فاضحى ناعمـــا انقـــا

ونجد الوصف المفصل لصورة الغائص وادواته ، في شعر منسوب للأعشى ، قال (٢٥)

كجمانة البحري جاء بهـــا ... غوّاصها من لجّة البحـــرِ
صلب الفؤاد رئيس اربعـــة ... متخالفي الالوان والنّجـــرِ
فتنازعوا حتّى اذا اجتمعـوا ... القوا اليه مقالد الأمـــــرِ
وعلت بهم سجحاء خادمـــةٌ ... تهوي بهم في لجّة البحـــرِ
حتى اذا ما ســـاء ظنّهـم ... ومضى بهم شهر الى شهـرِ
القـــى مراسيـــه بتهلكـــة ... ثبتت مراسيها فما تجـــري
فانصبّ اسقف راسه لبـــدٌ ... نزعت رباعيتاه للصُّبـــــرِ
أشقى يمجّ الزيت ملتمـــسٌ ... ظمآن ملتهب من الفقـــــرِ
قتلت اباه ،فقال : اتبعـــــه ... او استفيد رغيبة الدّهـــرِ
نصف النّهار الماء غامـــرهُ ، ... وشريكه بالغيب ما يـــدري
فاصاب منيته ، فجاء بهـــا ... صدفيّة كمضيئة الجمـــرِ
يعطى بها ثمنا ويمنعهـــــا ... ويقول صاحبه : ألا تشري؟
وترى الصّواري يسجدون لها ... ويضمّها بيديه للتجـــــرِ
فتلك شبـــه المالكيـــة اذ ... طلعت ببهجتها من الخـــدرِ

وقد اختلفوا في صاحب هذه الابيات ، فقد اثبتها صاحب الخزانه للأعشى (٣٥) ، بين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبتها الاب لويس شيخو للمسيب خال الأعشى (٣٥٦:٣٢) .

فقد شبّه الشاعر صاحبته بالدرة ،التي استخرجها الغواص من اعماق البحر، ويمضي في سرد قصة هذا الغواص ، فيذكر انه رئيس اربعة من اصول مختلفة ، ويصف لنا الجدال الذي دار بينهم في امر رحلتهم ، حتي اتفقوا على ان يسلموا له مقالد الامر ، فركبوا البحر، ومضوا فيه شهوراً طويلة ، ثم ارسوا سفينتهم ، وغاص رئيسهم الى القاع ليبحث عن الدر، واخذ يمج الزيت من فمه ليضيء له اسفل البحر ، حتي يبصر وغاب عن اصحابه ساعات متصلة دون ان يعلموا عن مصيره شيئا ، وظل غائصا حتى وقع على درة ، فاستخرجها وعاد بها اليهم ، فتوجهوا بها الي السوق ليبيعوها للتجار ، طالبين فيه ثمنا غاليا ، وسعرا عاليا لنفاستها .

ولهذه الابيات اهمية تاريخية ، يسجل فيها الاعشى صورة للغوص في الجاهلية ، فيعرض لبعض امكنته وادواته وموسمه ومدته .

اما امكنته فيسمي منها دارين ، وهي فرضة بالبحرين ، اي محط للسفن فيها ، وهي وال ، وهي جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين (٧١:٧٨)

ويذكر المسعودي اماكن الغوص في بحر فارس (الخليج العربي) « اذ كان ما عداه من البحار لا لؤلؤ فيه ، وهو خاص بالبحر الحبشي من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب ، وغير ذلك من هذا البحر » (٨٢) .

ويتحدّث الأعشى في قصيدته كذلك عن ادوات الصيادين ، منها السفن الطويلة التي كانوا يجوبون بها البحر بحثا عن مواضع اللؤلؤ . ويعد منها كذلك الحبال التي كان الغواصون ستعينون بها خوفا من الضياع والهلاك فالغائص انما يغوص بحبل معه طرفه وطرفه الاخر مع صاحبه » (٢٥) .

وذكر من الادوات الزيت الذي يمجه في قاع البحر ليضيء له .

اما في المجال الفني فقد « حلق الاعشى تحليقا بعيدا فيه تفوق شديد ، اذ صب وصفه في قالب قصصي محكم ، فيه حدث مركب ، يتشعب ويتواصل ، ويتكامل، ويتعقد ثم ينفرج ، وينحل ، وهويبدا بانتظار الغواصين لموسم الغوص ، واستبطائهم لقدمه وتفكيرهم فيه ، وتجهزهم له ، ثم يجيء فينطلقون ،الى سفينتهم ، ويختلفون في امر رحلتهم ، ومن يتولى قيادتهم ،ثم يعترون على موقع استخراج اللؤلؤ ، فيرسون سفينتهم ويلقي رئيسهم بنفسه في الماء ، ويمضي فيه مدة طويلة ،فيتوجس اصحابه خيفة عليه ، وتساورهم الظنون في مصيره ، ثم يرى درّة .فيلتقطها ، ويرجع اليهم بها .اما الغائص فهو رجل طويل في انحناء متلبّد ، متوقّد الاحساس ، كثير الهواجس . واتاح للاعشى هذه المعرضة الواسعة باستخراج اللؤلؤ ومكنه منها انه كان من اهل (منفوحة) ، وهي قرية مشهورة في اليمامة ،قريته من بلاد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لبحرين ، ومواضع استخراج اللؤلؤ في بحرها ، ومعارضه في اسواقها (٥٤:٧٨) .

(٤)
المشتار

يبدو ان مشتار العسل لم يحظ بعناية الشعراء الجاهليين ، كما حظي غيره من اصحاب هن في الشعر الجاهلي ،اذا استثنينا بعض اشعار الهذليين مثل ابي ذؤيب الهذلي وساعدة بن جؤية ،حيث نجد عندهم صورا كاملة «لمشتار العسل » .

وربما يكون للبيئة اثرها في اهتمام الهذليين بصورة مشتار العسل ،اذ كان موطنهم على جبال الحجاز الفاصلة بين تهامة ونجد ، ويقال لأعلاها السّراة ، وهي اعظم جبال بلاد العرب (١٧) .

وبالتالي كان منظر اشتيار العسل من المناظر المالوفة في بيئة الهذليين ، وذلك لما اشتملته جبال الطائف وعسير من خلايا النحل التي كانت مطعما لكثير من المغامرين (٧٧:٢٤) .

ونجد في اشعار الشعراء الجاهليين – من غير الهذليين – ذكرا للعسل او المشتار ، كنها صورة عابرة لا تتجاوز البيت .مثال ذلك قول كعب بن سعد الغنوي في ممدوحه (٧٥٥:٣٠) :

هو العسل الماذيّ ، حلما ، ونائلا ... وليث ، اذا يلقى العدوّ ، غضوبُ

العسل الماذي : هو الابيض اللين وهو اجود انواع العسل .

وقول النابغة (٣٢٥:٣٤) :

كأنّ مشمول صرف علّ ريقتها ... من بعد رقدتها اوشهد مشتارِ

قد شبه الشاعر ريقها من بعد نومها بالشهد الذي ينزعه «المشتار»من بيوت النّحل .

ولكننا نجد في شعر الاعشى – من الشعراء غير الهذليين – صورة اكثر تفضيلا (لمشتارالعسل) . قال الاعشى (٣٢٧:٩)

كأنّ طعم الزنجبيل وتفا ... حاً على أري الدبور نزلْ
ظلّ يذود عن مريرته ... أهوى له من الفؤاد وجلْ
نحلا كدرداق الحفيضة مر ... هوبا له حول الوقود زجلْ
في يافعٍ جوْن يلفع بالـ ... ـصحرى اذا ما تجتنيه أهلْ
يعلّ منه فو قتيلة بالـ ... ـإسفنط قد بات عليه وظلْ

فقد شبه الاعشى مذاق ريق محبوبته العذب الزكي ، بطعم الزنجبيل والتفاح ، قد مزجا بعسل النحل . ويكون هذا التشبيه الذي سيتكرر عند الهذليين – مدخلا للحديث عن مشتار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعسل ، فهويصوره وهويصعد الى جبل مرتفع وقد تعلق بحبل متين ، وامتلأ قلبه فزعا ورعبا عين اوقد النار، ليطرد بدخانها النحل من خليته فانبعث من حوله كانه صغار البعوض ، يظن ظنينا عاليا ، وراح هو يدفعه عن نفسه ، وهو معلق بالحبل ، في هذا الجبل الاسود الشاهق ، وقد احاطت به الصحراء من كل نواحيه .

ونلاحظ أن الاعشى قد ذكر (المريرة) ، وهو الحبل المفتول شديد الفتل ، وهو من ادوات المشتار .

اما في اشعار الهذليين ، فانا نجد صوراً تفصيلية (لمشتار العسل) وادواته التي كان ستعملها في الاشتيار.

قال ابوذؤيب الهذلي [٢٢] :

واشعث ماله فضلات ثـــول ... على اركان مهلكـة زهـــــوقِ
قليل لحمـــــه الا بقايـــــا ... طفاطف لحم منحوض مشيـــقِ
تأبّط خافة فيها مِسَّـــــابٌ ... فأضحى يقتري مسدا بشيـــقِ
على فتخاء تعلم حيث تنجو ... وما في حيث تنجو من طريـقِ
فيمّم وقبة في رأس نيـــقٍ ... دوين الشمس ذات جنىً أنيـــقِ
وكانت وقبة أعيا جنـــاها ... على ذي النيقة اللبق الرفيـــــقِ
فجاء بها سلافا ليس فيهـا ... قذى ، صهباء تسبق كلّ ريـــقِ

وتظهر في هذه الابيات صورة المشتار ، فهو اشعث الشعر ، قليل اللحم ، ضامر، ممشوق .ليس له مال الاما يجنيه من هذا العسل .وبصوره وقد وضع تحت ابطه الخافة (وهي الخريطة من ادم) قد رفع راسها للعسل ، وكذلك مساب (مسأب)(وهو سقاء العسل) ، ويصوره وهو يتتبع اعلى الجبل (الشيق) بالحبل (المسد) .

فقصد في اعلى الجبل توة عظيمة فيها نحل ، وكانت هذه (الوقبة) دوين الشمس ارتفاعها ، فجاء بهذه الشهدة تسبق الريق الى الحلق .

اذن هذه القصيدة صورت مشتار العسل ، وذكرت ادواته التي يستعملها في الاشتيار : هي الحبل ، والخافة ، و(المسأب) ، و(الفتخاء) وهي شيءمرتفع من خشب يجلس عليه الرجل ويكون لمشتار العسل ، وقيل الفتخاء شبه ملبن من خشب يقعد عليه المشتار ثم يمد من فوق حتى يبلغ موضع العسل) ويظهر في الصورة مدى الفقر الذي كان يعيشه المشتار، وكذلك روح المغامرة التي لا بد منها في مثل هذه المهن وتمثل ذلك في صعوده الي الوقبة التي صورهاالشاعر في مكان مرتفع (دوين الشمس ، وكذلك خطورة مهنته .

ونجد ايضا «صورة المشتار» في شعر ساعدة ين جؤية قال [٢٣] :

منها جوارس للسراة وتأتـــري ... كربات أمْسِلَةٍ اذا تتصـــــوّبُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتكشّفت عن ذي متون نيّـــــر ... كالرّيط لاهفٌ ولا هو مخـــربُ
وكأن ما جرست على اعضـادهـا ... حين استقلّ بها الشرائع محلبُ
حتي اشبّ لها وطـال ايابهـــا ... نو رُجْلةٍ شثن البراثن ححنـــبُ
معه سقـــاء لا يفـــرط حملـــه ... صفن واخراص يلحن ومسـأبُ
صبّ اللهيف لها السّبوب بطغيـة ... تنبي العقاب كما يلطّ المجنـــبُ
وكأنّه حـــين استقـــل بريـــدها ... من دون وقبتها لقاً يتذبـــــذبُ
فقضى مشـارته وحـــط كأنـــه ... خلق ولم ينشب بها يتسبســـبُ

في هذه القصيدة تظهر صورة المشتار فهو قصير قليل (ححنب) ، خشن الاصابع (شثن البراثن) ، صبور على المشي (نو رجلة) وتظهر في الصورة ادوات المشتار كذلك وهي : السقاء، والاخراص (وهي اعواد يخرج بها العسل) ، الصفن ، وهو شيء فيه اداته يكون معه، شيء مثل السفرة يتقي به الماء ، والمسأب ، والســـبوب (وهـــي الحبال التي يرقى فيها وينزل بها) [٢٢].

ويصوره الشاعر وقد دلي حباله يربطها في مستصعب من الجبل (الطغية) ، هذا المكان من الجبل يشبه الترس في استوائه (مخنب) ، ثم اخذ العسل من خلية النحل ، ثم يعود الشاعر يشبه فم حبيبته بهذا العسل .

وفي قصيدة اخرى لساعدة بن جؤية ، تظهر صورة المشتار وكذلك مدى الحظر الذي يحيط بهذه المهنة .

قال ساعدة [٢٣] :

وما ضرب بيضاء تسقي دبوبهـا ... دفاق وَعَرْوَ انُ الكَرَاثِ فصيمُهـا
اتيح لها شثن البنـان مكـــزّمٌ ... اخو حزنٍ قدوقّرتـه كلومُـهـــا
قليل تلاد المال الا مسائبـــــا ... واخراصه يغدوبها ويقيمُهـــــا
رأى عارضا يهوي الى مشمخرّة ... قد احجم عنها كل شيءٍ يرومُها
فما برح الاسباب حتّى وضعنـــه ... لدى الثّول ينفى جنُّها ويؤومُهـــا
فلما دنا الابراد حطّ بشـــــوره ... الى فضلات مستحر جمومُهـــا

تظهر في القصيدة – صورة المشتار : فهو رجل خشن الاصابع (شثن البنان)، قد اكلت ظفاره الصخر (مكزم) ،قد اعتاد التسلق الى الاماكن الغليظة ،فتركت فيه آثار تلك الجراح :

ويظهر كذلك فقره الشديد ، فهو لا يملك الا ادوات الاشتيار وهي : (المسأب،والاخراص) ، اما العسل الذي يرومه فهو في هضبة طويلة في السماء ذاهبة (مشمخرة) ، لا يستطيع احد ن يرتقيها . ولكنه مدّ حباله فما برحت تنحطّ به حتى وضعته لدى خلية النحل ،فطفق يدخن عليها (يؤومها) ، ثم عاد بما اشتاره من العسل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي شعر ابي ذؤيب الهذلي تتكرر نفس الصورة ،فهو يختار للاشتيار اكثر الاماكن خطرا ، قال ابو ذويب [١٦] .

وما ضَرَبٌ بيضاء يأوي مليكها ... الى طنفٍ أعيا بِرَاقٍ ونـــازلِ
تهال العقاب ان تمـــر بريْـــدِهِ ... وترمي دروء دونـه بالأجـــادلِ
تنمّى بها اليعسوب حتى أقرّها ... الى مألف رحب المباءة عاســـلِ
فلو كان حبل من ثمانين قامـــة ... وتسعين باعاً نالها بالأنامـــلِ
تدلّى عليها بالحبال موثّقـــاً ... شديد الوصاة نابل وابن نابـــلِ
اذا لسعته النّحل لم يرج لسعها ... وخالفها في بيت نُوب عوامـــلِ
فحطّ عليها والضلوع كأنهـــا ... من الخوف امثال السّهام النّواصلِ

تظهر صورة المشتار في هذه القصيدة :فهو رجل شديد الحفاظ لما اوصى به (شديد الوصاة) ، حاذق في عمله وابن حاذق .

ويظهر في الصورة كذلك مكان خلية النحل ، فهو في مكان مرتفع ،اذا طارت الصقور اليه ،قصرت عنه فلم تبلغه .

وتلقي الصورة كذلك الضوء على جانب من حياة النحل فتظهر صورة اليعسوب (وهو مير النحل) وقد اسكن النحل في (مألف واسع) .

قال الجاحظ «والنحل تجتمع فتقسم الاعمال بينها ، فبعضها يعمل الشمع ، وبعضها مل العسل ، وبعضها يبني البيوت وبعضها يستقي الماءويصبه في الثقب ، ويلطخه بالعسل . ومنه ما يبكر الى العمل ومن النحل ما يكفه حتى اذا نهضت واحدة طارت كلها .

يقال : «بكر بكورااليعسوب» يريد امير النحل لانها تتبعه غدوة في عملها [٨٣] .

ويظهر في الصورة كيفية الاشتيار ، فالمشتار يتدلّى على الاسباب حتى يبلغ خلية النّحل ، ويظهر ، وهو ينحط وضلوعه ترجف من الخوف وحذر السقوط ، كأنها سهام قد نصلت منها نطبها .

ولكنه في النهاية يظفر بمطلوبه ، ويخرج منتصرا .

وقال ابو ذؤيب الهذلي [٢٢] :

بأري التي تأري لدى كل مغـــرب ... اذا اصفرّ ليط الشّمس حان انقلابُها
بأري التي تأري اليعاسيب اصبحتْ ... الى شاهق دون السماء نؤابُهـــا
جوارسها تأري الشُّعوف دوائبـــا ... وتنصبّ الهابا مصيفا كرابُهـــا
اذا نهضت فيـه تصعّد نفرهـــا ... كقتر الغلاء مستدرّا صيابُهـــا
يظل على الثُّمراءِ منها جـــوارسٌ ... مراضيع صُهْبُ الرّيش زُغْبٌ رقابهـــا
فلما راها الخالـــديّ كأنّمـــا ... حصى الخذف تهوي مستقلاً ايهابهـــا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجدّ بها أمرا وأيقـــن انـــــه لها او لأخرى كالطّحين ترابهـــــا
فقيل تجنّبها حـــرام وراقـــــه ذراها مبينا عرضها وانتصابُهـــا
فأعلق اسباب المنية وارتضـــى ثقوفته ان لم يخنه انقضابهـــــا
تدلى عليها بين ســـبٌ وخيطـــةٍ بجرداءَ مثل الوَكْفِ يكبو غرابهـــا
فلما اجتلاها بالإيـام تحيـــّرت ثبات عليها ذلّها واكتئابهـــــا

في هذه الابيات ، يظهر (حرام الخالدي) وهو من مشتاري هذيل ، وتبين هذه القصيدة جرأته في اشتيار العسل : فقد رأي الخلية في جبل عال تحيط بها ذكور النحل التي تجرس ،اي تاكل الثمر وهي علي استعداد للدفاع عن الخلية ، الا ان ذلك المشتار، كان مصرا على لحصول على ما يريد فعلق حباله في الجبل وتسلق الى مكان العسل ، وكان لا بد له ان يثير دخانا يبعد به النحل المدافع عن الخلية . (٢٤)

نلاحظ ان ابا ذؤيب ، وساعدة بن جؤية قد تخيرا « اشد ضروب الشيارة خطرا . وهذا يرفع من شأن العسل الذي يشتار ، ويرفع من شان الانسان المشتار . فقد قرّ في نفوس ناس ان الاشياء النفيسة لا تنال بيسر ،وانما تنال بعد كد واعمال . وليست الشجاعة مقتصرة على الحرب ،فهي تظهر في الحرب وفي غيرها.

فالتدلي من جبل شاهق على حبل شجاعة . وجوز الصحراء شجاعة ، واختراق الفجاج شجاعة » (١٠٧:٢٣)

وقد ظهر المشتار ، بمظهر المنتصر في النهاية ،

فلما اجتلاها بالإيام تحيّرت ثبات عليها ذلّها واكتئابُها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الراعي في الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورد ذكر "الرعاة" في الشعر الجاهلي، بصورة عابرة، تحمل إشارات سريعة، لا ترسم صورة واضحة "للراعي" ، حتى يكاد المرء يجزم "بأن الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من صور الرعاة" (٤٢:١٠).

من هذه الإشارات العابرة قول النابغة الذبياني(١٣٣:١٥) :

وحلّـــت بيوتـي فـــي يفـــاعٍ مُمـــنّعٍ

تخـــال بـــه راعـــي الحـــمُولة طـــائـــرا*

يريد : يُحسب به الذي يرعى الإبل طائراً لارتفاعه وعلوه .

وقد حفظ لنا الشّعر الجاهليّ بعض اسماء "الرعاة" منهم "مُكدّمٌ" ، قال عوف بن الخِرع(٤٧٣:٣٠) :

وجُـدنـا لها، عـــامَ الغـــلاءِ فلـم تـــزل

إذا ما اشتـــهت محـــضاً سقاها مُكدّمُ **

ومن أسماء رعاة الغنم "سعير" و"حُجير"، وقد ورد ذكرهما في شعر مالك بن حطّان(٣٢٠:٤٣) :

فليـــت سُعـــيراً كان حيـضاً برحـــلهـــا

وليـت حـجـيراً غـرّقتـه القوابـــلُ ***

وكذلك "دثار" وهو راعي إبل امرىء القيس، قال امرؤ القيس(٩٤:٢٠) :

---

* يفاع : مرتفع مشرف .

** المحض : الذي لم يخالطه ماء، حلواً كان أو حامضاً .

افتليناها من أمها : فصلناها ، والفلو : المهر حين يفطم .

*** غرقته القوابل : مات صغيراً في الرحم قبل الولادة .

برحلها : برحم أمه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـــأنّ دثـــاراً خلـــقت بلـــبُونـــةٍ

عقـــابُ تنـــوفـــى لا عُقـــابُ القـــواعـــل *

يريد : كأن عقاباً من عقبان تنوفى ذهبت بهذه الإبل ، لا عقاب هذه الأجبل الصغار ؛ وبالتالي لا يمكن رد هذه الإبل .

ويظهر في الشعر الجاهليّ بعض أعمال "الرعاة"، ففي شعر الأعشى يبدو "الراعي" الذي يجمع أغنامه، وقد توقع المطر، حيث دخل الظلام، وقد ربط الأعشى بين سرعة اجتماع قومه للحرب وبين سرعة هذا "الراعي" في جمع أغنامه، وقد توقع المطر، قال الأعشى (٢٩٩:٩) :

فغـــدونا عليـــهـــم بكـــر الـــور

د كـــما تـــورد النضـــيح الهـــياما **

برجـــال كالأســـد حرّبها الزجـــرْ

وخـــيل مـــا تنكـــر الإقدامـــا

لا نقيها حـــدّ السيوف ولا نـــبأ

لـــمُ جـــوعاً ولا نـــبالي السُّهـــامـــا

وفي شعر علقمة الفحل ، يبدو "الرعاة" وهم يصيحون بالغنم، خوفاً عليها من أن تهبط القاع. قال علقمة (١٢٦:٦٣) :

كـــأن زيـــد منـــاة بعـــدهـــم غـــنمٌ

صاح الـرّعاءُ بها أن تهبـط القاعـا ***

---

*اللبون : التي لها ألبان . تنوفى : جبل من جبال طيء مشرف . القواعد : أسماء جبال ليست بشوامخ .

** البكر : أول الصبح . النضيح : الحوض الهيام : العطاش .

أخيل الرجل : شام سحابة مخيلة ، إعتاماً : حين دخلت العتمة .

*** القاع : أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية تتفرج عنها الجبال والآكام، وهي مصب المياه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ "الرعاة" كانوا يبيتون مع إبلهم، وينشدون لها، قال عبد يغوث بن وقاص (١٥٧:١٥):

أحقّاً عباد الله أن لستُ سامعاً

نشيد الرُّعاءِ المُعزبين المتاليا *

وكان "الراعي" يشتد في سرعته إذا نفرت غنمه أو إبله ليجمعها ويحميها. قال لبيد بن ربيعة (٢٢٣:١٩):

فلو كان مولاي امرءاً ذا حفيظة

إذاً زفَّ راعي البَهم والبُهْمُ نافرُ

ويظهر الراعي في شعر تميم بن أبيّ بن مقبل وهو يكفّ الفحل الهائج قال تميم (٢٨٦:١٤):

تودّعُهُ الأهْوال من دون همّهِ

كما ودّع الرّاعي الفنيقَ المُسدما**

وفي شعر الطفيل الغنوي، يظهر "راعي الإبل" وهو يسوق الإبل، متدثراً في عباءته. قال الطفيل (٨٩:٣٧):

إذا ساقها الرّاعي الدثور حسبتَها

ركاب عراقيٌّ مواقير تُدفعُ***

وفي شعر طرفة، يظهر "الراعي الذي يمشي في شق من شدّة البرد. قال طرفة بن

---

* المتالي : الإبل التي نتج بعضها وبقي بعض .

** تودعه : تمنعه وتكفه يعني الثور . الفنيق : الفحل .

المسدّم : الهائج الذي يمنع من اضراب الإبل .

*** إذا ساقها: يعني إبله السمان. الركاب : النوق . مواقير : موقرة .

باعبائها ، تدفع : تساق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العبد(١٣٠:١٣) :

وجـــاء قريـــعُ الشـــوْلِ يرقـــصُ قبلـــها

إلـــى الـــدّفء والرّاعـــي متحـــرّفُ *

إمّا راعي الغنم ، فقد ورد في شعر سلامة بن جندل(١٠٢:١٢) :

كـأنـــــه يـــرْ فتـــيٌ نام عـــن غنـــمٍ

مُسـتنفرٌ فـي ســواد الليـلِ مـذؤوب

حيث شبه فرسه لحدته وطموح بصره بالراعي الجافي (اليرفئي)، نام عن غنمه، حتى وقعت فيها الذئاب، فهب من نومه فزعاً مذعوراً .

وفي شعر أبي ذؤيب الهذلي تظهر صورة (الراعي الوخمُ) (الثقيل النؤوم الذي لا خير فيه)، ومن تعزب عن أهله بإبله ، قال أبو ذؤيب(٩٧:٢٢) :

إذا الهـــدفُ المـــعزابُ صـــوب رأســـهُ

وأمكـــنه ضَفْوٌ مـــن الثُّـــلّة الخُـــطْلِ **

من خلال هذا العرض يتبين لنا أننا لا نمتلك صورة واضحة المعالم (للراعي) في الشعر الجاهليّ، بل إننا إذا قارنا مدى حضور أصحاب المهن الأخرى في الشعر الجاهلي ، بحضور "صورة الراعي ، فإننا نخلص إلى أن الشعر الجاهليّ قد أغفل صورة الراعي إغفالاً يكاد يكون تاماً . واذا كان الشعر الجاهلي يعتبر "صورة صادقة تعكس لنا بأمانه جميع ملامح الحياة العربية القبلية، والبيئة التي نشأ فيها، وأن الثقات من ذوي الاختصاص في التاريخ يعدون هذا الشعر أهم مصدر موثوق به يصف العرب وعاداتهم وأعرافهم في تلك الفترة"(٤٥:٨٤) .

---

* القريع : الفحل يختار للفحلة . الشول : جمع شائله : وهي التي خف بطنها وضرعها . الرقص : ضرب من السرعة .

** الهدف من الرجال ، الثقيل النؤوم الذي لا خير فيه .

صوب رأسه : أي نام . الضفو : السعة . الثلة : الغنم .

الخطل : طوال الآذان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كانت اللغة والشعر الجاهلي -يحملان انعكاسات امينة لمختلف ظاهرات " النظام الجاهلي "[(٧:١٨٤)]. فمن حقنا أن نتساءل : لماذا أغفل الشعر الجاهلي ذكر "الرعاة" -إذا استثنينا تلك المواضع القليلة- على حين ظهرت فيه صور أصحاب المهن الأخرى واضحةً جلية؟

مما لا شك فيه أن "الرعي" كان يمثل جانباً من جوانب الحياة الاقتصادية في العصر الجاهلي، فقد كان العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين -يعيشون حياة بدوية تعتمد على رعي الأغنام والأنعام[(٣:٧٧)].

وقد وجدت المراعي في الجزيرة العربية، منها الخاص، ومنها العام . فالمراعي الخاصة تكون ملكاً لرجل أو أسرة أو قبيلة تفرض سلطتها على المراعي، مثل الأحماء ، حيث لا يسمح لأحد غير مأذون بالرعي في "الحمى" . أما المراعي العامة، فهي لا تدخل في ملك أحد، وأنما يرعى فيها كل أبناء الحي، وجميع ابناء القبيلة [(٦)].

وقد صنفوا الرعاة الى قسمين : منهم رعاة الإبل ، وهم الممعنون في البوادي، والذين يبيتون مع الإبل في المرعى لا يأوون إلى بيوتهم ولا يرعون غيرها، وهم جلّ الأعراب، بل كلهم. ويكون هؤلاء الرعاة الأعراب من أبعد الرعاة عن القرى والحضر، ومن أهلها .

أما القسم الثاني : فهم رعاة يرعون إبلاً ويرعون غيرها معها من بقر وخيل وغنم . وهم لعدم استطاعة البقر والغنم من التوغل في البادية والتعمق في طياتها، لا يستطيعون الابتعاد عن الماء كثيراً ، لعدم استطاعة تلك الحيوانات الصبر على العطش كثيراً ولهذا فهم على اتصال بالحضر والحضارة[(٦)].

ويرى بعض الدارسين ان الاجتهاد الاقتصادي الرعوي، هو الشريك الأول في البناء الاقتصادي الجاهلي، ولكنه ليس هو الشريك الأقوى في أي مرحلة من المراحل، بل يرون فيه الشريك الأضعف اقتصاديا والأكثر عدوانية واستعداداً للتمرد وعدم الانصياع للضوابط الاقتصادية والحضارية والاجتماعية، وأنه لم يحتل أبداً المكانة الأولى بين الشركاء . ولقد اشقاه التصحر والتمادي في الجفاف وتضرر به أكثر من أي اجتهاد اقتصادي آخر على طول المدى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قبل الإسلام(١٧٤:٨٥).

وبالتالي يمكن اعتبار التفاعل الايجابي بين عناصر الاقتصاد الحضري الثلاث "الزراعة، والتجارة، والصناعة" وهو الذي كان له الدور الحاسم في الصيرورة التاريخية الجديدة لبنية الاقتصاد الجاهلي ككل (٧).

إذا صح هذا التحليل وهو أن الاجتهاد الاقتصادي الرعوي كان ثانوياً في بنية الحياة الاقتصادية الجاهلية، فإنني أميل إلى عد هذا السبب أحد الأسباب في عدم حضور "صور الرعاة" في الشعر الجاهلي، لذا يشيع في الشعر الجاهلي الحديث عن التجارة والزراعة والصناعة والصيد بالإضافة إلى الكتابة والفن، وتظهر صور التجار والزرّاع والصنّاع والصيادين والكتّاب والفنانين، ولها الحضور الأقوى في الشعر الجاهلي .

من جهة أخرى ربط أحد ا لباحثين بين الرق والرعي في الحياة الاقتصادية الجاهلية، حيث توصل إلى أن الرقيق كان يشتغل بالرعي في ذلك العصر، وأن الأرقاء كانوا يشكلون غالبية الرعاة في ذلك العصر(٣٨:٨٦).

وقد استند في ذلك الرأي إلى عدة أدلة منها : ما يلاحظ في كثير من مصادر الشعر الجاهلي من أن العارفين بهذا العصر وشارحي شعره، كانوا يعدون الرعاة عبيداً ، قال عوف بن الأحوص(١٧٥:١٥).

ولكـــــن مــعشرٌ مــن جِــذْمِ قِــــيسٍ

عُقــولُـــــهمُ الأبــاعـــــرُ والرّعــاءُ

يريد : نحن من جذم قيس إذا وجبت علينا الدية اديناها إبلاً وعبيداً، لسنا بملوك فلا تشتطوا علينا . ومن الأدلة التي استند إليها ايضا أن الأرقاء كانوا يهدون مع الإبل، قال الأعشى:

الواهــــب المـــــائة الهجـــان وعبدها

عـــــوذاً تُـــــزجي خلفـها أطفـــالها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالتالي فإن ارتباط عمل الرعي بالرقيق كان أكثر من ارتباطه بالأحرار، مما دفع العرب إلى احتقار مهنة الرعي، والمشتغلين بها(٨٦:٣٩-٤٣).

ومن هنا يكون عمل الرقيق في "الرعي" موجباً لاحتقار العرب لهذه المهنة، وانعكس ذلك في شعرهم ، ومما يقوي هذا الاتجاه وجود بعض النصوص الشعرية الجاهلية التي اوردت "الرعي" في موضع الاحتقار والذم . من ذلك ما نجده في شعر زهير بن أبي سلمى(٣٢:٥٥٤).

تعلّمْ أن شرَّ الناس حيٌّ

يُنادى في شعارهمُ يسارُ *

ويسار : هو راعي إبل زهير .

ونجد ذلك في شعر تأبط شراً (١٥:٢٩).

حمالِ ألويةٍ، شهّادِ أنديةٍ

قوال مُعلمةٍ ، جوّاب آفاقِ **

فذاك همّي وغزوي أستغيث به

إذا استغثتَ بضافي الرأس نغّاقِ

كالحِقْفِ حدأه النامون قُلْتُ لهُ :

نو ثُلّتين ونو بَهْمٍ وأرباقِ

فقد شبه تلبد شعر الراعي بالحقف الذي لبده النامون عليه، ويقول له : أنت ذو ثلتين : أي راعي، مالك وللحرب! يحقره بذلك. وقد وصف بمن يستغيث به في قوله (حمال ألوية...) ، إذا

---

* تعلم : أي اعلم. الشعار : العلاقة التي ينادونه بها .

** المعلمة : الكلمة الفاصلة. غزوي : مقصدي . ضافي الرأس : كثير الشعر . نفاق ونعاق : وهماً روايتان هنا .

الحقف : ما اعوج من الرمل . حدأة النامون : أي صلبوه برؤوسهم إياه وصعدوهم عليه . الثلة : القطعة من الغنم .

الأرباق : جمع ربق : وهو حبل يجعل كالحلقة يشد به صغار الغنم لئلا ترضع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استغاث غيره بمثل هذا الراعي .

ونجد ذلك في شعر لبيد بن ربيعة (١٩:٢٣٠) :

فإن كنتَ قـــد ســـوّقتَ مِعْـزى حبلّقـاً

، أبـا مـــالك، فانـــعقْ إليك بشائكـا*

حيث يطلب منه أن يهتم بالغنم، ويترك عظيمات الأمور لأنه لا يصلح لها وذلك على وجه التحقير .

ومن ذلك ما نجده في شعر حذيفة بن أنس الهذلي(٢٢) :

كـــأنّ بني عـــمروٍ يـــرُادُ بـدارهـــمْ

بنعْمـــان راعٍ فـي أديمـــةَ مُعْـــزِبُ

فقد اجترأوا عليهم حين أتوهم كأنهم أتوا راعياً، يريد احتقارهم بذلك، لأن الراعي ليس له شأن .

ونجد في شعر الكُلْحبة اليربوعي، صورة واضحة لاحتقار عمل الراعي، قال الكلحبة(٤٣:٢١١) :

يا كـــأسُ ويْلـــكِ إنّي غالـــني خُلُقـــي

عـلى السمـــاحةِ صُعلـــوكاً وذا مـــالِ *

تخـيّري بـــين راعٍ حافـــظٍ بـــرَمٍ

عبد الرّشـــاء عليـــك الدّهـــر عمـّالِ **

وبـــين أروع مشمـــولٍ خلائقـــهُ

مستهْلـــك المـــال للـــذات مكّســـالِ

---

*الحبلق : غنم صغار لا تكبر . النعيق : دعاء الراعي الشاء ، يقال : انعق بضأنك : أي ادعها .

** عبد الرشاء : بمعنى الخادم هنا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـــــأيّ ذينـــيكِ إنْ نابتـــــك نائـــبةٌ

والقـــومُ ليســـوا وإ ن ســـوّوا بأمثـــالِ

مما سبق ، فإني أميل إلى القول : إن الشعر الجاهلي قد عكس لنا حياة حضرية، ولم يعكس حياة رعوية بدوية .

وبالتالي ، فإن "الناقد العربي الذي لا يسمع عن الإنسان الجاهلي، -في عصر تكريم الإنسان -إلا كل مبغض ، يجد أن الصورة الفنية يمكن أن تقدم ما يخالف ما سمع أو قرأ عن ذلك الإنسان".(٢١:١٠)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

الزارع في الشعر الجاهلي

All rights reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يشيع في الشعر الجاهلي الحديث عن الزراعة، ولما كانت الزراعة تعتمد اعتماداً أساسياً على "الري" ، فقد اعتنى الجاهليون بإنشاء الحياض ، وتنظيم القنوات وإقامة السواقي، وظهر ذلك في شعرهم . فبدت صورة "السقاة" في الشعر الجاهلي .

قال المسيب بن علس يمدح القعقاع بن معبد بن درارة(٦٣:١٥) :

ولأنْتَ أجـــودُ من خليجٍ مُفـــــعم متـــراكـــــم الآذيّ ذيُ دفـــــــاع

وكـــــأن بُلقَ الخيل في حافـــاته يرْمـــي بهـــنّ دوالـــــي الـــــزّراع

والدوالي جمع دالية وهي "شيء يتخذ من خوصٍ وخشب يستقى به بحبال تشد في رأس جذع طويل" .

يريد : يرمي الخليج بالموج دوالي الزرّاع .

وكـانوا يشـقـون القنوات من مـواضع مـشـرفـة على الوادي لري مـزروعـاتهم، حـيث تبـدو المزروعات وقد اسودت من الري .

قال عامر بن سدوس الهذلي (٢٢):

نشُق التّلاع الحُو لَـــــمْ تُرع قبلنا لنا الصّارخُ الحُشُوثُ والنّعمُ الـــــدّثرُ *

وفي شـعـر أبي نؤيب الـهـذلي، تظهـر صـورة (النضـاح) الذي ينضح على البـعـير ليسـوق السانية (وهي الناقة الساقية)، ليسقي النخيل ، قال أبو نؤيب (٢٢):

يا هـــــلْ أريكَ حُمولَ الحيّ غاديةً كـــالنخـــل زينهـــا يـــنعٌ وإفضاحُ **

هبطنَ بطنَ رُهاطٍ واعتصبنَ كـــما يسقي الجنوعَ خلال الثُّور نضّـــــاحُ

يريد: كأن الحمول النخل التي تسقي بالنضح، حيث شبه اجتماعهن باجتماع هذا النخل

---

* الحوّ : يريد الخضر التي اسودت من الري . الصارخ : المغيث . والصارخ : المستغيث ، وهذا ضد . الحشوث : السريع الى من دعاه. الدثر : الكثير .

** افضاح : اذا بدأت فيه الحمرة والبيضا . ياهل : يريد : يا هذا .

رهاط : موضع . اعتصبن : اجتمعن . النضح : السقي الغرب على البعير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي يُسقى .

ويبدو في الشعر الجاهلي أنهم كانوا يستخدمون البكرة للسقي. قال أوس بن حجر(٦٦:٤١) :

وأنحت كما أنحى المحالةَ ماتحٌ على البئر أضحى حوضهُ وَهْوَ ناشفُ *

وكان بعضهم يحفر الآبار في ارضه المزروعة ويجري اليها القنوات والجداول لتسهيل عملية الري والسقاية . قال احيحة بن الجلاح(٣٣٣:٢١) :

إنـي مقيمٌ على الزوراء أعمرُها إن الكرام على الأقوام ذو المال

لها ثلاث بئار في جوانبها وكلها عقبٌ تسقى بإقبال

ويبدو أن السانية (الناقة الساقية) قد لعبت دوراً مهما في عملية الري والسقاية يظهر ذلك من خلال تتبع الشعر الجاهلي .

قال صاحب اللسان : "السانية : الغرب وأداته . والسانية : الناضحة ، وهي الناقة التي يستقى عليها . وفي المثل : سير السواني سفر لا ينقطع . الليث : السانية، وجمعه السواني ، ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . وقد سنت السانية تسنوا سنواً إذا استقت وسناية وسناوةَ وسنت الناقة تسنو إذا سقت الأرض . والسناة : الرجال الذين يسقون بالسواني ويقبلون بالغروب فيحيلونها اي يدفقون ماءها . والسانية تقع على الجمل والناقة بالهاء"(١).

ونجد صورة السانية في شعر بشر بن ابي خازم، حيث تظهر صورة تحدر الماء عن السانية على المزرعة. قال بشر(١٣:٤٧) :

ألم يأتها أن الدموعَ نطافةٌ لعينٍ يوافي في المنام حبيبُها **

---

* انحت : يريد الناقة اذا اعتمدت في سيرها على ايسرها .
الماتح : هو الذي يجذب رشا الدلو بالبكرة فتصوت ..

** نطافة : سائلة . ونطافة مفسدة وقرح لكثرة دموعها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحدّر مـــاءِ البئر عـــن جرشيّةٍ علـى جـربةٍ تعلـــو الديـار غروبهـا

بغـربٍ ومربـــوعٍ وعـــودٍ تقيمهُ محـــالة خطـــافٍ تصـــرّ ثقوبهـــا

ونلاحظ في الصورة أنه شبه تحدر دموعه بتحدر الماء على جربة من غروب يستقي عليها بالسانيـة وتتكرر صـورة "السـانيـة" فـي هذا الموضـع في شـعـر لبـيـد بن ربيـعـة ، قـال لبيد(١٢١:١٩):

فصرفتُ قصراً والشئون كـــأنها غرْب تحـــث بـــه القـــلوص هزيـــم

بـــكرتْ بـــه جرشيّةٌ مقطورةٌ تـــروي المحـــاجر بـــازلٌ علكـــوم

دَهماءُ قـــد دجَنتْ وأحنف صلبها وأحـــال فيـــها الرضـــحُ والتصريـــم

تسنو ويعجـــلُ كرّهـــا مُتبذلٌ شـثنٌ بـه دنـسُ الـــهناء ، دميـــم

بمُقابـــل سَربِ المخارز عـــدْله قـــلقُ المحالـــة جـــادنٌ مســـلوم

حتـــى تَحيرِ الدّبارُ كـــأنها زَلفٌ، وألـــقي قتبُهـــا المحـــزومُ

هذه الأبيات تمثل لوحة فنية تظهر فيها صورة السانية، وكذلك صورة "الساقي" الذي يسقي الزروع عليها .

يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن رحلة الظعائن ثم يذكر الهموم والآلام التي انتابته من رحيل الأحبة. لكنه عدل عما هو فيه من الحزن وترك بعض ما انتابه من الوجد ودموعه تنحدر وكأنها غرب خلق متكسر ومتشقق تحث به ناقة تسقي الزروع .ثم ينساق الشاعر وراء ا(لمشبه به) ويهمل تماماً (المشبـه) وهو أسلوب اتبعـه الشـعـراء الجاهليـون في الحديث عن الناقـة وتشـبيـهـا بالثور الوحشـي والحمـار الوحشي فـي الرحـلة كما سبق في الحـديث عن الصيد.

وتظهر صورة السانية"الناقة الساقية" في هذه الأبيات فهي ناقة جرشية .

قال البكري "جرش : موضع معروف باليمن . والعرب تقول : ناقة جرشية ، أي حمراء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جيدة ؛ وعنب جرشي : جيد بالغ. قال الهمذاني : مرّ تبّع اسعدُ ابو كرب في غزوته الأولى بجرش، من ارض الطود ، فرأى موضعاً كثير الخير، قليل الأهل ، فخلف فيه نفراً من قومه ، فقالوا : بم نعيش؟ فقال : اجترشوا من هذه الأرض ، واثيروها واعمروها؟ فسميت جرش . وقيل سميت بجرش بن أسلم، وهو اول من سكنها"(١٧).

إذن الجرشية نسبة إلى جرش وبالتالي فهي ناقة قوية، تحمل أصالة المكان المنسوبة إليه وهذه الناقة مطلية بالقطران ، قد تعودت العمل وذلت "دجنت"، قد ضمر صلبها -لا من هزال- وإنما هو ضمر وانضمام لحم، سوداء، قد عالجها الأطباء لأن لا تحلب ، مما يزيد من قوتها، قد ظهرت فيها علامات الرضح والتصريم واستبان ذلك في جسمها وقوتها .

ولكن الذي يلفت النظر هذه الصورة التي يظهر فيها "الساقي" الذي يسقي على السانية فهو رجل قد ابتذل نفسه للعمل، غليظ الكف والأصابع، قليل ، قبيح ، به دنس الهناء الذي تطلى به الناقة .

أما الدلو : فهو من جلدين قوبل بينهما، قد اثقل البكرة لعظمه وضخامته، لين.

وقد عجل "الساقي بردها وهي تسقي مرات عديدة حتى ارتوت مشارات الزرع، وأقام فيها الماء ، ولم يجد منفذاً .

هذه الصورة تبين لنا حجم الجهد الموصول الذي كان يقوم به صاحب المهنة من اجل العيش ، وهي صورة تأتلف مع مجتمع كان يسعى نحو الحياة والبناء من خلال هذا الكدح الدائم . صحيح أن "الساقي" بدا في صورة مبتذلة في الظاهر، ولكنها تحمل في اعماقها صورة الإنسان الذي يعلي من قيمة العمل ، وينفر من الكسل ويرفض إلا أن يأكل من عرق جبينه .

وتظهر صورة "السناة" وهم (الرجال الذين يسقون بالسواني ويقبلون بالغروب فيحليونها، ويدفقون ماءها على الزروع في شعر لبيد بن ربيعة ايضا. قال لبيد (١٩:٧٤) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـــأن دمـــوعه غربـــا سُناة يحيـــلون السّجـــال علـــى السّجال*

إذا أرووا بهـــا زرعـــا وقضبا أمالـــوها علـــى خـــورٍ طـــوال

ويبدو في هذه الأبيان أن عملية "الري" كانت منظمة ، فلما فرغوا من سقي الزرع امالوا السجال إ لى النخل، بالإضافة الى السرعة والتتابع في عملية "الري" (يحيلون السجال على السجال) وإذا كانت الخور هي الغزار من الإبل ، وهي هنا مستعارة، وبالتالي تبدو هذه النخل كثيرة الحمل في هذه الأبيات فشبه الخور بها .

ونلاحظ كذلك تكرار تشبيه دموعة بالغرب الذي يصب به "السناة" على الزروع .

وتظهر صورة "السانية" كاملة في شعر زهير بن أبي سلمى ويتكرر ذكر "السانية" في نفس الموضع الذي تذكر فيه في الشعر الجاهلي وهو تصوير الدموع في كثرتها وغزارة انحدارها وكأنها في غربي ناقة مقتلة ، ينضح عليها، أي يستقى . ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى مشهد آخر وهو وصف الناقة السانية .

قال زهير بن أبي سلمى (٦٦:٢٩):

دانيـــةٍ لشروى، أوقـــفا أدمٍ تسعى الحُـــداةُ ، على آثارهم حزقا **

كـــأن عيني فـــي غربي مقتلة مـــن النواضح، تسـقي جـــنةً سُحقا

تمـــطوُ الرشاء فتجري في ثنايتها مـــن المحالـــة ثَقْبـــا ، رائـــداً قلقاً

لـــها متاع واعـوان، غدونَ بـــه قتـــبٌ وغـربٌ إذا مـا أفـــرغ انسحـقا

وخلفـــها سائقٌ، يحدو، إذا خشيت مـــنه اللـــحاق تـمدّ الصلـب، والعنقا

وقـــابلٌ يتغنى، كلـــما قدرت علـــى العراقـي يـداهُ ، قائـــماً ، دفقـا

---

* الخور : النخيل شبهها بالإبل ، يقال للناقة خوارة إذا كانت غزيرة اللبن . القرون : جمع قرون وهي المفقات من العرق والماء ، ومن معانيها البكرة ايضا .

** شروري ، أدم : موضعان . حزقا : جماعات ، واحدتها حزقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُحيل فـــي جـــدولٍ تحبو ضفادعهُ حبوَ الجـواري ، تـــرى فـــي مائـــة نطقـا

يخرجن مـــن شرباتٍ مـاؤها طحلٌ علـــى الجـــذوع، يخـــفن الـــغم، والغرقـــا

هذه الأبيات تصف وصفا دقيقاً لعملية ري وسقاية المزروعات عند الجاهليين، وتظهر صورة السانية، وقد ذللت بالعمل ، وخصها بذلك لأنها تكون قد تعودت عليه، تخرج الدلو ملأى فتسيل من نواحيها، أما الناقة الصعبة فإنها تنفر وتضطرب في سيرها فتهريق الدلو فلا يبقى منها إلا صبابة، وهذه الناقة من النواضح ، أي قد خصصت للري .

وتبدو السانية، وهي تمدّ الحبل (الرشاء) الذي أوثق احد طرفيه بقتبها ويدور حول بكرة مثقوبة، ويتدلى طرفة الأخر الذي يحمل الدلو بالبئر .

وهذا الغرب (الدلو العظيمة) كلما افرغ بُعد في سيلانه .

ويظهر خلف هذا الناقة سائق يحدو لها فكلما خافت أن يلحقها مدت عنقها وصلبها، واجتهدت في سيرها، لتنجو من تعنيفه وعذابه .

ويقف بجانب البئر قابل يتلقى الدلو ويأخذها ويغني إذا استطاع امساكها، فيصب ما فيها في جدول تحبو فيه الضفادع ، وتقفز حتى اذا ما علا الماء وخافت الغرق اعتلت جذوع الشجر(١٠).

إذن هنالك سائق يسوق السانية وهناك القابل الذي يتلقى الدلو فيصبها وهذه صورة من صور تقسيم العمل وتنظيمه الذي عرفه الجاهليون .

ويظهر في الصورة كذلك بستان النخيل، "جنة سحقا"، حيث تبدو : متباعدة الأقطار والنواحي ، وبالتالي فهي تحتاج الى الماء الكثير لبعدها وسعتها ونلمح كذلك صورة الجداول التي كانوا يحفرونها بين الأشجار لتنظيم عملية الري بالإضافة إلى الحوض (الشربة) ويبدو كهيئة المعلف ، ويتخذ عند أصل النخلة، فيملأ ماء ، فيكون ري النخلة وقوتها من الماء .

هذه الصورة المتقدمة في عملية الري والسقاية -في ظل ظروف ومعطيات الحياة الجاهلية- تعكس صورة مجتمع كان على علم دقيق بالزراعة وما تتطلبه من عناية واهتمام، وترد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صورة السانية كذلك في شعر علقمة الفحل ، وترتبط صورة الدموع المنحدرة من العين، بسيلان الماء من الغرب .

قال علقمة الفحل(٦٣:٥٣) :

فـــالعينُ منّي ، كـأن غربٌ تحط به دهـــــماءُ حاركـــها بالقتـــب مخزوم*

قـــد عُريتْ حقبةً حتى استطفّ لـها كـــترٌ كحافة كير القـــــين ملمـــومُ

كـــأن غـســـلة خطميّ بمشفرها في الخدّ منها وفـــي اللحيـــين تلغـــيمُ

قد أدبر الـــــعرّ عنها وهي شاملُها من نـــاصع القطـــران الـصرف تدسـيم

تسقي مـــذانب قـد زالت عصيفتها حـدورها مـــن أتـــيّ المـــاء مطـمومُ

يريد: أن ما يسيل من عينية كالذي يسيل من غرب تجذبه سانية من الإبل ، ثم ينتقل إلى وصف هذه السانية ، فـتبدو في الصـورة ناقـة سـوداء لما شـملهـا من دسم القطران ، تسـرع معتمدة في احد شقيها، قد عُريت من رحلها سنة، فلم تركب؛ وذلك أوفر لقوتها وأشد لنزعها الغرب، قد ارتفع سنامـها فـأصبح مثل كير القين طليت حيث اصـابها العر (الجرب) ثم أدبر عنهـا، فـبـقي أثر الطلاء عليـهـا ، هذه الناقـة تسـقي جـداول الماء المحـفـورة بين الزروع ، حـتى اصبحت مليئة من تدفق الماء عليها، وهذه الزروع تفرق ورقها، وانفتحت وتباينت من الري .

وفي شعر امرىء القيس(٣٢:٤٨) :

تبصر خليلي هـــل ترى ضوء بـــارقٍ يضيءُ الدُّجا بالليل عـــــن سرو حِمْـــتَرَا

أجار قُسَيْسَـــــاً فالطهاء فمِسْطَحَـاً وجواً فروى نخـــــل قيسٍ بـــن شـمَّرا

ونجد كذلك صورة "القصب" الذي ينبت على الأنهار، فيسقى بماء النهار، لا بماء البئر، قال المسيب بن علس(٣٠:٣١٨) :

---

* الخطمي : شجرة كثيرة النفع، يدق ورقها يابساً ويجعل غسلاً للرأس فينقيه .

التغليم : اثر اللغام وقطعه؛ وهو زبد فمها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهاً يرفُّ ، كـــــأنهُ، إذْ ذُقتهُ، عانـــيةٌ، شجـــت، بمـــاء وفَـــاعِ

ويروي : "بماء يراع" يريد بماء القصب الذي يجري بينه .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة جداول الماء التي تقام على النهر وتجري على الزرع ، قال بشامةُ بن الغدير(١٥:٤٠٧) :

فوقفت فـــي دار الجميع وقـــد جالتْ شـــؤون الـــرّأس بالـــدُّمعِ *

كـــعرُوض فياضٍ عـــلى فـــلجٍ تجـــري جـداولـــهُ عـــلى الـــزّرع

وفي شعر الأعشى ، نجد صورة جريان الماء بين الزروع، وفيها يشبه هوادج (المالكية) في ألوانها الزاهية بروضة يجري خلالها الماء فيبعث الخصب ويشيع البهاء .

قال الأعشى(٩:٣٩٣) :

كـــأن حـــدوجَ المالكيّة عُدوةً نواعـــمُ يجري المـــاءُ رفهاً خلالها **

وفي شعر بشر بن أبي خازم، تظهر صورة حياض الماء التي كانت تبنى في الجراب (المزارع) لدى الزروع . قال بشر بن أبي خازم (٤٧:١٩٣) :

منازلُ مـــن حـيّ عفت بعد ملعبٍ ونـــؤيٌ كحوض الجـــربة المُتهـــدمِ

في شعر عبيد بن الأبرص تبدو صورة الجداول التي تسقي مزارع بني اسد . قال عبيد بن الابرص(٥٢:٥٥) :

تذكرتهم ما إن تجـــف مدامعي كـــأنْ جَـــدْوَلٌ يســـقي مزارعَ مَخْروبِ***

ونلاحظ تكرار تشبيه المدامع بالجدول الذي يسقي المزارع ، وهو تشبيه يتكرر في الشعر الجاهلي وتظهر كذلك صورة الجداول في ظلال النخيل قال عبيد بن الأبرص(٥٢:١٢) :

---

* الفياض : الماء الكثير . عروضه نواحيه . الفلج : النهر الكبير.

** نواعم : جمع ناعمة وهي الروضة ، رفهاً : رفه عيشة دفها (بكسر الراء وفتحها) لان واخصب .

*** مخروب : موضع لبني اسد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو جـــدولٌ في ظـــلال نخـــل لـلمـاءِ مـــن تحتـــه سكـــوبُ

وتبدو في الشعر الجاهلي صورة مذانب الماء ، وهي جداول تشق ليتدفق الماء من التلاع إلى الروض . قال عبيد بن الأبرص (٥٢:١١٤) :

وريـــحِ الخُزامى في مذانب روضةٍ جـــلا دمنهـــا سارٍ مـــن المُزن هطّال

وقال لبيد بن ربيعة (١٩:٦٦) :

نُعطي حقوقاً على الأحساب ضامنةً حتى يـنـــورَ فـــي قُريـــانه الزّهـــر*

والقريان : مجاري الماء الى الرياض والواحد قري .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة المذانب وقد جاءت سواقيها بالماء سريعاً فامتلأت . قال سلامة بن جندل(١٢:١٣٦) :

فتـــرى مـــذانب كـــل مدفعِ تلعـةٍ عـجلتْ ســـواقيها مـــن الإتـــآق

ويبدو أنهم كانوا يبنون الأحواض خوفا من انقطاع الماء إذا شح ماء البئر .

قال أبو دواد الإيادي(٥١:٢٨٣) :

إذا أكـــدى قليبٌ صـــرنَ مـــنهُ إلـــى جـــمات أحواضٍ مـــــلاء

وتظهر في -الشعر الجاهلي- صورة السواقي التي كانت تنظم على نهر الفرات .

قال لبيد بن ربيعة(١٩:٢٧٦):

تجـــري خزائنهُ علـــى منْ نـابـــهُ مجـــرى الـفراتِ عـــلى فراض الجدولِ

وتتكرر صورة الجداول في ظلال النخل ، ويتكرر كذلك تشبيه انحدار الدموع بالجدول الذي يتدفق منه الماء . قال امرؤ القيس(٢٠:١٨٩) :

عيناكَ دمعـــُهما سجـــــالُ كـــأن شآنيـهمـــــا أوشـــــال

---

* يريد : احسابنا ضامنة على أن نعطي الحقوق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو جـــدولٌ فـــي ظلال نخـــلٍ للـــماء مـــــن تحتـــه مجـــالُ

وكذلك نجد صورة غدران الماء قال عبدالقيس بن خفاف البرجمي(٨٧) :

كفيض الـــغدير زفـــتهُ الـدبو رُ يـــجـرُّ المـــدجّجُ منـــها فضـــولا

وفي شعر أبي ذؤيب الهذلي ، تظهر صورة خلجان الماء التي تقام على الفرات لتسقي النخيل .

قال ابو ذؤيب الهذلي (٢٢) :

صـــبا صبوةً بل لجَّ وهو لـــجوج وزالـت لـــها بالأنعمينِ حـــدوجُ

كـــما زال نخـــلٌ بالـــعراق مكمّم أمّر لـــه من ذي الـــفراتِ خـــليجُ

وتظهر صورة الزارع في الشعر الجاهلي فيبدو الزارع يقسم الأنهار بين مشارات الزرع وتظهر كذلك صورة البعير الذي يسقى عليه، فهو ادهم ، متعود العمل .

قال المخبل السعدي(٤٣:١٠٥) :

وكـــأن عيني غربُ ادهـم داجن متـــعود الإقبـــال والأدبـــار

تئقُ يقســـمُ زارعٌ أنـــهاره بالمـــرّ يقسمـهن بـين دبـــارِ

وقد حظي "النبط" بعناية الشعراء الجاهليين، ويظهر أنهم كانوا يهتمون بالزراعة اهتماماً بالغاً .

ويبدو من الشعر الجاهلي أنهم كانوا يسكنون القرى؛ وذلك لأن الزراعة تحتاج الى الاستقرار وتبدو قراهم كثيرة النبات والزروع لعنايتهم الشديدة بالزراعة .

قال بشر بن ابي خازم (٤٧:١٦٩) :

ولـــو جـــاراكَ ابيضُ متلئبٌ قـــرى نبـــط السواد لـــهُ عيـــالُ

تهفُّ يـــداك من هـــذا وهـــذا وتغرفُ مـــن جـوانـــبه السـجالُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأصبحت السفين مخوّيات على القذفات ليس لها بِلالُ

ويبدو من هذه الأبيات أن الانباط كانوا يسكنون العراق، قرب نهر الفرات ويبين لنا الشعر الجاهلي ان الانباط كانوا يزرعون الارض ويوم الحصاد يلبسون لباساً خفيفاً وقصيراً، يساعدهم في الحصاد، وهذا يبين لنا أنهم يتقون في هذا اللباس شدة الحر ايام الحصاد(٨٨:٩٥).

قال الأعشى(٩:٢٤١) :

كأن ثياب القوم حول عرينه تبابين انباط إلى جنب محْصدِ

وفي صورة أخرى للأعشى، يصور "النبيط" وهو يقطنون إلى جانب نهر الفرات ويروون مزارعهم من روافده .

قال الأعشى(٩:٣٨٩) :

فترى النبيطَ عشيةً رواي المزارعَ بالحوافلْ

ويبين لنا الشعر الجاهلي ان النسوة النبطيات كن يعلمن في المزارع .

قال خداش بن زهير(٤٤:٣٤) :

كأنكم نبطياتٌ بمزرعةٍ قشرُ الأنوف دراديرٌ دراديرُ

ويظهر لنا الشعر الجاهلي بعض اعمال الزرّاع ، منها : تغطية الثمار، مخافة الجراد والطير .

قال عبيد بن الأبرص(٣١:٣٥٥) :

كأن ظعنهم نخلٌ موسقةٌ سودٌ نوائبها بالحمل مكمومهْ

ومن اعمال الزراع ايضا ، إصلاح النخيل للتلقيح، ويسمى الشخص الذي يقوم بذلك الآبر.

قال ثعلبة بن صعير بن خزاعي المازني(١٥:١٢٩) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يبرى لـــرائحةٍ يســـاقطُ ريشها مرُّ النجاء ســـاقط لـــيف الآبـــر *

وفي هذه الصورة، يشبه الشاعر الريش الذي يسقط من النعامة بالليف الذي يرميه الآبر.

وقال مالك بن عجلان(٢١) :

جـــددت جنـــى نخـلتي ظـــالماً وكان الثمار لمـــن قد أبـــرْ

ويبدو – في الشعر الجاهلي– أن الزراع كانوا يضعون الدعام لتستند عليها الكروم .

قال النابغة الذبياني(٣٤) :

وبفاحم رجـــــلٍ اثيث نبتهُ كـــالكرم مـالَ عـلى الـــدّعـــام المُسندِ

وكانوا يعتنون بالشجر عناية كبيرة ، يظهر ذلك من شعرهم ، فاذا مالت النخلة في احد شقيها ، كانوا يأتون بحجارة فتدعم بها من الشق المائل .

قال سلامة بن جندل (٩٦:١٢) :

والـــعاديات ، أسابيُّ الدّماء بها، كـــأنّ أعناقـــــها انصـاب تـــرجيب

وكان الزراع يمدون من النهر مجاري وفروعاً خلال مزارعهم قال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب(٧٩:٩) :

مـــا النيل اصبح زاخراً مـــن مدّة جادت لـــه ريـــح الصّبـا فجـرى لـــها

زبـــداً بيابـــــل فهو يسقي أهلهـا رغـــــداً تفجـــرُه النبيـط خـلالـــها

يومـــــاً بـأجـود نائـــلاً منهـا إذا نفـسُ البخيـــل تجهـمت سؤّالـــها

فليس النيل إذا زخر وأزبد ، يسقي أهل بيابل . رغدا ، وتمدّ منه النبيط مجاري وفروعا خلال مزارعهم ، بأجود نائلا من ممدوحه ،حين تتجهّم نفس البخيل لسائلها .

وقال عوف بن عطية يفتخز بقومه(٤١٦:١٥) :

تشقّ الـــــــحزابيّ سلافـــنا كـــما شقـــق الـهاجـريُّ الدُّبـــــارا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يفتخر بقومه : منهم لكثرتهم، وكثرة الخيل فيهم وقدح الحوافر يشقون الأرض الغليظة كما شق الهاجري النهر الصغير بين مشارات الزرع .

وهجر : "مدينة بالبحرين"[١٧].

ونجد في الشعر الجاهلي صوراً لجناة الثمر، وخاصة ثمر النخيل . ففي شعر عبدالمسيح بن عسلة ، نجد صورة قاطف الكرم، وقد قنأت أنامله من القطف .

قال عبد المسيح بن عسلة[١٥:٢٧٩] :

جسدٌ بـــه نضحُ الـــدماء كما قـنـــأتْ أنـــاملُ قاطـف الـــكرمِ

يعني : أنه جرح فأصابه ادم فتلزج به واسود من حمرته .

وقال طرفة بن العبد[١٣:٧٧] :

أنتـــم نخـــلٌ نطيف بـــــهِ فـــإذا مـــا جـــزّ نصـطرمـــهْ

وعـذاريـــــكم مقلصـــــةٌ فـــي دُعـاعِ النخـلِ نجـترمـــهْ

ونجد ايضا صورة التمر المصروم.

قال حاجز بن عوف الأزدي[٢٨:٧٣] :

ورجـلٍ قـــد لفضتم برجـــلٍ عليهـم مثـل مـــا نثر الجريـــمُ

وفي الشـعـر الجـاهلي ، نجـد صـور النخـيل التي حـان صـرامـهـا . قـال خُفـاف بن ندبة[٨٩:٩٤] :

ومـــا ان نخل وجرَ إذا استقلت مُلمـمةً وقـــاربت الصرامـــا

لـــها سحقٌ ومنها دانيـــاتٌ جوانـح يزدحمن بهـا ازدحامـــا

بـــأحسن من ظعائن آل سلمى غـــداة نهـلن ضـــاحيـةً سنامـــا

ونرى في شـعـر عـبـيـد بن الأبرص ، صـورة النخل الطويلة التي ابتـعـدت عن الجـرآم فـلا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنالها أيديهم . قال عبيد بن الأبرص(٥٢:١٢٣):

والخـيل عاكفةٌ عليه كـــــأنـــها سُحُـــقُ النخـــــيل نـــأت عـــن الجرّامِ

ونجد في شعر دريد بن الصمة، صورة "الهاجري" وهو يصب التمر المجروم، وفيها يشبه شن الغارات بالتمر .

قال دريد بن الصمة(٩٠:٧٠) :

فـــــرُ بتّ غارةٍ أوضعتُ فيها كســـحّ الـــهاجريّ جريـــــم تمْـــرِ

وفي الشعر الجاهلي نجد صورة النخل المبسق، وهو النخل المستوي حتى يصعد عليه اللقاط بالكرّ وهو حبلٌ يصعد به الجرّام إلى النخل .

قال المتلمس الضبعي(٥٠:٢٤١) :

والقـصـرُ ذو الشر فـــات من سنـــــدادَ والنخـــــــــلُ المبسَّـقْ

وذكر ابن الأنباري في شرح سنداد ، قال "قال هشام بن محمد الكلبي : كانت إياد بن نزار تنزل سنداد، وسنداد: نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلة ، وكان عليه قصر يحج العرب إليه"(٤٢:٤٨٢).

وتتكرر صورة النخل الذي حان صرامة، ويتكرر كذلك تشبيه الظعائن بالنخل. قال امرؤ القيس(٣٢:٦٣) :

أو مـــا تـــرى أظعانهن بواكراً كـالنخل مـــن شوكـــان حـين صرامِ

وتشيع في الشعر الجاهلي صور زراعة النخيل ، وتعد اكثر صور الزراعة في الشعر الجاهلي ، ويبدو ان شجرة النخيل قد حظيت باهتمام العرب، لذا فقد "وجد النخل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً ، وهو شجر صبور يصبر على العطش طويلاً ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزاً للصحراء (٦) .

ففي شعر تميم بن ابيّ بن مقبل نجد صورة النخيل الذي تغول طوله (تلون وارتفع)،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك صورة المزارع التي شقت وحرثت للزراعة ،

قال تميم (٢٠٤:١٤) :

لـــــهم ظعنٌ سطرٌ تخالُ زهاءهـــا إذا مـــا حـــزاها الآل من ساعة نخلا

بـــوادٍ حجـــازيّ تغول طولُـــه مـــزارعُ فـــي شطئانـــه نجلتْ نجلا

ونجد ذلك صورة النخل الكوارع (التي لا يفارق الماء أصولها) فطلع ثمره، وبدا صلاحه، وكثر حمله .

قال عمرو بن قميئة(١٦١:٤٩) :

تخـــال حمولهـــم فـــــي السّرا ب لـــمّ تواهـــقن سحـــقاً طـــوالا

كـــوارعَ فـي حائـــر مفعـــمٍ تغمـــر حـــتى أتـــا واستطـــالا

وتتكرر الصورة في شعر النابغة الذبياني ، فتبدو صورة النخل الذي تطاول حتى فات يد المتناول ، وقد رباهُ نهر ظاهر . قال النابغة(٢٥٩:٣٤) :

كـــأن حـــدوجهم فـــي الآل ظهراً إذا أفـــرعـــن مـــن نشزٍ سفينُ

أو النخـــلات مـــن جبار قـــرحٍ تربيـــهنّ يعبوب معـــيـــنُ

وكذلك نجد صورة النخل التي شرعت في الماء تستقي بعروقها قبل استقصاء الحناجر .

قال النابغة الذبياني يمدح بني عذرة (١٤٤:٣٤) :

هُـــمُ منعوا نخل القرى من عـــدّوهم بجمع شديـــــدٍ كيـدُهُ للمكـــــاثرِ

مـــن الشارعات الماء بالقـاع تستـقي بأعجازهـــا قبل استقـاء الحناجـــرِ

وكانوا إذا امتدحوا رجلاً بالفضيلة والمجد، قالوا "هو في المجد ليس غرابها بمطار". فضربوه مثلاً في المجد ، لأن المكان إذا اختص بالخصب وكثرة الشجر والنخل قيل : لا يطير غرابة ، ويقصدون بذلك : أنه يقع في المكان فيأخذ منه ما يشبعه، وما يحتاج أن يتحول عنه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال النابغة الذبياني يمدح رهط بني اسد(٩٩:٣٤):

ولرهـــط حـــرابٍ وقـــدّ سورةً فـــي المجـــد ليس غرابُـــها بمُطار

وقال ابو دواد الإيادي(٣١٦:٥١) :

بـــعدما كـــان سربُ قومي حيـــناً لـــهم النخـــل كـــــلُّها والبحار

ويكثر في الشعر الجاهلي الحديث عن جنات النخيل، وقد اشتهرت مناطق معينة في الجزيرة العربية بكثرة نخيلها فنجد في الشعر الجاهلي ذكراً لنخيل "ملهم" .

قال عوف بن الخرع(٤٧٥:٣٠) :

ربـــاعيةً ، كأنـــها جـــذعُ نخـــلةٍ بقـــرّان أو مما تجـــــرّدُ ملـــــهمُ

قال البكري : "ملهم : حصن بأرض اليمامة، لبني غبر من بني يشكر" (١٧).

وقد اشتهرت اليمامة بالزراعة، بل "كانت من المناطق الزراعية الهامة قبل ظهور الإسلام فقد وضعت في بعض مؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب بأنها كانت من اخصب البلاد ارضاً ومن أكثرها مياهاً وزرعاً ونخلاً وخيراً . وقد تركزت الحياة الحضرية في الوديان وحول الآبار والينابيع . ومن اودية اليـمـامـة "العـرض" اووادي بني حنيـفـة الذي كـثـرت فـيـه القـرى والزروع"(٣٧:٩١).

وقال البكري : "العرض : وادي اليمامة "(١٧).

وقد ورد ذكر نخيل الأعراض في شعر امرىء القيس .

قال امرؤ القيس(١٦٨:٢٠) :

وحـــدّثْ بأن زالت بليلٍ حمولـــهم كـــــــنخل الأعـــراض غـــير منـــُبق

وقد افتخر الأعشى بقومه في هجائه علقمة، حيث افتخر بكثرة ثروة قومه وقوتهم، ما يجعلهم حقيقين ان يثيروها حرباً شعواء ، وذكر مساكن قومه في وادي "العرض" فذكر أنها مليئة بالنخيل والزروع وعلف الدواب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الأعشى(٢٠١:٩):

ألـــمْ ترَ أن العرض أصبح بطنـــها نخـيلاً وزرعـــاً نـابتـــاً وفصافصا

واشتهرت خيبر باحتضانها النخيل ولا تزال تتعهدها بالعناية والرعاية ، ويوجد في أرض خيبر "جملة من العيون ومسايل الماء، لا زال الناس يزرعون عليها. وتوجد اثار نقوش وكتابات تشيـر الى سكن كـان بهـذا الموضع يعـود إلى أيام الجـاهليـة . وقـد عـثـر (فلبي) على نقـود قديمة(٦).

وقد ذكر تخيل خيبر في شعر عبيد بن عبدالعزى السلامي .

قال عبيد بن عبدالعزى(٢١) :

شو اكـل عجاجٍ كـــأن زمـــامه بذُكّارةٍ عيطـاءَ مـــن نخل خيبـر

وكان في الجزيرة العربية واحات وقد كان لها "دور كبير في اقتصاد الجزيرة لا يقل شـأنا عن دور المناطق الزراعيـة الواسعـة . والواحات مناطق واسعـة خصـيبـة تشـمل حـقـولاً وبساتين فاكهة وأجمات نخيل يرويها جميعها ينبوع ماء لا ينضب معينة، وكان يقطن الواحات قبائل متحضرة ، اعتمدت الزراعة كمورد رئيسي في حياتها. وقد تحولت بعض هذه الواحات الى مدن شأن يثرب والطائف وغيرها"(٣٨:٩١).

وقد ورد ذكز "جنة يثرب" في شعر امرىء القيس . قال(٤٣:٢٠) :

تبصّر خليلي عل ترى مـن ظعائـن سوالـك نقباً بـــين جزمـــي شَعَبْعَبِ

عـلون بأنطاكيةٍ فـــــوق عقمـة كجرمـــة نخـلٍ أو كـــجـــنّة يـــثربِ

وقـد شبـه بشـر بن أبي خـازم الإبل البـيض الكرام ببـساتين النخـيل في يثـرب لكثـرتهـا وعظمها.

قال بشر بن أبي خازم (٣٩:٤٧):

والمـــانحُ المئة الهجانَ بـــأسرها تـــزُجـى مطافلُـها كجـــنّة يثـــرب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كانت يثرب مشهورة بكثرة نخلها، وهو "نخل زرع سككاً في بساتين على طريقة الأنباط في امصارهم ، لا يخافون عليها كيد كائد . تتخلله السواني والسواقي لتسقيه"[٦].

ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً لنخل "سُميحة" وهي بئر في ديار الأنصار بالمدينة [١٧].

ويبدو -من الشعر الجاهلي- أنها كانت غزيرة المياه عليها نخل .

قال علقمة الفحل[٦٣:٨٦] :

كأن بحاذيها إذا ما تشذرت ... عثاكيل عذقٍ من سُميحة مُرطبِ

وقال الطفيل الغنوي[٣٧:٢٤] :

وأذنابها وحفٌ كأنّ ذُيُولها ... مجرٌ أشاءٍ من سميحة مُرطبِ

وقد اشتهرت هجر بالنخيل، وقد ذكر البكري أن هجر بالبحرين وهو اسم فارسي معرب، أصله هكر[١٧]. وكانت هجر مشهورة بكثرة تمرها ، وبزيادته عن حاجة اهلها ، فكان الأعراب يأتونها للامتياز ، ولشراء التمر منها، وفيها يضرب المثل: (كمبضع تمر إلى هجر) و (كجالب التمر إلى هجر) . وكانت تصدره الى البوادي وإلى اليمامة حين يقل تمرها[٦].

وقد شبه لبيد بن ربيعة "الأظعان" بالنخيل الذي زرعته وغذته "هجر" بالماء حتى كبر.

قال لبيد بن ربيعة [١٩:٥٨] :

كأن أظعانهم في الصُّبح غادية ... طلحُ السّلائل وسط الرّوض أو عُشر

أو باردُ الصيف مسجورٌ ، مزارعُهُ ... سود النوائب مما متّعت هجرُ

جَعْلٌ قِصَارٌ وَعَيْدانٌ ينوءُ به ... من الكوافر مكموم ومهتصرُ

يشر بن رفهاً عراكاً غير صادرةٍ ... فكلها كارعٌ في الماء مغتمرُ

بين الصفا وخليج العين ساكنةً ... غُلبٌ سواجدُ لم يدخلْ بها الحصرُ

يظهر النخل في الصورة ، شديد خضرة السعف حتى صار يضرب إلى السواد ، ويظهر كذلك مدى عناية أهل "هجر" بالنخيل بقوله : "متعت" أي أنها أحسنت نباته وأطالته ، واهتمت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

برية وسقايته .

وتظهر كذلك في الصورة قصار النخل(جعل) وكذلك الطوال (عيدان) ، والمتدلي (مهتصر) الذي تدلى من ثقله وكثرة حمله .

ونلاحظ مدى تقدم انظمة الري لديهم، فهذا النخل يسقى باستمرار كلما احتاج إلى الماء، فيبدو النخل في الصورة، مغموراً بالماء ثابت فيه ، يكرع إذا شاء .

ونجد صورة نخيل هجر مرتبطة "بآل يامن" ويظهر انهم جمعوا بين الاهتمام بالملاحة والسفن ، والاهتمام بزراعة النخل .

قال امرؤ القيس(٢٠:٥٧) :

فشبهتهمْ فـــي الآ لِ لما تكمَّشوا ... حدائـــق دومٍ او سفينـاً مُقيـــــرًا

أو المكرعـــاتِ من نخيل ابن يامنٍ ... دُويـن الصَّفـــا اللاّئي يلـــين المشقرا

سوامقَ جبـــارٍ أثيث فروعـــه ... وعـــالينَ قنْوانـــاً من البُسر أحْمرا

حمته بنو الرَّبـــْداء من آل يـــامنٍ ... بأسيافـــهم حتـــى أقـــرَّ وأوقـــرا

وأرضى بني الرَّبداء واعتمَّ زهـــوهُ ... وأكـمامُهُ حتـــــى إذاما تهـصَّرا

أطـــافتْ به جيلانُ عنـد قطاعـه ... تـــردَّدُ فيـه الـــعين حتـــى تحيَّرا

نلاحظ في هذه الابيـات أنه شبـه الظـــعائن بالنخيـل وهو تشبـيـه يتكرر في الشـعـر الجاهلي.

وهذه النخـيل "لآل يا من " وهـم قـوم من هجـر، وقـد اعـتنوا بنخـيلهم عناية كـبـيـرة، فـقـد تعهدونه بالري والسقاية، حتى أدرك هذا التخل وأينع فتمايلت عروقه، وعالتها فروعه. وقد حماه "بنو الربداء" من أن يوصل اليه حتى أقر على حاله وكمل حمله، وأرضاهم هذا النخل لما رأوا منه كثرة حمله وتنعمه، وتدليه وتثنيه.

وعندمـا حـان صـرامـه، جلبـوا له "صـرام جـيـلان " ويظهـر انهم قـوم تخـصـصـوا في صـرم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النخيل. إذن هذه الابيات تعكس مدى عناية أهل "هجر" بالنخيل وهذه العناية تشمل :الري والسقاية، والحماية، وجني الثمر.

واشتهرت "الخط" ايضا بالنخيل وهي جزيرة بالبحرين قال البكري:"وقيل الخط: قرية على ساحل بالبحرين وهي لعبد القيس "(١٧).

قال الأعشى(٢٢٧:٩) :

فإنْ تمنعوا منا المُشقّر والصّفا فإنّا وجدنا الخطَّ جمًا نخيلُها

يريد : أن حلتم بيننا وبين المشقر والصفا (وهما مدينتان بالبحرين ، فنخيل الخط جمٌّ لا ينفد .

ويذكر في الشعر الجاهلي نخيل محلّم ، ومحلّم نهر بالبحرين وقال الخليل : نهر باليمامة(١٧).

قال بشر بن أبي خازم (١٣٠:٤٧):

كأنّ حُدُوجهم لمّا استقلوا نخيلُ مُحلَّمٍ فيها يُنُوعُ

حيث شبه حدوج النساء وما فيها من الألوان الزاهية بنخيل محلم وقد أينع ثمره فتدلى مُثقلاً بألوانه .

وقال بشر بن أبي خازم (٢:٣٧):

كأن حُمولهُم لما استقلوا نخيلُ مُحلمٍ فيها انحناءُ

ونجد في الشعر الجاهلي كذلك غراس "ابن معنق"، قال امرؤ القيس(١٦٩:٢٠) :

إذا زُجرت ألفيتها مُشمَعِلَّةً تُنيفُ بعذقٍ من غراس ابن مُعْنِقِ

ونجد كذلك "نخيل منود" .

قال ابو دواد الإيادي (٢٨٥:٥١) :

كأن هاديهُ جذعٌ بُرايتهُ من نخل منود في باقٍ من الشّذبِ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد شبه عنق فرسه بجذع اقتطع من نخل مذوذ، وما زال بعض الشذب فيه باقياً .

ونجد كذلك نخل "زارة". قال أوس بن حجر(٢٢:٤١) :

وكـــأن ظعـنَ الـــحيِّ مُدبـــرةً نَخـــــلٌ بـــزارةَ حملـــــهُ السَّعْدُ

ونجد كذلك صورة نخيل "شوكان" قال امرؤ القيس(١١٥:٢٠) :

او ما ترى أظعانـــــهن بواكـــراً كـــالنخل من شوكـــــان حين صرام

ونجد صورة "البردي" الذي نبت بين اشجار النخيل . قال عبيد بن الأبرص(٦٨:٥٢) :

خـــوْدٌ مُبتلةُ العظام كـــــأنّها بـــــرديـــةٌ نبتت خـــــلال غُروس

ويصف زهير بن أبي سلمى بلاده بانها مخصبة أسافلها وأعاليها منيعة حصينة ، قال زهير(١٥٤:٢٩) :

بـــأودية ، أسافلـــــهن روضٌ وأعـلاهـــــا إذا خفـــــنا حُصُون

ونجد في الشعر الجاهلي صورة صوت الحصاد (لذي حان أن يحصد)، عندما تهب عليه ريح الجنوب، قال علقمة الفحل(٤٥:٦٣) :

تخشخشُ أبدانُ الحديد عليهمُ كما خشخشت يبس الحصاد جنوبُ

وفي الشعر الجاهلي ذكر لكروم العنب .

قال امرؤ القيس(١١٥:٢٠) :

أنف كـــــلون دمِ الغزالِ معتقٌ مـــن خمْر عـــــانةَ أو كـــروم شبامِ

قال البكري : "شبام: جبل لهمدان باليمن"(١٧).

وتظهر صورة عناقيد العنب التي أينعت فطالت وتمت.

قال أبو الطمحان القيني(٢١٨:٢٨) :

لـــقد حلَقوا منها غُدافاً كـــــأنهُ عـــــناقيدُ كـــــرمٍ أينعت فاسبكرتِ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال النمر بن توكب(١١٦:٦٥) :

سقيّةٌ بين أنهارٍ ودور وزرعٍ ثابتٍ وكروم جفن

وكذلك نجد صورة عناقيد العنب التي تهدلت من ثقل الثمر. قال تميم بن أبّي بن مقبل(١٤٣:١٤) :

وأسحم مجاج الدهان، كأنه عناقيد من كرمٍ دنا فتصهرا

وتتكرر الصورة في شعر المخبل السعدي. قال(١١٦:١٥) :

وتضلّ مدْارها المواشطَ في جَعدٍ أغمَّ كأنه كرمُ

حيث شبه شعرها الذي يسيل من كثرته في الوجه والقفا بالكرم، لكثرته .

وفي الشعر الجاهلي ذكر للتفاح . قال الأعشى (٣٢٧:٩):

كأن طعمَ الزّنجبيل وتفـ احاً على أري الدّبور نَزل

وفي هذه الصورة يشبه الأعشى مذاق ريق صاحبته العذب بطعم الزنجبيل والتفاح، قد مزجا بعسل النحل، وتتكرر الصورة في شعر عبيد بن الأبرص .

قال عبيد(٤٠:٥٢) :

كأن ريقَ ثناياها إذا ابتسمت كمزجِ شهدٍ بأترُجٍّ وتُفاحِ

ونجد نفس الصورة في شعر أوس بن حجر ولكنه يجمع بين الرمان والتفاح .

قال أوس(١٤:٤١) :

كأن ريقها بعد الكرى اغتبقت من ماءِ أصهبَ في الحانوت نضاح

أو من معتقةٍ وراءَ نشوتُها أو من أنابيب رُمّان وتُفاحِ

وقال الأعشى(٤١١:٩) :

أيام تجلو لنا عن باردٍ رتلٍ تخال نكهتهُ بالليل سُيّابا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسياب: التفاح .

وفي الشعر الجاهلي ذكر للتين .

قال أبو دواد الإيادي(٥١:٣١١) :

كركٌ كلونِ التّـــين أحوى يانـــعٌ متراكبُ الأكـــمام، غير صـــــوادي

وكذلك نجد ذكراً للتين الجبلي قال عبيد بن عبدالعزى السلامي(٢٨:١٢٩):

قضوا ما قضوا من رحلةٍ ثم وجّهوا يمامـــة طـودٍ ذي حماطٍ وعرعـــــرِ

والحماط : التين الجبلي .

ونجد ذكراً للزيتون البرّي ، وذلك في شعر ساعدة بن جؤية. قال ساعدة(٢٢) :

مـــــن فوقه شعفٌ قـــرٌّ وأسفلهُ جـــيٌّ تنـطّقَ بالظّيان والعُتـــــمِ

والعتم : شجر الزيتون البري .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة زراعة الحب الذي يأكله السوس لكثرته كما يقول المتلمس الضبعي(٥٠:٩٥) :

أليت حبَّ العـــراقِ الدّهر أطعمهُ والحَبُّ فـــي القرية يـــأكله السُّوسُ

ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً للريحان . قال تميم بن أبيّ بن مقبل(١٤:٢٦٠) :

خـــودٌ كأن فراشها وضعت به أضغاث ريحـــانٍ غـــــداة شمال

وليس هدفنا في هذا البحث ، ذكر أصناف النبات في الشعر الجاهلي ولكن لنرى مدى شيوع صور الزراعة في الشعر الجاهلي .

نخلص من هذا العرض إلى أن العرب عرفوا الزراعة وكانوا على معرفة -في ظل معطياتهم- بأساليب الري والسقاية، وصور لنا الشعر الجاهلي مدى عناية الجاهليين بمزروعاتهم . ومما لا شك فيه أن التوجه نحو الزراعة هو توجه حضري يتطلب الاستقرار والثبات على الأرض ، ومن الغريب أن نجد ابن خلدون يربط بين صناعة الفلاحة وبين البداوة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ابن خلدون "هذه الصناعة -أي صناعة الفلاحة- ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافة وإحكام الأعمال لذلك وتحصيل اسبابه ودواعيه وهي أقدم الصنائع لما أنها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً إذ لا يمكن وجوده من دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو إذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليه الحضر ولا يعرفونها".(٤٠٦:٥)

فكيف يمكن للبدوي الذي يرحل من مكانٍ إلى مكان بحثاً عن الماء والكلأ أن يقوم بكل هذه الأعمال التي تقوم عليها الزراعة والتي ذكرها ابن خلدون في البداية من إثارة للأرض وازدراعها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي.. إلى آخر هذه الأعمال .

من الواضح أن الاجتهاد الاقتصادي الزراعي هو اجتهاد اقتصادي حضري يختلف في بنيته وأسلوبه اختلافاً كلياً عن الاجتهاد الاقتصادي الرعوي .

وكان هذا التوجه الاقتصادي العربي -في جزيرة العرب- نحو الزراعة "نتيجة أملتها الضغوط المناخية وهي التي أسفرت عن الانشطار الحضاري إلى بدو وحضر . وصحيح أن هذا التوجه الحضاري إلى حيازة الأرض وامتلاكها والتعامل معها واستخدامها في انتاج الغذاء، قد كفل الاستقرار في مواقع الواحات على صعيد جزيرة العرب وفي مواقع الجنوب العربي الأغزر مطراً . وأمن أنتاج الغذاء في هذه المواقع الاستقرار وجنبه التحرك والانتقال وخفف عنه اعباء البحث عن الغذاء. "(١٩٣:٨٥).

إن صور الزراعة التي عرضناها تعكس مجتمعاً حضرياً ، فالشعر الجاهلي يصف لنا مجتمعاً تمثل الزراعة بالنسبة إليه جانباً حيوياً من حياته الاقتصادية وز«باب عيشه . قال الالوسي "الفلاحة : هي من أسباب معايش العرب العامة ، لا سيما سكنه اليمن والبحرين وعُمان وهجر وغالب بلاد نجد، فسكنه هذه البلاد كلها غالب معايشهم من الحرث والغرس، ولهم في غرس النخيل اهتمام وأي اهتمام! وما ورد عنهم في شأنه كلام طويل ، ومعرفتهم بشؤونه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمعرفتهم بالخيل ؛ وحيث أن أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات اكثر نبات العالم، وشجر الدنيا ، اتسع نطاق معارفهم في هذه الصناعة"(٤).

ولكنه يتابع ابن خلدون في مقولته فيقول : "وغالب من تعاطى هذه الصناعة سكنه البوادي منهم" !!!

لقد واجه الحضور العربي الذي أثر الاستقرار والاشتغال بالزراعة ، والاعتماد عليها اعتماداً أساسياً الكثير من التحديات والمتاعب، واستطاع توظيف مهارته لتطويع الواقع الجغرافي الطبيعي ، واستطاع توظيف الأرض توظيفاً مناسباً في انتاج الغذاء(٨٥:١٩٤) .

ومن أهم نتائج الاجتهاد الاقتصادي الزراعي يتمثل في تنظيم حق الملكية وحيازة الأرض وانتقالها بالبيع والشراء او بالتوريث أو بالمنح والهبة . وأدى كذلك إلى ظهور القرى وهي المستوطنات البشرية التي احتوت الناس في مضي الاجتهاد الاقتصادي الزراعي في امر استخدام الأرض في الإنتاج الزراعي(٨٥:١٩٨) .

ويدل على أهمية هذا الاجتهاد الاقتصادي الزراعي شيوع صور الزراعة في الشعر الجاهلي وكلف الشعراء الجاهليين في رسم صور "السناة" (الذين يسقون على السانية" وكذلك تصوير الزرّاع، وجناة النخيل الذي ارتبط ارتباطاً اساسياً بوصف ظعائنهم في رحلتها ، وكأن تشبيه هذه الظعائن الراحلة بالنخيل الثابت الضارب جذوره في أعماق الأرض يجسم نوعاً من النزوع نحو الاستقرار .

وهذا لم نجده في الحديث عن صورة "الراعي" التي بدت معزولة تماما عن الحياة، فذكروا الراعي "المعزب" الذي ينأى بإبله أو غنمه بعيداً عن دنيا البشر والناس التي تتحرك دون أن تأبه بصياحه على غنمه أو إبله النافرة التي تستشرف الوادي ويخاف عليها أن تقع فيه !! كما يقول علقمة الفحل *.

---

*انظر الفصل الرابع "صورة الراعي" .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السادس

التاجر في الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-١-

تاجر السوق

صور التجارة كثيرة في الشعر الجاهلي ،فقد عرف العرب التجارة ، وكانت من أهم أسباب معايشهم ولا سيما سكنة الحجاز ونجد وما شابههما من الأقطار المقحطة القليلة الخصب . فقد كان لقريش في السنة رحلٌ أربع ، وذكروا أن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة أخوة وهم : بنو عبد مناف : أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلاء فأمن به في تجارته الى الشام. والثاني عبد شمس وكان يؤالف الى الحبشة. والثالث : المطلب وكان يرحل إلى اليمن . والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الاخوه فلا يتعرض لهم أحد [٤] .

وقد كان للعرب أسواق في الجاهلية يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها الى بعض ، منها "دومة الجندل؛ وكانوا ينزلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون في اسواقها للبيع والشراء، والأخذ والعطاء ومنها سوق "هجر؛ ، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها ، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم . ومنها سوق " المشقرٌ كمعظم حصن البحرين وكان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة ، و منها سوق (مجنة) وهو موضع قرب مكة ، وكانت تقوم سوقهم قرب أيام الحج، ويحضرها كثير من قبائل العرب ومنها سوق "عكاظ" وهو موسم معروف للعرب بل كان أعظم مواسمهم وأسواقهم وهو نخل في واد بين نخلة والطائف ،وكانوا يتبايعون فيها ويتفاخرون[٤].

وقد عرف اليمانيون بشهرتهم في التجارة وتنقلهم في البلاد يحملون إنتاجهم المحلي من المنسوجات وغيرها . ويبدو أن التجارة لم تكن وقفاً على القبائل التي كانت تسكن في مناطق نفوذ الممالك اليمانية الغابرة ، بل كانت عامة في قبائل اليمانية على اختلاف مناطق وجودها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسكناها(٢١:٣٢٨).

وقد ارتبطت بعض صور التجارة، بالتاجر اليمني في الشعر الجاهلي فقد شبه امرؤ القيس نزول المطر بصحراء الغبيط بنزول الرجل اليماني ذي العياب (أي الكثير المتاع والخول) بموضع فلا يكاد يبرح منه.

قال امرؤ القيس(٢٠:٢٥) :

وألقى بصحراء الغبيط بَعاعهُ

نزول اليماني ذي العياب المخوَّلِ

وتظهر صورة التاجر اليماني الذي طوى برده للبيع في شعر أبي ثمامة بن عازب الطائي

قال أبو ثمامة(٦٦) :

طوى بطنهُ طول الطِّراد كما طوى

بنجران بُرْداً للتجارة تاجرُ

وتظهر كذلك في شعر تميم بن أبيّ بن مقبل، قال تميم(١٤:٦٧) :

غَدتْ عن جبينٍ تمزُقُ الطيْرُ مسكهُ

كمزقِ اليماني السابريِّ المقدّدا*

واليماني : بائع التاجر اليماني .

وفي الأسواق تظهر صورة التاجر الذي يجلب أبله للبيع .

قال قيس بن الخطيم(٣٥:١١٨) :

تسوق أخراهُمُ أولاهُم كما يسُوقُ المُعارضُ الجَلَبَاّ**

وقد شبه النابغة الذبياني آثار الرياح الشديدات الهبوب (الرّامسات) ، التي تغشى

---

* السابريّ : ضرب من الثياب جيد رقيق .

** المعرض : يعرض إبله للبيع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأرض بالتراب وما ترسمه. بالبضائع الجلدية المنقمة ، فوق منباة، يطوف بها بائع في السوق وسط زحام المشترين وجلبتهم (٤٩:١٠).

قال النابغة(٤٣:٣٤) :

كـــأنّ مجـــــرَّ الرَّامســـاتِ ذيولها

عليـــه قـــضيمٌ نمقتـــهُ الصـــــوانعُ

على ظهرِ مبـــناةٍ جديـــــدٍ سيورُهـا

يطـــوف بهـــا وســـطَ اللطيمـــة بائعُ *

وفي صور للأعشى يشبه فيها الأرض التي أصابها المطر فازهرت بالبرد الزاهية الألوان التي نشرها التجار للبيع .

قال الأعشى(٧٧:٩) :

ومَصـــابِ غـــادِيةٍ كـــأن تجارهـــا

نَشـــرتْ علـــيْهِ بُرُودهـا ورِحـــالـــها

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الأسواق وقد نشرت فيها منسوجات من بصرى والمدائن للبيع وذلك في قول سلامة بن جندل(١٣٧:١٢) :

مـــنْ نســـجِ بصـــرى والمدائـــن نُشّرتْ

للبيـــع يـــومَ تَحـــضُّرِ الأسـواق **

وفي قول علقمة الفحل(٨٨:٦٣) :

كُميـت كلـــوْن الأرجـــوان نشـــرته

لبيـــع الـــرداءِ فـــي الصُّوان المُلعَّبِ

---

* اللطيمة : سوق يباع فيه البز والطيب .

** بصرى : قرية بالشام . المدائن مدنية كسرى قرب بغداد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيها يشبه الفرس بالأرجوان نشر ليباع، عليه رداء وشي ، فزاد حسناً .

وفي شعر المثقب العبدي، تظهر صورة "دكان الفرس" (الدرابنة) وفيها يشبه ما بقي من سنام ناقته بعد إعماله لها بدكان الفرس في عظمه وارتفاعه . قال المثقب العبدي(٤٠٨:٣٣) :

فأبقى باطلي والجدُّ منها

كدكّان الدرابنةِ المطينِ

ويبدو ان الغواصين كانوا يبيعون الدرّ الذي يجلبونه من أعماق البحار إلى التجار ثم يقوم التجار ببيعه إلى الناس . ففي صورة للأعشى يشبه فيها صاحبته بالدّرة المصقولة عند التجار . قال الأعشى(١٨٩:٤٤) :

أو بيضةٍ في الدعصِّ مكنونةٍ

أو درةٍ شيفتْ لدى تاجرِ*

وفي شعر معدان بن جواس السكوني ، تبدو صورة امرأة من خزاعة كانت تبيع الحنوط للموتى قال معدان (٢١).

تداركت أخوالي من الموت بعدما

تشاءوْا ودقّوا بينهم عطر منشمِ**

وفي شعر أبي نؤيب الهذلي، صورة "البعير البختي" الموقر براً وشعيراً وهو ينوء بحمله الثقيل .

قال أبو نؤيب الهذلي (٢٢) :

ما حُمّل البختيُّ عام غياره

عليه الوُسوقُ بُرُّها وشعيرها***

---

* الدعص : كثيب الرمل . مكنونة : مخبوءة . شيفت : جليت .

** تشاؤا : تباعدوا . فشم : امرأة من خزاعة كانت تبيع الحنوط للموتى .

*** عام غياره : عام حيرة أهله . تحمل للبختي : فوق طوقك : فوق طاقتك . مطبعة : مملوءة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقـــيل تحمّل فـــــوق طـــــوقك إنـــهـا

مـُطبـــعةٌ مـــــن يأتـــها لا يـــــضيُرهـا

يقصد القرية ، مملوءة من الطعام لا يضرّها من يأتيها لكثرة ما فيها .

وتظهر صورة سوق عكاظ في شعر أبي ذؤيب الهذلي حيث تبنى القباب، ويقوم البيع، وتجتمع الألوف للبيع والشراء، وقد كان سوق عكاظ من أعظم أسواق العرب كما مر معنا .

قال أبو ذؤيب الهذلي(٢٢) :

نـــؤمـــلُ أن تلاقـــــيَ أمّ وهـــبٍ

بمخـــلفـــةٍ إذا اجتمـعت ثـــــقيـفُ

إذا بـــني القـــباب عـــــلى عكـــــاظٍ

وقـــــام البـــــيعُ واجـتمـع الألـــوفُ

وقـــد ورد ذكـــر ســـوق "ذي المجـــاز" فـــي شـــعـــر بشـــر بن أبي خـــازم. قـــال بشر(١٥:٣٣٧) :

فـــــأنّ مقامنـــــا ندعـــــو عليكـــم

بأبطـــــــح ذي المجـــــاز له أثـــــام *

و يظهر في الشعر الجاهلي البضائع الجلدية العكاظية ، وهي مما حمل الى سوق عكاظ فبيع فيها .

قال عدي بن زيد العبادي (٣٨:٧٤) :

ولقـــــد أغـــــــــدو و يغدو صحبتي

بكـــــــميتٍ كـــعُكـــــــاظيٍّ الأدُم

---

* الآثام عقوبة الاثم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أن أسواق العراق كانت تأخذ المكوس* على كل البضائع المباعة،قال جابر بن حُني التغلبي(٢١١:١٥) :

وفـــي كـــلّ أســـواق العـــراق إتاوةٌ

وفي كـــلّ ما بـــاع امرؤٌ مكـــسٌ درهـــمِ

وقد ذكرت الأسواق بلفظ "المواسم" ، وهي أسواق العرب، كانت تقوم في كل سنة مرة . قال قيس بن عيزارة الهذلي(٥٩٧:٢٢):

بأبـــيكَ صاحـــبُكَ الـــذي لمْ تلـــقهُ

بعـــدَ المـــواســـمِ واللّقـــاءُ بـــعـــيدُ

ويحدثنا النابغة الذبياني عن المرأة الحرمية التي عرضت عليه أن يشتري الأدم في سوق "ذي المجاز" فنفرت ناقته من صوتها وكادت تلقي رحله وميثرته عن ظهرها نشاطاً ولم يكن ذلك لإبل رأتها فقال لها النابغة : أحذري لاتكسرك الناقة واذهبي عني فإن الناس قد انتشروا وانقطع البيع وذلك في أسلوب قصصي . قال النابغة الذبياني(١٠٨:٣٤) :

كـــادتْ تساقطـــني رحـــلّي ومـــيثرتي

بذي المجـــازِ ولـــمْ تُحْـــسِسْ به نَعَـــمَا **

من صوت حِرْميّةٍ قالت وقـــد رحلـــوا

هـــل فـــي مخفيّكمُ مـــن يشتـــري أدمـــا

فقلت لمّا سعـــتْ من تحـــت كلكـــلها

لا تحـــطمنّك إن البـــيـــعَ قـــد زَرِمَـــا

---

* المكس : دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق الجاهلية .

** الحرمية هنا : امرأة من أهل الحرم. يقال حرمي وحزمي .

المخف : الذي معه الخف من المتاع لم يثقل بغيره .

من تحت لبتها : يحذر المرأة من الناقة، يقول : احذري الناقة .

زرم : قل وانقطع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الصورة تعكس ما نراه اليوم في أسواقنا حيث يعترضنا بائع متجول فنحاول أن نصرفه عنا فيأبى إلا أن يوقفنا فالإنسان هو الإنسان في كل مكان وآن (٤٩:١٠).

ويرد في الشعر الجاهلي ذكر النقود، ويبدو ان التعامل في الأسواق الجاهلية كان بالنقود بالأضافة الى نظام المقايضة .

قال أوس بن حجر(١١٠:٤١) :

ومـــــا عـــــدلتْ نفسي بـنفسكَ سيـــّداً

سمـــعتُ بـــه بـــين الـــدّراهـمِ والأدم

ومن نقود العرب التي يرد ذكرها في الشعر الجاهلي : "النمّي" وقد ورد في شعر النابغة الذبياني .

قال النابغة(٢٠٤:٣٤) :

وما دفـــت وهـــي لـــمْ تجربْ وبـــاعَ لـــها

مـــن الفصـافـصِ بالنمـــّيّ سِفسِـــيرُ*

ومنها "الدراهم" وقد ورد في شعر زهير بن أبي سلمى. قال زهير(١٩:٢٩):

فتغـــــللْ لكـــم ما لا تغـــــلُّ لأهلـــــها

قـــرىً بالعراق من قفـــيزٍ ودرهـــــمِ **

يريد: فتعطي لكم هذه الحرب حينئذ ضروباً من الغلات لا تعطيها قرى بالعراق لأهلها من مكيال ودرهم. يريد : إن المضار المتولدة من هذه الحرب تزيد على المنافع المتولدة من هذه القرى.

---

* الفصافص : الرطبة الواحدة منها ، فصفصح، السفسير : الذي يقوم عليها بمصلحتها . باع لها : اشتري لها . ما رفت : دنت .

** القفيز : مكيال ثمانية مكاكيل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك "الدرهم الكاري" ، قال حاتم الطائي[٩٢] :

ما يأكل الـــــدرهمُ الكـــــاريُّ خرقتـــــنا

ألا يـمـــــرَّ عـلـيـــها ثـــــم ينـطلـــــق

ومنها "الدينار الذهبي" قال قيس بن الخطيم[٩٠:٣٥]:

ووجـــــهاً خـــــلتهُ لمّا بـــــدا لـــــي

غـــــداةَ البـــــينِ دينـــــاراً نقـــــيدا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

تاجر الخمر

تشيع صورة تجار الخمر في الشعر الجاهلي، حتى غلب لفظ التاجر على بائعها .

قال صاحب اللسان : "وقيل :أصل التاجر عندهم الخمار يخصونه به من بين التجار. ومن حديث أبي ذرّ : كنا نتحدث أن التاجر فاجر؛ والتجرُ : اسم للجمع، وقيل هو جمع"(١).

ويبدو أن السبب يعود إلى أن أكثر صور التجارة التي تمر في الشعر الجاهلي هي صور تجار الخمر(٤٨:١٠).

ولقد كلف الشعراء الجاهليون بوصف الخمرة وتجارها وسقاتها ومجالسها؛ إذ كانت الخمر في العصر الجاهلي من مظاهر السراء والثراء ومن دلائل المروءة والنبالة ومن أسباب العزة والفتوة فأقبل عليها كل من يريد أن يتسامع الناس عنه أنه سري ثري، كريم نبيل، ولم ينحرف عن معاقرتها إلا قلة ضئيلة رأت فيها غير ما يراه الآخرون، ولعل أولئك الذين انحرفوا عنها قد شاركوا الآخرين في وصفها وأسهموا معهم في نعتها(٩٣).

ولقد ارتبط الحديث عن تجار الخمر في الشعر الجاهلي بالحديث عن مجالس اللهو والشراب . ويظهر أن الأعشى قد تميز عن الشعراء الجاهليين في الحديث عن الخمرة وشؤونها، فهو الذي أكمل صورة الخمر في الشعر الجاهلي، وكتب أبياته في فنية رائعة واقتدار، فجاءت آية في التصوير، ومثالاً في الأداء (٩٤).

ففي صورة للأعشى يبدو تاجر الخمر أميناً لا يقدم إلا أجود الخمور، يأتي إليه الشاربون فيغترفون من خمرته بالأقداح : صغيرها وكبيرها، يحاسبه الندماء مدققين في حسابهم.

قال الأعشى(٣٣٩:٤٤) :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقـــد شهـــدتُ التـــاجـــرَ الـ أمـــانَ مـــوروداً شـــرابـــه*

بالصّحـــــن والمصحـــــاة والـ إبريـــق يحـــجبـــها علاّبـــهْ

فـــإذا تحاســـبهُ النـــدا مـى لا يُعـدّينـــي حسابـــهْ

وفي صورة أخرى للأعشى يبدو تاجر دكان الخمر علجاً غير عربي، فيصفه بأنه ازرق العينين ، ويسميه حداداً، وكأنه حارس على هذه الخمرة يذود عنها وكأنه يذود كنزاً ثميناً، فهو ضنين بها، يساوم في ثمنها مغالياً ، ويبذل الأعشى في ثمن الخمر ناقة بيضاء ولكن التاجر يتلكأ في إجابتهم وتبدو صورة الطمع والجشع على التاجر، وقد علم بحرصهم عليها وكلفهم بها ، فيطلب منهم أن يزيدوه تسعة. وبعد حوار طويل يتمكن الأعشى من الحصول على بغيته.

قال الأعشى(٩:١١٩):

فقمنـــا ولمـــّا يصـــحْ ديكنـا إلـى جونـةٍ عنـد حـدّادهـــا**

تنخلها مـن بكـــار القطـــاف أزيـــرق آمـــنُ إكسادهـــا

فقـــلنا لـــهُ هـــذه هاتـــها بأدمـــاء فـي حبـــل مقـتادهـــا

فقـــال تزيـدُونـني تســـعةً وليسـت بعـــدل لأنـــدادهـــا

فقـــلتُ لمنصـــفنا أعـــطهِ فلـــمّا رأى حـــضر شـــهادهـا

أضـــاء مـــظلـــّته بالســـرا جِ واللـــّيل غامـــرُ جـــُدادهـا

دراهمـــنا كلـّهـــا جـــيّدٌ فـــلا تحبسنّـا بتـــنقادهـا

ويظهر في الصورة دكان الخمر : فهو خباء كبير فيه سراج، ويظهر ايضا مقدار حرص التاجر على تمييز النقود جيدها من رديئها، ويظهر كذلك أن البيع كان بالنقد .

---

* الصحن : القدح الضخم . المصحاة : قدح من فضة يشرب به .

العلاب : جمع علبة، وهو قدح ضخم من الخشب.

** جونة : سوداء يقصد خابية الخمر لأنها كانت تطلى القار . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي شعر الأعشى ايضا تظهر صورة تاجر دكان الخمر، الذي ظل شهراً كاملاً في "عانات" بالشام يختار خمرته بعناية وينتقيها، ثم حبسها عنده، يرجي ما يعود عليه منها عاماً بعد عام .

قال الأعشى(٢٤٧:٩) :

تخـــيرها أخـــو عانـــات شهراً

ورجـــــى أوْلها عامـــاً فعـــامـــا

يؤمـّل أن تكـــون لهـــا ثـــراءً

فأغـلـــق دونهـــا وعـلا سِوامـــا

وتظهر صورة تاجر الخمر "اليهودي" في قصيدة أخرى للأعشى ، حيث يبرز خمرته المختومة التي لم تفض، ولم تعبث بها يد، وقد ضربها الريح في دنها، يصلى عليها تاجرها مكبراً. قال الأعشى(٨٥:٩):

وصـــهباء طـــاف يهوديّهـــا وأبـــرزهـــا وعـليها خـُتـِــمْ

وقابلهـــا الرّيـــح فـــي دنّـــها وصـــلى على دنهـــا وارتسـمْ

وتتكرر الصورة عند الأعشى ، حيث يبدو تاجر الخمر كأنه الحارس الذي يحرس كنزاً عظيماً، فإذا ذبح الدن فسالت منه الخمرة، راح يتمتم ويهمهم مثنياً عليا مباركاً ، وكيف لا يفعل ذلك، وخمرته هي خلاصة خمر بابل . يقول الأعشى(٢٤٣:٩) :

لها حـــارسٌ ما يبـــرحُ الدّهر بيتهـــا

إذا ذبحـــت صـــلى عليـــها وزمزمـــا*

ويبدو التاجر في هذه الأبيات علجاً غير عربي .

---

* ذبحت : أي ثقب إناؤها فسالت منه كما يسيل دم الذبيح .

زمزم العلوج : تراطنوا على أكلهم وهم صموت لا يستعملون لساناً ولا شفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتكرر صورة تاجر الخمر اليهودي في شعر عدي بن زيد العبادي، ويبدو التاجر حريصاً على خموره، فقد صانها حولين كاملين، مما جعل رائحتها زكية، يقول عدي بن زيد (٧٧:٣٨) :

باكرتهنَّ قرْ قفٌ كدم الجو

فِ تربك القذى كميتٌ رحيقُ

صانها التاجر اليهودي حولي

ـن فأذكى من نشرها التعتيقُ

ثم فُضّ الختام عن حاجب الدّ

ن وحانتْ من اليهودي سوقُ

ويبدو أن تجار الخمر كانوا يضعون الرايات (الغايات) على دكاكين الخمر ليعرفها طالبو الخمر.

يقول لبيد بن ربيعة (٣١٤:١٩):

قد بت سامرها، وغاية تاجرٍ

وافيتُ إذ رُفعتْ وعزَّ مُدامها

وقد ورد لفظ "البيّاع" بدل "التجار" ويعنون به تاجر الخمر، ويظهر في الصورة علجاً غير عربي، فقد وصفه عبيد بن الأبرص بأنه "ذو شارب أصهب"، والأصهب هو الرجل الذي يخالط بياض شعره حمرة إلى صفرة، وتلك صفة للأعاجم . ويظهر أن التجار كانوا يغالون في ثمن خمورهم، لجودتها من جهة ولكلف العرب الجاهليين بها. يقول عبيد بن الأبرص (١٢٨:٥٢) :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقتْ

صهباءَ صافيةً بالمسكِ مختومةْ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ممـــا يـــغالي بهـــــــا البيّـــــاعُ عتقـــهـا

نو شـــاربٍ أصهـــبٌ يـــغلي بـــها الســـيمْة

ويظهـر أن الندمـاء كـانوا يذهبـون الى دكـاكين الخـمر متـأنقين، وينفـقـون جلّ مـالهم في سبيله. يقول الأسود بن يعفر(٢٩:١٦) :

ولقد أروح علـــى التـــــجار مـــــرُجـــــلاً

مُـــذلاً بمـــالي ليـّـناً أجـــــــيادي*

وفي شعر ساعدة بن جؤية، يبدو تاجر الخمر، اقط الشعر، قد ثقبت اذناه ففيهما تومتان، وهو من العجم الذين لا يفقهون الكلام .

يقول ساعدة (٢٢) :

ومـــزاجهـــــا صهـــباء فـــتّ ختامـــــها

قرطٌ مـن الخـُرس القطـــاطُ مـــثقـــبُ **

وفي شعر المتنخل بن عويمر الهذلي، يبدو تاجر الخمر في الصورة لئيماً، بخيلاً، أعجمياً .

يقول المتنخل الهذلي(٢٧٨:٦٨) :

تمشـــي بيـــــــننا ناجـــودُ خـــمْرٍ،

مـــع الحِـــرْض الضّـــياطرة، القِطاط ***

ويظهر أن اليهود كانوا مشهورين بتجارة الخمر في الجاهلية. وكانت هذه التجارة تدر عليهم الأرباح الوفيرة. يقول المرقش الأصغر(٢٤٢:١٥):

---

* مرجلاً ، من الترجيل : وهو تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه .
ولين الجيد : كناية عن الشباب .

** قرطٌ : عليه قرطةٌ ، يعني الخمّار .

*** الناجود : الإناء الذي يوضع فيه الشراب. الحرض : البخلاء .
الضياطرة : اللئام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سباهـــا رجـــالٌ من يهودَ تباعـــــــدُوا

لـــجيلانَ يُدينها من السوق مُربـــــــحُ

يريد : أن هذه الخمرة اشتراها تجار يهود من جيلان وهي من بلاد العجم .

ويظهر في الشعر الجاهلي، أن الذين كانوا يترددون على تجار الخمر، كانوا يساومونهم في ثمنها . وقد تصل هذه المساومة إلى الحد الذي يغضب فيه التاجر ويثور . ويقول الأعشى (٣٦٩:٩) :

إذا سُمت بائعـــها حقـــــــهُ

عنفتُ وأغضـــــبتُ تجـــارهـــــا

ويتكرر ذكر التجار في الشعر الجاهلي، ولكن دون ان تتضح صورة التاجر .

نجد ذلك مثلاً في شعر بشر بن أبي خازم (٧٦:٤٧) :

وخنذيذٍ ترى الـــــــفُرمول منـــــــهُ

كطيِّ الـــــــزقِّ علقةُ التجـــــارُ *

وفي شعر ضمرة بن ضمرة (٢٨٤:٤٣) :

الآن ســـــــــاغ لي الشراب ولم أكنْ

آتـــــــي التجـــــار ولا أشدّ تَكَلُّمي

وفي شعر لبيد بن ربيعة (٩٦:١٩) :

يطرَبُ آناء النـــــــــــهارِ كأنـــــهُ

غويٌّ سقاه في التِّجـــــــــار نديـــمُ

وقال لبيد ايضا (٦٥:١٩) :

---

* الخنذيذ : الفحل . الفرمول : علاف الذكر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأربـــح التجـــرَ إنْ عـــزّتْ فضـــالُهمُ

حتـــى يعودَ ، سُليمْـــى ، حولَه نفـــر

وقال ايضا(١٩:٢٥٠) :

كرامٌ إذا نـــاب التجّار ألـــذّةٌ

مخـــاريقٌ لا يرجُون للخمر واغلا*

أما دكان الخمر فتظهر بلفظ "الحانوت" . قال أوس بن حجر(٤١:١٤) :

كـــأن ريقها بعد الكرى اغتبقت

من ماء أصهبَ في الحانوت نضـــاح

نخلص إلى أن الأعشى ، قد اعتنى كثيراً بوصف تاجر الخمر فقال مرّة إنه فارسي أو رومي أزرق العينين (أزيرق) وقال في موضع آخر أنه يهودي، واعتنى بوصف مجالس الخمر وصفاً دقيقاً ، قلما نجده عند الشعراء الجاهليين، ويبدو أن الأعشى كان صاحب لذة لا همّ له في الحياة إلا إشباع حاجته من الخمر والنساء والطعام ، يهلك فيها ماله، ويعصي فيها كلّ نصيح ويتخطى كلّ عرف(٩٥:٤٨) .

وجدير بنا ونحن نعرض لصورة تجار دكاكين الخمر أن نذكر أن تاجر الخمر قد ورد في شعر قيس بن عاصم بصورة قبيحة، فقد صوره خبيثاً، كأن " كأن عُثْنونه أذناب أجمال" .

يقول قيس بن عاصم(٤٣:١٥٥) :

وتـــاجر فـــاجرٍ جاء الإلهُ بهِ

كـــأن عُثْنونهُ أذنابُ أجمـــالِ

جـــاء الخبيث ببيسانةٍ تركـــتْ

صحبي وأهْـــلي بلا عقلٍ ولا مـــالِ

---

* مخاريق: يتخرقون في العطاء . والواغل : الطفيلي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٣-

غلمان الحانات

تتردد صورة غلمان الحانات في الشعر الجاهلي، وتظهر مُلازمة لدكاكين الخمر (الحوانيت) ، إذ تحتاج حوانيت الخمر إلى من يقوم بخدمة المتردين عليها من الندماء وطلاب اللهو واللذة . ويبدو أن العمل الأساسي الذين كانوا يقومون به هو صبّ الخمور في قوارير الخمر للندماء ، والقيام على خدمتهم . وبالتالي فغلمان الحانات هم سقاة الخمر .

يقول الأعشى(٣٦٩:٩):

وبرٌ بطُنّا مُعملٌ دائمٌ

فقد كان يغلبُ إسكارها *

ونو تُومتينِ وقاقزّةٌ

يعلٌّ ويُسرعُ تكرارها

يبدو "الساقي" في الهذين البيتين قد وضع في أذنيه (تومتين) أي لؤلؤتين ، نشيطاً ، يحمل قارورة الخمر الكبيرة ، ويسرع تكرارها .

وفي صورة اخرى للأعشى، يبدو "الساقي" مسرعاً في تلبية حاجات الندماء، يصب الخمر سريعاً حين يستعجله الشاربون . يقول الأعشى(٢٩١:٩) :

وشمُول تحسبُ العينُ إذا

صُفّقتْ وردتُها نورَ الذُّبحْ **

---

* القاقزة والقاقوزة إناء من آنية الشراب (معرب) .

عَلّة : سقاة المرّة الأولى .

** الشمول والمشمول : الخمر الباردة التي ضربتها ريح الشمال فبردت .

الذبح : بنت حلو يؤكل، وله زهرة حمراء، توح : فعل أمر من توحى أي اسرع واستعجل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثل ذكي المســـــك ذاكٍ ريحـــــها

صبَّـــها الســـــاقي إذا قيل تـــــوحْ

وفي شعر الأسود بن يعفر، تظهر صورة "غلام الحانة"، منطقاً ، قد وضع في أذنيه تومتين (لؤلؤتين) ، مشمّراً، وقد احمرت أنامله ، حتى أصبح ما في يديه يشبه حُمرة الفرصاد (التوت)، يسعى بالخمور بين النداماء . يقول الأسود بن يعفر(٢٩:١٦):

ولـــــقد لـــــــــهوتُ وللشباب لذاذةً

بسلافةٍ مُزجتْ بمـــــــاء غـــــــوادي

من خـــــــمْر ذي نطفٍ أغن مُنـــــــطق

وافى بها لـــــــــدراهم الأسجـــــادِ*

يسعـــــــى بـــــــها نو تومتين مُشمِّرٌ

قنأتْ أناملـــــــهُ من الفرصـــــــادِ

ويظهر أن عمل غلمان الحانات، لم يكن مُقتصراً على الخدمة فقط، وأنما كانوا يقومون بالترجمة ، لأن باعة الخمر عجم يحتاجون إلى من يُفهم الناس كلا مهم. يقول الأسود بن يعفر(٦٠:١٦) :

حتى تناولـــــــها صهـــباء صافـــــية

يرشو التّجـــــار عليها والتراجيـــــــما**

وفي صورة أخرى، يظهر الساقي يطوف بالخمر وقد علق في أذنيه لؤلؤتين ، وشدّ على فمه وأنفه خرقة بيضاء ، يسرع في رشاقة ليلبي حاجات الشاربين من الخمر التي تبدو حين يصبها في طاسه الفضي، كأنها قد مُزجت بعصارة شجر "البقّم" الحمراء .

---

* دراهم الاسجاد : دراهم القياصرة . قنأت : اشتدت حمرتها .

** التراجيم : خدم من خدم الخمارين . يريد التراجمة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول الأعشى(٣٤٣:٩) :

ببابل لـــــم تُعصرْ فجـــــاءت سُلافة

تخالـــــطُ قنديداً ومسكـــــــاً مُختّما*

بطـــــوف بها ســـــــاقٍ علينا مُتومٌ

خفيفٌ ذفيفٌ مـــــــا يزال مُفـــــدما

بكـــــأس وإبـــريق كـــأن شرابـــهُ

إذا صـــُـــبّ فـــي المصحـــاة خالط بقّما

وقد يكون هناك اكثر من ساقٍ في الحانة. يقول الأعشى(٦٧:٩) :

يصـــــُبُّ لـــــها السّاقيـــان المـــــزا

جَ منتصـــف اللـــيل من مـــــاء شنّ **

ومن الأعـمـال التي كـان يقـوم بهـا غلمـان الحـانات تقـديم الطعـام للندامى ، يقـول الأعشى(٢٦٩:٩) :

وقد أقطـــــع اليومَ الطويـــــــلَ بفتيةٍ

مساميحَ تُسقى والخبـــــاءُ مـــــــرُوّقُ

ورادعـــــــةٍ بالمسك صفراء عندنـــــا

لجسّ النـــــــدّامى في يد الـــدّرعِ مفتقُ

إذا قلتُ غـــــنّي الشرْب قـــــامت بمَزْهرٍ

يكـــــاد إذا دارت لـــــه الكـــفُّ ينطقُ

---

* بابل : مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد بثلاثة وتسعين كيلومتراً والعرب ينسبون إليها القند والقنديد : عسل قصب السكر (فارسي معرب) .

** الشن : القربة الخلق التي نعم جلدها من كثرة الإستعمال .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشـــــــــاوٍ إذا شئنا كميشٌ* بمســـــعرٍ .

وصهباء مزْبـــــادٌ إذا مـــــــــا تُصفّقُ*

في هذه الأبيات تبدو الحانة في خباء قد أظل بابه سقف ممدود ، وتظهر في الحانة جارية قد طلت جسمها بالمسك والزعفران فبدت بشرتها صفراء، يتحسس الندماء جسمها من فتوق قميصها المشقوق الأكمام، إذا طلب منها الغناء، نهضت إلى مزهرها، تدير أصابعها على أوتاره، فتنبعث منه أنغام كأنها الكلام ويشوي اللحم خادم نشيط وتبدو الخمر حمراء يعلوها الزبد حين تصفى من إناء إلى إناء .

هذه الأبيات صورة متكاملة للحانة، وما فيها من متع وخدمات توفرها للندماء . والذي يلفت النظر ذلك الرضى الذي يشعر به الندماء في هذه الحانات ، والتي تعكس مدى حرص تجار الحانات على توفير اقصى حد ممكن من الخدمة وذلك لاجتذاب طلاب اللهو واللذة إلى حاناتهم .

وتتكرر هذه الصورة في قصيدة اخرى للأعشى ، يقول الأعشى(١٠٩:٩) :

وقد غـــــدوْتُ إلى الحـــــانوتِ يتبعُني

شـــــــاوٍ مشلّ شلولٌ شلّشُلٌ شـــــــولُ

في فتية كسيوف الـــهند قد علـــــــموا

أن ليس يدفع عن ذي الحيلـــــة الحيـــــلُ

نـــــازعتهم قضب الريحـــــان متكئاً

وقـــــــــهوة مُزةً راووقـــــــها خضلُ

لا يستفيقون منـــــــها -وهي راهـــنةً

إلا بهـــــات، وإن علـــــوُّا وإن نـــهلُوا

---

* كميش : مسرع .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يســـــــعى بها نو زجاجاتٍ لـــــه نطفٌ

مُقـــلصٌ أسفل السربـــــــــالُ معتملُ *

ومُستجيب تخـــــــالُ الصنجِ يُسمعـــــهُ

إذا تُرجـــــــــعُ فيـــه القينة الفُضُـــــلُ

هذه الأبيات تعكس صورة تتكرر في الشعر الجاهلي . يقول الأعشى(٣٠٥:٩) :

وتظـــــــــل تجري بيننـــــــا وُمفـــــــــدّمٌ يسقي بهـــــا

هـــــــــــزجٌ عليه التومتـــــــا نِ إذا نشاءُ عـــــــلا بهـــــا

فالساقي في هذه الأبيات يبدو وقد شدّ على فمـه خـرقة بيضاء وعلق في أذنيه لؤلؤتين ، يسـيـر في خـفـة ونشـاط، ويعـدو بالكأس مسـرعاً يلبي النداء، يترنم وينشد وهو يسـعى بزجاجاته .

والذي يلفت النظر أن الساقي يظهر في الصورة مفدماً قد وضع على فمه الفدام، والفدام هو خرقة تشده العجم على أفواهها عند السقي ، والواحدة فدامة، ويبدو أن غلمان الحانات كانوا من الأعاجم .

ومما يقوي هذا الرأي قول علقمة الفحل(٧٠:٦٣) :

ظلـــت تُرقرف في النـــــاجود يصفقها

وليـــدُ أعجم بالكتـــــــان مفـــــدومُ

يقول الأعلم الشنتمري شارح الديوان : "مفدوم" على فمة .

الفدام : وهي خرقة تجعل على فم الساقي لئلا يسقط من ريقه في الكأس شيء" .

ويقول حسان بن ثابت (٣٨١:٦٢) :

---

* معتمل : يعمل ويخدم دائما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسعى بهـــا أحمـــــــــر نو برنسٍ

مختلف الذّفرى شديـــدُ الحـــــــــزامِ*

فالأحمر هنا غلام غير عربي من الأعاجم نو برنس قد وضع الطيب على ذفريه .

وتتكر صـــورة الغـــلام الذي يضع في أذنيـــه لؤلؤتين في شـــعـــر حـــســـان بن ثابت . يقول(٣١١:٦٢):

ولـــــقد شـــــربتُ الخمر في حـــانوتها

صـــــــــــهباء صافيـــــــة كطعمِ القُلفُلِ

يسعى علَيّ بكـــــــــــــأسها مُتنطّفٌ

فيعلني منهـــــا لو لـــــــم أنهـــــــلِ

وكذلك في شعر بشر بن أبي خازم . قال بشر(١٥٩:٤٧) :

وقـــــــهوة تُنشقُ المُستام نكهتُـــــــها

صهباءَ صافيةٍ من خمْر ذي نـــــــــطفِ**

ويبدو "الساقي" في شعر لبيد، طيب الأردان، غير ملوم ولا مشؤوم ، يضمن ما ينقص من شراب الندماء، . قال لبيد بن ربيعة(٧:١٩) :

إذا أرسلتْ كـــفُّ الوليـــــد كعامـــــةً

يمُجّ سُلافـــــاً من رحيقٍ معـــــــــطّبِ

فمهمـــــا نغض منه فـــــإن ضمانهُ

علـــــــى طيّب الأردان غـــــير مُسبّبِ

---

* الذفري : العظمتان الشاخصتان خلف الأذنين – وهما أول ما يعرق من الإنسان والحيوان .

** المستام : الذي سيتام السلعة للشراء ، من السوم في البيع والشراء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي شعر سلامة بن جندل يظهر "الساقي"، خفيفاً كريماً ، قد شد وسطه بنطاق . قال سلامة بن جندل(١٢:١٥٧) :

كريـــحِ ذكيّ المشـــــــك بالليّل ريحهُ

يُصفقُ في إبريق جعـــــــدٍ منطّـــــقِ*

وفي صورة للأعشى يبدو الساقي فيها موشماً ، أنامله بضة، قد صبغتها الخمر الحمراء، فكأنها دم الفصاد. يقول الأعشى(٩:١٧٩):

صهبـــاء صـــــافيةً إذا ما استودفت

شُجّتْ غوارِبُـــــها بمـــــاءِ غـــــوادي**

بُموشمٍ رخـــص البنان كـــــــأنما

خضبت أناملـــــه بِعِرْقِ فِصَـــــــادِ

---

* جعد : غلام جعد : أي خفيف كريم .

*** استودفت : قطرت وروقت . شج الخمر : صب عليها الماء .

غوارب جمع غارب وغوارب الماء أعالي موجه. غوادي جمع غادية وهي السحابة .

رخص : طري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٤-

القوافل التجارية

كانت التجارة البرية تنقل بطرق القوافل، ولم يكن من السهل على التجار في ذلك الزمن التوسع في تجارتهم والمجازفة بالمتاجرة مع أماكن أخرى بعيدة، إذ إن التاجر يحتاج إلى حماية حياته وأمواله ، لهذا صار لزاماً على التجار الالتجاء إلى نظام القوافل ، ولا سيما القوافل القوية الكبيرة، التي تعتمد حماية نفسها(٦).

ولما كانت الطرق التجارية تقع في مناطق نفوذ بعض القبائل ، عمد أرباب القوافل إلى استرضاء هذه القبائل لحماية تجارتهم وأنفسهم، وقد كان تجار مكة سباقين إلى ذلك، فقد اتبعوا أساليب مختلفة في استرضاء القبائل ، منها استرضاؤهم بالمال وإشراكهم معهم في رأس المال، بتقديم ما عندهم من سلع يتوسطون لهم ببيعها في الأسواق ، ودعوتهم لزيارة مكة وتقديم الهدايا لهم، ثم ضبط كل ذلك بعقود (الإيلاف) التي وضعت قواعد أصول وحقوق مرور قوافل مكة وقوافل تجارها الخاصة في كل الأيام والمواسم بأمن وسلام (٦).

وقد ذكر ابن حبيب حديث الإيلاف ، وخلاصته أن قريشاً كانت تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر ، فدخل عليه ، فلما رآه وكلمه أعجب به، وكان يرسل إليه فيدخل عليه ، فلما رأى مكانه منه قال له هاشم : أيها الملك! إن لي قوماً وهم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لهم كتاباً تؤمنهم وتؤمن تجاراتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيكونوا يبيعونه عندكم فهو أرخص عليكم. فكتب له كتاباً بأمان من أتى منهم فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً ، والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو أمان الناس على أن قريشاً تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملانها ويردّون إليهم رأس مالهم وربحهم، وعندما قدم هاشم مكة أتاهم بأعظم شيء أتوا به فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هاشم يجوزهم ويوفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب(٣١:٩٦).

وبالتالي، كان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز يتخفر بقريش ما داموا في بلاد مضر، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر، ولا يهيجهم حليف لمضري . كان ذلك بينهم . فكانت كلب لا تهيجهم لخلفهم بين تميم . وطيء أيضا لا تهيجهم لحلفهم بني أسد . وكانت مضر تقول : "قضت عنا قريش مذمة ما أورثنا اسماعيل من الدين" . فإذا أخذوا طريق العراق ، تخفروا ببني عمرو بن مرثد، من بني قيس بن ثعلبة، فتجيز ذلك لهم ربيعة كلها(٢٦٤:٩٧).

وليس هدفنا هو الحديث عن التجارة في العصر الجاهلي ، وإنما أوردنا هذه النصوص لنبين أن التجارة في العصر الجاهلي كانت إلى حد كبير تجارة منظمة وكانت تمثل جانباً أساسياً في حياة الجاهليين، مما دفعهم إلى تنظيم كتب الأمان (الإيلاف) وكتابتها لضمان حماية التجار وأموالهم وتجارتهم .

وأعترف بأنني لم اعثر على صور للقوافل التجارية، ولكني وجدت ذكراً للقوافل الآتية من الشام التي كانت تقل خمراً وتدخل بها إلى سوق عكاظ للاتجار بها ، قال أبو ذؤيب الهذلي(٢٢).

ولا الـرّاحُ راحُ الشام جـــاءت سبيئة

لهـــا غايةٌ تهدي الكرام عُقابُهـــا *

عُقـــار كـــماء النِّيء ليست بخمطةٍ

ولا خلة يكـــــوي الشُّروبَ شهابُها

توصّل بالرّكبـــانِ حيناً وتُؤلف الـ

جـــوارَ ويُغشيها الأمان ربابُهـــا

---

*جاءت سبيئة : أي مشتراة ، زيزامة والمعنى حملت إلى عكاظ ، دار ثقيف الأشاء قبابها : موضع . الخلة : الحامضة . الخمطة: التي أخذت طعم الإدراك ولم تدرك ولم تستحكم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمـــــا برحت في النّـــاس حتى تبينتْ

ثقيفـــــــــاً بزيزاء الأشاء قبابُهـــا

هذه الأبيات تتحدث عن الخمر المشتراة من الشام، وفيها ذكر "للإيلاف" التي اشرنا إليها حتى حملت إلى عكاظ وهي دار ثقيف .

وفي صورة أخرى، يذكر أبو نؤيب الهذلي أن الخمرة جاءت بها ركاب (الإبل) من أذرعات بالشام. يقول أبو نؤيب(٧٤:٢٢) :

مُشعشعةٍ من أذرعـــــــاتٍ هَوَت بهـــا

ركـــــــابٌ وعنّتها الزقـــاق وقادُهـــا *

فـــــلا تشترى إلا بربـــحٍ سباؤهـــا

بناتُ المخـــــــاض شيمُها وحضارهـــا

ويحدثنا النابغة الذبياني عن خمر بصرى التي أقلت قلاله البختُ من "بيت رأس" وهو موضع بالأردن إلى لقمان (أحد الخمارين في سوق أقيمت للبيع والشراء) .

يقول النابغة(١٦٠:٣٤) :

كـــــــأن مشعشاً من خَمـــر بصرى

نمتهُ البـــــختُ مشدود الختـــــــام

نميْن قـــــــلالـــــــه من بيت رأس

إلـــى لقمـــــــان في سوقٍ مقـــــامِ

ويحدثنا الأعشى عن الخمر التي حط بها تجار (دارين) الركاب بما يحملون من مسكٍ وأطياب . قال الأعشى(٢٥٣:٩) :

---

* شيمها : سودها . حضارها : بيضها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهـــــــــا أرجٌ في البيتِ عالٍ كأنما

ألـــــــم به من تجـــرِ دارين أركُـــبُ

وجدير بنا ونحن نتحدث عن القوافل التجارية أن نشير إلى بعض الأماكن المشهورة بصناعة الخمر وتصديرها في العصر الجاهلي . من هذه الاماكن بابل وهي بالعراق، قال عبيد بن الأبرص(٥٢:٩٨):

ظلتُ بهـــــا كأننـــــي شاربٌ

صهبـــــاء ممـــــا عتقت بابـــــلُ

ومنها أذرعات وهي بالشام .

قال النمر بن تولب (٦٥:٧٧):

كـــــأن مُـــدامةً من أذرعـــــاتٍ

ومـــــــاء المُزن والـــــــعنبَ القطيفا

على أنياب جـــــمرة بعـــــد وهنٍ

إذا مـــــــا خالـــــــط النسمَ الرشيفا

وذكرت "أذرعات" كذلك في شعر إبي نؤيب الهذلي ، يقول(٢٢):

وما إن فضلـــــةٌ من أذرعـــــاتٍ

كعين الدّيك أحصنهـــــــا الصّـــرُوحُ *

وقال أبو ذؤيب الهذلي أيضا(٢٢) :

فمـــــا إنْ رحيقٌ سبتـــــها التُّجا

رُ من أذرعـــــاتٍ فوادي جـــــــدَرْ

---

* الصروح : القصور . وما ان فضله : يعني الخمر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأماكن المشهورة ايضا "عانة" وهي موضع من أرياف العراق؛ قال الخليل : مما يلي ناحية الجزيرة تنسب إليه الخمر الجيدة (١٧).

قال زهير بن مسعود الضبي(٨٩:٢٨):

عـــــانيةٍ تُصبي الحلـــــــــيم إذا

دارتْ أكـــــــــف القومِ بالكـــــــأسِ

وقال الأعشى(١٢١:١٨) :

من خـــــــــمْر عانة قد أتى لختـــامها

حـــــــوْلٌ تسُـــلّ غُمامة المزكـــــومِ

وهذا البيت لم أجده في ديوان الأعشى الكبير الذي اعتمدته .

وقال المسيب بن علس(٦١:١٥) :

ومـــــــــها يرفُّ كـــــــــأنه إذْ ذُقتهُ

عـــــــانيّة شجّت بمـــــــاء يـــــــراعِ

ومن هذه الأماكن "الأندرين" وهي قرية بالشام(١٧).

قال عمرو بن كلثوم(١٨٣:٦٨):

ألا هُبـــــــي بصحنك فاصبحـــــينا ولا تبقـــي خمـــــور الأندرينا

وقد تنسب هذه الخمرة إلى فارس. قال تميم بن أبيّ بن مقبل(٢٦١:١٤) :

قُطبتْ بـــــأصفرَ من كـــوفرُ فارسٍ سقطتْ سُلافتهُ من الجرْيـــــال*

أما فيما يتعلق بالتجارة البحرية، فقد بينا في الفصل الثالث من هذا البحث أن العرب

---

* قطبت : أي مزجت . بأصفر : أي بخمر أصفر ، والكوافر : دنان الخمر .

الجريال : الخمر هاهنا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرفوا الملاحة، وورد في شعرهم الحديث عن السفن والملاحين والغواصين، فلا يعقل ألا يكون لسكان سواحل جزيرة العرب علم بالبحر وألا تكون لهم سفن مهما كان حجمها، كانوا يركبونها في اتجارهم مع إفريقية ومع بلاد الهند وإيران . وقد امتلك العرب السواحل الإفريقية المقابلة للعربية الجنوبية امداً طويلاً، فلا يعقل بالطبع ذهابهم إلى تلك السواحل ونزولهم بها بغير سفن(٦).

وقد كان الموقع الجغرافي في نواح معينة، يساعد في تطور الملاحة من شواطىء الجزيرة العربية، فهي تحد من ثلاث جهات بخط ساحلي بالغ الطول، يدور من خليج السويس إلى رأس الخليج الفارسي ، وتمتد بالقرب من هذه السواحل أخصب بقاع الجزيرة، وهي اليمن وحضرموت وعُمان؛ ولم يكن الاتصال بينها بحراً أشد هولاً من عبور الصحارى والجبال التي تفصل بينها براً ، وقد تهيأ للعرب الاتصال عبر المياه المغلقة في البحر الأحمر والخليج الفارسي بمركزين من اقدم مراكز الثروة والحضارة في العالم ، هما مصر وإيران ، فضلاً عن أرض الجزيرة(٢٣:٩٨) .

وعلى الرغم من أهمية التجارة البحرية ، إلا أنها لم تحظ بعناية الشعراء الجاهليين؛ لذا فنحن لا نمتلك إلا صوراً قليلة في الشعر الجاهلي تذكر أو تصف الرحلة التجارية .

فقد ورد ذكر السفينة التجارية المحملة بالخمر في شعر لبيد بن ربيعة . قال لبيد(١٩:٢٥٨):

عتيق سلافـــــاتٍ سَبَتْها سفينـــةٌ

تكرُّ عليهـــا بالمـــزاج النياطـــلُ*

ويذكر لنا النابغة الذبياني في شعره السفن الصغيرة والكبيرة المحملة الثقال .

---

* النياطل : كوز تكال به الخمر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر(١٣٩:٢٤) :

لـــــه بحرٌ يقمّص بالعـــــدوّلـــي

وبالخُلّـــــــجِ المُحمّلـــــــة الثّقـــال*

ولكن الصورة الأكثر تفصيلاً للرحلة التجارية البحرية هي الصورة التي رسمها بشر بن أبي خازم الأسدي ، وهي تعد صورة نادرة في الشعر الجاهلي في موضوعنا . يقول بشر بن أبي خازم(٤٧:٤٧) :

أجـــــالدُ صفّهمْ ولقد أرانـــي

عـــــلى قرْواءَ تسجُـــدُ للرّيـــــاحِ

مُعبّـــــدة السقـــــائف ذات دُسر

مُضـــبّرةٍ جـــوانبُهـــــــا رداحِ

إذا ركبت بصـــــاحبها خليجـــاً

تـــــذكر ما لـــــديه من جُناحِ

يمـــرُّ المـــــوْج تحت مُشجّراتٍ

يلـــينُ المـــــاءَ بالخُشُبِ الصّحـــاحِ

ونحن عـــــلى جـــــوانبها قُعُودٌ

نغضُّ الـــطّرفَ كـــالإبـــل القمـــاحِ

فقـــــــد أوقرن مـــن قُسطٍ ورندٍ

ومـــن مسكٍ أحـــــمٌ ومن ســـلاحِ

---

* الخلج : واحدها خلوج وهي السفينة الصغيرة .

العدولي : السفن العظام ، منسوبة الى عدولى وهي قرية بالبحرين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فطـــــــابتْ ريحُـــــهُن وهُن جـــــــونٌ

جـــــــأجئهنّ في لُـــــجج مـــــــلاحِ

يصف لنا بشر بن أبي خازم في هذه الأبيات رحلة تجارية بحرية كان فيها، ولكنه لا يذكر المكان الذي انطلقت منه هذه الرحلة ولا المكان الذي توجهت إليه، ولكنه يذكر أنها سفينة كبيرة مقيرة بالقير كالبعير المهنوء بالقطران، تميل مع الرّياح حيثما أمالتها . ويذكر أنها مصنوعة من ألواح خشبية مشدودة بالحبال (دسر) وقد تكون "بالمسامير" .

ويصف لنا تلك الحالة النفسية التي كان فيها على ظهر السفينة فهو يذكر أنه كان يرجع إلى نفسه، ويذكر ذنوبه لهول ما فيه من الخوف والرعب . ويذكر لنا أنهم كانوا يغمضون عيونهم، فلا ينظرون إلى الموج خوفاً كأنهم الإبل القماح (وهي الإبل التي ترفع رؤوسها، وتغض أبصارها عند الحوض، ولا تشرب الماء لشدة برده) .

وعندما وصلوا إلى المرفأ حملت هذه السفينة بالبخور والدواء والمسك الأسود والسلاح، ثم عادت بهم الى بلدهم .

يقول الدكتور حسين عطوان : "ولهذه الأبيات قيمة تاريخية كبيرة، لأنها تبين لنا الطريقة التي كان العرب يصنعون بها سفنهم والوسائل التي كانوا يعتمدون عليها في صناعتهم لها، فقد كانوا يبنونها من الألواح الخشبية التي كانوا يشدون بعضها إلى بعض بحبال قوية ، ويحكمون ربطها إحكاماً دقيقاً ، ثم يطلونها بالقار، كما أنها تبين لنا صلاتهم التجارية ببلاد الهند، وما كانوا يجلبون منها من البضائع"(٢٩:٧٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السابع

الصانع في الشعر الجاهلي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-١-

صور الصناعة كثيرة في الشعر الجاهلي ، وتظهر صورة الصنّاع في مواضع متعددة من الشعر الجاهلي ، اذ الصنائع من الحاجات الانسانيه الملحّه التي لا يستغنى عنها ، ومن جهة أخرى "فالحرفة أمان من الفقر" وكان في العرب صنائع تقوم بما تمسّ اليه حوائجهم ، وتقضيه ضرورياتهم ، ولا بد لهم منها ، لا سيما البلاد التي قدم عليها عهد الحضارة "[٤].

ومن الصنّاع الذين يردون في الشعر الجاهلي : القَين (الحداد) ، والنسّاج ، ،القراري (الخياط) ، والإسكاف، ،الهالكي (صانع الأدوات الحربية والصّائغ) .

-٢-

القين

قال صاحب اللسان "القين: الحدّاد ، ،قيل كّل صانع قين ، والجمع أقيان ،قيون . وفي :حديث العباسي: الاّ الإذخر فإنه لقيوننا . والقيون : جمع قين وهو الحدّاد ،الصّائغ . التهذيب : كلّ عامل الحديد عند العرب قَيْن . ويقال للحّداد : ما كان قَيْنا ولقد قان. وفي حديث خبّاب: كنت قيناً في الجاهلية. وكان يقين قيانة وقيناً : صار قيناً . وقان الحديد قينا : عملها وسواها . قال ابن السكيت : قلت لعمارة ان بعض الرواه زعم ان كل عامل بالحديد قين ، فقال : كذب ، انما القين الذي يعمل بالحديد ويعمل بالكير، ولا يقال للصائغ قين ولا للنجار قين ، وبنو اسد يقال لهم القيون لأن اول من عمل الحديد بالبادية الهالك بن اسد بن خزيمه "[١] اما الزبيدي فيكرر ما قاله صاحب اللسان الا انه يضيف بعداً جديدا للفظ؛ اذ يربط بين القين والعبوديه . يقول الزبيدي " القين : قان حديداً يقنه قيناً اصلحه. ويقال : قنه اناك هذا عند القين وقان الله فلان على كذا يقينه قينا : خلقه. والقين العبد قال ابو عبيد: كل عبد عند العرب قين (جمع قيان) بالكسر . والقين الحداد يذهب به الى معنى العبد لإنه في العمل والصنعه بمعنى العبد"[٢] وعلى الرغم من هذا الاضطراب في تحديد الواقع اللغوي لهذا اللفظ ، الا اننا نلمح ان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمة نوعاً من الاتفاق على ان القين – في احد معانيه – هو الذي يعمل في الحديد ويعالجه . اما فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي للفظ ، وهو ما نجده عند الزبيدي – عندما ربط بين القين والعبد، فليس هنا موضع مناقشته ، فالواقع الشعري الذي سنعرضه هو الذي يكشف المضمون الاجتماعي لهذا اللفظ. ومن الالفاظ التي تطلق على الحداد : " الهبرقي"، قال صاحب اللسان" الهِبْرقيّ والهَبْرَقي : الصائغ ، ويقال للحدّاد ، ،قيل هو كلّ من عالج صنعة بالنار، قال بان احمر:

فما ألواح دُرّة هِبْرِقيّ، جلا عنها مُختّمُها الكُنُونا

ابو سعيد : الهبرقيّ الذي يصفّي الحديد ، وأصله

أبْرَقيّ فابدلت الهاء من الهمزة؛ وأنشد للطرماح يصف ثوراً :

يُبربر بربرةَ الهبرقيّ، بأخرى خواذلها الآنحة

قال : شبه الثور وخواره بصوت الريح تخرج من "الكير"[١] .

ولا يختلف رأي الزبيدي عن رأي ابن منظور في تحديد الواقع اللغوي للفظ "الهبرقي"[٢].

وتظهر صورة "القين" (الهبرقي) في الشعر الجاهلي، حيث يبدو في الصورة مكباً على كيره ينفخ الفحم، قال النابغة الذبياني(٣٤:١١٠) :

مقابلِ الرّيحِ روقيةِ وكلكلهُ كالهبرقي تنحى ينفخ الفحما

وفي هذه الصورة يشبه الثور وهو يبحث بقرنيه الرمل ليجعله كناساً كما يكبّ الحدّاد على الكير ينفخ وينحرف، وإنما شبهه بالهبرقي النافخ للفحم في شدة تعبه لما لقيه من سوء المبيت .

ويقول النابغة ايضا(٣٤:٢٦٢) :

كأنّ شُواظَهنّ بجانبيه نحاسُ الصفر تضربهُ القيون*

ويحدثنا الأعشى عن إناء الذهب ، الذي عالج "القين" صنوعه "بالكتيف" وهي أداة من

---

* الشواظ : اللهيب بلا دخان . النحاس : الدخان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدوات الحدادين يقول الأعشى(٣٦٥:٩):

أو إنـاء النُّضار لاحـمهُ القيـ ـن وداري صـنوعـه بالكتـيف*

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الشرر المنبعث من طرقات القين. يقول زهير بن أبي سلمى(٢٤٨:٢٩) :

بثوا خيولهـم فـي كـل معركةٍ كـما تقاذفَ ضـرب القـين بالشرر

وفيها يشبه زهير الخيول المبثوثة في المعارك بالشرر المتطاير من ضربات القين .

ويصور سلامة بن جندل إحدى المعارك وما خلّفته من القطع البشرية (الأكف والأسوق) وكأنها قطع الحديد المتناثر في موضع عمل القيون .

قال سلامة بن جندل(١٦٧:١٢) :

كـأنّ مناخـاً من قيـونٍ، ومنزلاً بحيث التقينا من أكفٍّ ، وأسـوُقِ**

ونلاحظ في الصورة جانباً مهما وهي صورة القيون ومكان عملهم الذي تناثرت فيه مخلفات صناعتهم، ويبدو أن رجال بعض الحرف كانوا يجتمعون في أماكن معينة كما هو الحال في الوقت الحاضر، كأن يتجمع الحدادون في منطقة معينة، والصاغة في حيّ، والصفارون في حيّ والنجارون في حيّ، وذلك للتعاون فيما بينهم، وتنسب تلك المحلات إليهم(٦).

وقال عدي بن زيد العبادي(٥٩:٣٨) :

شَئِزٌ جَنْبي كـأنيّ مُهْـداً جعـل القـينُ على الـدَّفِّ إبـرْ***

ونجد في الشعر الجاهلي، صورة سقاط الحديد القين متفرقاً، (وهو ما يتناثر من الحديد اثناء طرقهم الحديد ومعالجته) يقول ضابيء بن الحارث(٣٦٧:٤٣) :

---

* الكتيف : الضبة من حديد .

** المناخ : هو موضع عمل القيون : استعمله على المجاز . لأن المناخ في الأصل مبرك الإبل .

** شئز : قلق ونفر . اهدأت الصبي ، إذا جعلت تضرب عليه بيدك لينام.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُساقط عنه روقُـــهُ ضارياتهـــا سقاط حديدِ القـــينِ أخول أخـــولا *

وفي هذه الصورة تبدو الضواري صرعى على الأرض بعد المعركة بينها وبين الثور، تشبه ما يتساقط من الحديد الذي يعالجه القين .

ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً للأدوات التي كان يستعملها " القيون" من هذه الأدوات "العلاة" ، والعلاة هي "السندان" التي يضرب عليها الحداد الحديد.(١).

ويظهر في الشعر الجاهلي تشبيه الناقة بعلاة القين، قال عبيد بن الأبرص (٥٢:١٠١) :

وقد أسلّى همـــومي حين تحضُرني بجسرةٍ كعـــلاة القـــين شملال **

ويتكرر تشبيه الناقة بعلاة القين في الشعر الجاهلي ، يقول لبيد بن ربيعة (١٩:٩٥):

ومرتٍ كظهر التـّرس قـــفرٍ قطعتهُ وتحتـــي خـــنوفٌ كالعلاة عقيمُ***

وقال عبدة بن الطيب(٣٠:٨١):

فعدّ عنها، ولا تشغلكَ عـــن عمـــلٍ إن الصبابةَ، بعد الشيبِ تضـــليلُ****

بجسرةٍ، كعـــلاة القـــينِ دوسرةٍ فيهـــا، على الأيـــن ، إرقـــالٌ وتبغـــيلُ

ومن الأدوات التي كان يستعملها "القيون" الكير . "والكير : كير الحداد ، وهو زقّ أو جلد غليظ ذو حافـات، وأمـا المبني من الطين فـهـو الكور. ابن سـيده : الكيـر" الزقّ الذي ينفخ فيـه الحداد، والجمع أكيار وكيرة".(١).

وقد ورد ذكر الكير في الشعر الجاهلي.

قال السُّلَيْك بن السُّلكة(٩٩:٥٣) :

كـــأن مناخـــر النحّـــام لمـــا دنـا الأصبـــاح كـــير مستعـــارُ

---

* أخول : متفرقة .

** الجسرة : الناقة القوية تجسر على كل شيء .

*** الخنوف : الناقة التي تخنف بأنفها وذلك أنها ترفع رأسها وتميله في احد شدقيها .

**** الإرقال والتبغيل : ضربات من السير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف علقمة الفحل سنام ناقته التي عريت من رحلها سنة، فلم تركب، بأنه أصبح مثل حافة كير القين .

يقول علقمة الفحل(٦٣:٥٤):

قد عُرّيت حقبةً حتى استطف لها كُتْرٌ كحافة كير القين ملموم

ويرد ذكر "الكير" ايضا في شعر بشر بن أبي خازم، حيث يشبه منخر فرسه -في سعته- بالكير المستعار-، وإنما جعله مستعاراً لأنه إذا كان كذلك كان العمل به أحث وأعجل لأنهم يريدون رده إلى صاحبه . يقول بشر بن أبي خازم(٤٧:٧٨):

كأنّ حفيف منخرة إذا ما كتمنَ الرّبو كيرٌ مُستعارُ

ومن الأدوات التي كان كان يستعملها القيون (المطارق) وتسمى المواقع (واحدتهاميقعة). قال الحارث بن حلزة(١٥:١٣٣):

أنمي إلى حرفٍ مذكرةٍ تهصُ الحصى بمواقعٍ خنسِ

وفي هذه الصورة يشبه مناسم ناقته -في صلابتها- بمطارق الحداد .

ومن هذه الأدوات "المقراض" قال الأعشى(٩:١٦٧) :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراض الخفاجيّ ملحبَا

"والخفاجي نسبة إلى خفاجة بالفتح حي من بني عامر مشهورين بهذه الصنعة"(٤).

ومن هذه الأدوات المبرد وهو الذي يبرد به الحديد .

قال الأسود بن يعفر(١٦:٤٨):

طحُون كملقى مبردِ القين فعمةٌ بجرعاء ملعٍ أو بجوٌ نطاعِ

ويحدثنا سويد بن ابي كاهل اليشكري عن الخيول المنعلة بنعال القين التي تقيها من المشي على الحجارة ، فهي كالريح في سرعتها . يقول سويد(١٥:١٩٣) :

فتراها عُصفاً مُنعلةً بنعال القين يكفيها الوقعْ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٣-

النساج

تنال صناعة النسيج الحظ الأوفر من صور الصناعة في الشعر الجاهلي، فصناعة النسيج "من الصناعات التي كانت من مكاسب العرب، وهي أيضا من ضروريات الأمم ، فان كل امة ، ولا سيما اهل الحاضرة محتاجون لهذه الصنعة لأجل لبوسهم وفرشهم وحمل اثقالهم"(٤).

ونجد في الشعر الجاهلي صورة النساج، قال لبيد بن ربيعة(٢٣٣:١٩) :

فكلّفتها وهـــماً كـــأن نحـــيزهُ شقائق نســـاجٍ يؤمّ المناهـــــلا

وفيها يشبه الطريق الواسع بشقائق النساج لأن فيها طرائق .

وتتكرر صورة النساج كذلك في شعر ربيعة بن الكودن ، قال ربيعة(٢٢) :

يظلُّ بها غـــاوي السّحـــاب كأنّه شقائقُ نســـاجٍ معـــاً لـــم تفرقِ*

ونجد في الشعر الجاهلي بعض أدوات النساجين ، منها "الضيصية : وهي شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة"(١).

قال دريد بن الصمة(٤١٠:٣٠):

فجئت إليـه، والرمـاح تنوشـهُ كوقعِ الصـياصي في النسيج المددِ

ومنها الهراوة وهي عصاة الحائك .

ونشاهد صورة الحائك الذي ينسج بالنول "وهي خشبة الحائك التي يلف عليها الثوب"(١).

قال امرؤ القيس(٣٧:٢٠):

بعجلزة قد اترزَ الجـرْيُ لحمـها كُمَـيْت كأنهـا هِـراوةُ منْـوالِ**

ونجد في الشعر الجاهلي صورة ندّاف القطن"

---

* غاوٍ : قليل المطر .

** بعجلزة : أي بفرس صلبة اللحم . ومعنى "اترز" أيبس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أوس بن حجر(٦٦:٤١):

علا رأسها بعد الهبابِ وسامحتْ* كمحلوج قطنٍ ترْتميه النوادفُ

وفي هذه الصورة يشبه زبد لغامها (اي الناقة) بمحلوج القطن، الذي تبعثرة النوادف .

وقال الطفيل الغنوي(٢٥:٣٧) :

كأن سدا قطن النّوادف خلفها إذا استودعته كلّ قاعٍ ومذنب*

ونجد صورة المطارق التي يضرب بها الصوف والقطن قال أوس بن حجر(٢٢:٤١):

تنفون عن طرقِ الكرام كما تنفي المطارقُ ما يلي القردُ**

ونجد كذلك صورة صوت المحارين (واحدها محرن : وهو آلة الندف) يخلجن (يجذبن وينتزعن) القطن في المحابض . قال تميم بن أبيّ بن مقبل (٢٩٧:٦٨):

كأن أصواتها، من حيث تسمعها صوت المحابض يخلجن المحارينا ***

ونشاهد صورة القطن المجلوم. قال لبيد بن ربيعة(١٢٧:١٩):

حتى إذا انجرد النسيلُ كأنه زغبٌ يطيرُ وكُرسفٌ مجلومُ

وفي هذه الصورة يشبه من انجرد من وبر حمار الوحش بالريش اللين والقطن المقطوع .

وفي صورة أخرى يشبه تميم بن ابيّ بن مقيل قطرات الندى البيضاء التي تنحدر عن متن حمار الوحش واضلاعه بنديف القطن قال تميم(٢٩٢:١٤) :

غدا ينفض الطلّ عن متنه تسيل شراسيفهُ كالقطن ****

وتشيع في الشعر الجاهلي صور المنسوجات اليمانية ؛ إذ كانت اليمن مشهورة بالغزل

---

* السدا : الغبار .

** القرد : ما تمعط من الوبر والصوف وتلبد .

*** المحابض : الواحد محبض : المندف .

**** شراسيفه : اضلاعه ، واحدها شرسف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرفت بإنتاج بعض البرد التي اختصت بها حتى عرفت بـ (البرد اليماني) . وهي من الانواع الغالية الثمن التي لا يشتريها في العادة إلا المترفون والمرفهون(٦).

ومن المنسوجات اليمانية : الأتحمية، قال بشر بن أبي خازم(١٤٣:٤٧) :

كـأن الأتحمـية قـام فيـها لحسن دلالـها رشـأ مـوافـي*

وفيها يشبه هذه المرأة في الثياب الأتحمية بالرشأ الموافي*

وتتكرر صورة الثياب الأتحمية في شعر خفاف بن ندبة . قال خفاف(٣١:٨٩):

ومعشـوقة طلقنهـا بُـمرشةٍ لها سـننٌ كالأتحمـي المُخرق**

وقال الطفيل الغنوي(١٩:٣٧):

سماوته أسمـالُ بُـردٍ مُحـبرٍ وصـهوتُـه أتحـميٌّ مُعصَّـبِ

ومن هذه المنسوجات السحل اليماني . قال النابغة(٦٧:٣٤):

وناجيةٍ عدّيت في مـتن لاحـبٍ كسحـل اليمـاني قاصـدٍ للمناهل

ومنها الوصائل . قال لبيد بن ربيعة(٢٤٣:١٩) :

غرائـر بكـارٌ عليهـا مهابـةٌ وعونٌ كـرامٌ يرتديـنَ الوصائـلاً ***

ومنها الريط اليماني . قال المخبل السعدي(٣٠٣:٤٦):

كسوناهـا من الريـط اليمانـي مسوحـاً فـي بنائقـها فضـول

ومنها الحبرات . قال الأعشى(٢٢٣:٩):

إذا الحـبرات تلـوّت بهـم وجـروا أسـافل هُـدابها****

---

* الرشأ : ولد الظبية . الموافي : الذي قد وافى جسمه جسم اسمه ، اي صار مثلها .

** المرشة : الطعنة اتسعت فتفرق دمها . السنن : الطريق .

*** الوصائل : ثياب يمانية ، وقيل تكون حمراً مخططة .

**** الحبرات : جمع حبرة وهي ضرب من برود اليمن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهـــمْ مشريـــاتٌ لـــها بهجـةٌ تـــروق العيـــونَ بتعجـــابها

ويشبه طرفة بن العبد العلامات التي تعلم بها الديار بالثوب اليماني الذي وشته ريدة وسحول وهما قريتان من قرى اليمن . قال طرفة(٨١:١٣) :

وبالسفـــحِ آيـــات كأنّ رُسومهـا يمـــانٍ وشـــتهُ ريـــدةٌ وسحـــولُ

وفي صورة لزهير بن أبي سلمى ، يشبه فيها الطريق في الفلاة الواسعة بالثوب الأبيض المنسوب إلى اليمن قال زهير(٢١٩:٢٩) :

وأبيض، عـــاديّ ، تلـــوحُ متونُه على البيدِ كالسُّحْل ، اليمانـــي ، المبلّـج

ونجد في الشعر الجاهلي صورة أقمشة الصوف والقطن والحرير .

ومن هذه الأقمشة الإضريج، والشرعبيّ .قال الأعشى(٥٩:٩) :

والبغايا يركضنَ أكسيـــةَ الإضـــ ـــريج والشرعبـــيُّ ذا الأذيـــــال*

وقُال النابغة يمدح عمرو بن الحارث الأصغر(٦٣:٣٤) :

يُحييهمُ بيـــضُ الولائد بينـــهم وأكسيةُ الإضـــريج فـــوق المشاجب

ومن هذه الأقمشة المرانب .

قال النابغة الذبياني(٥٩:٣٤) :

تراهنّ خلف القـــوم زوراً عيونـــها جلوس الشـــيوخ في مســـوكٍ أرانب **

وفي الحماسة المغربية "في ثياب المرانب"(٨٧) .

ونشاهد في الشعر الجاهلي صورة الثياب المخططة الحمراء (الأنماط) . قال نو الخرق الطهوي(٤١٩:٤٣) :

وغالـينَ أنماطـــاً علـــى عبقريةٍ وألقين فـــي أحداجهـــن الكردايا ***

---

* الإضريج : الحرير الأصفر . الشرعبي :الحرير الأحمر .
** المرانب : ثياب تتخذ من جلود الأرانب .
*** الكرادي : الأردية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونشاهد صورة الثياب المصبوغة بالزعفران (المجاسد) . قال عمرو بن الأهتم(٤٣:١٧٣):

ولا عبنـــي علـــى الأنماط لُعس عليـــهن المجاســـدُ والحريـــــرُ

وكذلك صورة البرد المسهم، قال الحصين بن الحمام المري(١٥:٦٩):

وآل لقيطٍ إننـــــي لن أســـوءهم إذا لكســـوتُ العـــم بُرداً مُسَهَّمَـا

ونشاهد في الشعر الجاهلي نسج دمشق (الدمقس) .

قال عامر بن الطفيل(٦٦) :

وما رمت حتى بلّ صـــدري ونحرهُ نجيـــعٌ كهُـدّاب الدّمـــقس المُســيّر

ونشاهد كذلك نسج القطيف . قال الأعشى(٩:٢٤١):

كستهُ بعوضُ القريتـــين قطيفـــةً متـــــى ما تنـــل من جلـــده يتزنّد

يريد : تراكم عليه بعوض القريتين ، حتى أصبح جبينه كثوب القطيفة المخمل .

ونشاهد نسج السّدير قال اعشى بكر(٨٧) :

وبيـــداءَ قفرٍ كـــبُرد الســـدّير مناهلُهـــــا دائـــراتٌ أجـــنُ*

وكذلك نسج نجران. قال نو الأصبع العدواني(١٠٠:٧٩):

يُـــــرى يرْفـــلُ فـــي بُـــرْ ديـــــنٍ مـــن أبـــراد نجرانـــا

ونجد كذلك نسيج العراق المنمق . قال امرؤ القيس(٢٠:١٦٨) :

جعلن حـــوايا واقتـــعدن قعائداً وحففـــن من حوك العراق المنمّـــق**

القراري

قال بن منظور : "القراري: الحضري الذي لا ينتجع يكون من أهل الأمصار وقيل : إن

---

* السّدير : أرض باليمن تجلب منها البرد المثمنة .

** الحوايا : جمع حوية ؛ وهو مركب من مراكب النساء .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كل صانع عند العرب قراريّ، والقراري : الخياط .

وقد جعله الراعي قصّاباً فقال :

وداريّ سلختُ الجلد عنه كما سلخ القراريُّ الإهابا

ابن الأعرابي : يقال للخياط القراري والفضولي ، هو البيطر والشاصر.(١)

ولا يختلف رأي الزبيدي عن رأي ابن منظور في تحديد معنى هذا اللفظ(٢) .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الخياط ، وترد بلفظ القراري . قال الأعشى يمدح قيس بن معد يكرب(٩:٦٥) :

يشقُّ الأمور ويجتابها كشقّ القراريّ ثوبَ الردنْ

أي أنه ينفذ بفكره إلى صميم المشاكل، كما يشق القراري (الخياط) ثوب الخزّ .

ونجد في الشعر الجاهلي صورة "الإبر" .

قال زهير بن أبي سلمى(٢٩:٢٤٢) :

فيمَ لَحَتْ؟ إنّ لومها ذعرُ أحميت لوماً ، كأنه الإبرُ *

أي لمت لوماً حامياً ، كأنه الإبر في الصدر. واعترف أنني لم أعثر على صورة أخرى للقراري في الشعر الجاهلي ، ولكني عثرت على صور عديدة للملابس . من هذه الملابس القميص ذو البنائق (جمع بنيقة وهي جيب القميص وطوقه). قال طرفة بن العبد(١٣:٢١) :

تلاقى ، واحيانا تبين ، كأنها بنائقُ ، غُرٌّ ، في قميص مقدّد **

وفي هذه الصور يشبه طرفه الطرق ببنائق بيض في قميص خلق .

ومنها "الملاء المهدب" وهي الملاحف البيض ذات الهُدب" قال امرؤ القيس(٢٠:٥٠) :

فينا نعاجٌ يرتعينَ خميلةً كمشي العذارى في المُلاء المهدَّبِ

---

* لحت : لامت . أحماه جعله حامياً حاراً .

** غر : بيض .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الملابس المجول . قال عدي بن وداع(٢٨:٥١):

أرى ابنـــة الأز دي قد أقبـــلت بين سمـــوط الدرّ فـــي المجـــول*

ومنها السربال وهو القميص . قال تميم بن أبيّ بن مقبل(١٤:٢٨١) :

رقيقـــة سربال الحـرير ، يضوعها غـــــناء الحمام الورق بالمتهـــوم

ومنها المجاسد . قال المرقش الأكبر(١٥:٢٢٣):

يرُحْنَ معاً بطـــاء المشي بُـــدّاً عليهـــن المجاســـــدُ والـــبُرود**

ومنها "الإتب" وهو ثوب رقيق له جيب وليس له كمان .

قال امرؤ القيس(٢٠:٦٨):

من القاصرات الطرف لو دبّ مُحولٌ مـــن الذّرّ فوق الإتب منهـا لأثّرا***

يقول " لو مر المحول من الذر فوق ثوبها لأثر في جلدها ، لرقة بشرتها .

ومنها "الدرع"، وهو قميص المرأة الحدثة . قال امرؤ القيس (٢٠:١٧١):

دخلت على بيضاء جُـم عظامُـــها تعفّي بذيل الدّرع إذ جئت مَوْدِقي ****

وقال امرؤ القيس يصف صاحبته(٢٠:١٨):

إلى مثلها يرنو الحليـــمُ صبابـــةً إذا ما اسبـــكرّت بـــين درع ومجول

يريد : أنها شابة بين الصغيرة والكبيرة ، لأن الدرع هو ثوب المرأة التي دخلت في السن، والمجول هو ثوب يلبسه الصبيان .

ومنها "المرط المرحّل" قال امرؤ القيس(٢٠:١٤) :

---

* المجول : ثوب صغير تجول فيه الجارية ، والمجول : ثوب يثنى ويخاط من احد شقيه ويجعل له يجب . تجول فيه المرأة .

** المجاسد : وهو مجسد ، وهو الثوب المشبع صنعاً بالجساد، وهو الزعفران، او هو الثوب الذي يلي الجسد .

*** المحول : الذي أتى عليه الحول وهو كناية الصغير .

**** مودقي : يريد مسلكي الذي سلكته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خرجت بهـا تمشي تجـــرّ وراءنا على أثرينا ذيـــل مرطٍ مُرحَّـــــل *

ومن الملابس ايضا " الريط المسهم" . قال أوس بن حجر(١٢١:٤١):

فإنـــا وجدنا العرضَ أحوج ساعةً إلى الصَّوْن من ريـــطٍ يمـــانٍ مسهَّمِ

ومنها "البرجد". قال قيس بن الحدادية الخزاعي(٢٢١:٣٠) :

إذا اشتدّ إرهامُ النّدى فهـو ساقطٌ خضولٌ ، كظهر البرجـــد ، المتصبّبِ**

وليس هدفنا في هذا البحث إيراد صورة الملابس في الشعر الجاهلي فقد قام الدكتور يحيى الجبوري بوضع كتاب خاص في هذا الموضوع ولكن حسبنا أن نشير إلى هذا الموضوع، لنثبت أن ورود هذه الملابس في الشعر الجاهلي يدل على وقوف العرب على صناعة الخياطة .

---

* المرط: إزار خز له علم ، ويكون من الصوف . المرحل : الموشى .

** البرجد : كساء غليظ من صوف . أحمر مخطط . المتصبب : المتحدر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٤-

الهالكي

قال ابن منظور "الهالكي : الحداد، وقيل الصيقل . قال ابن الكلبي ، اول من عمل الحديد من العرب الهالك بن عمرو بن اسد بن خزيمة ، وكان حداداً نسب إليه الحداد فيقل الهالكي"[١].

ولا نجد عند الزبيدي اختلافاً عن المعنى الذي حدده ابن منظور[٢] .

ولكنا نجد في الشعر الجاهلي اختلافاً بين القين والهالكي، فالحداد هو الذي يعالج الحديد بينما الهالكي هو الذي يصنع الأدوات الحربية . على الرغم من ورود لفظ "القين" بمعنى "الهالكي" في مواضع متعددة من الشعر الجاهلي. قال ساعدة بن جؤية[٢٢] :

فتعاوروا ضرباً وأشرع بينهم أسلاتُ ما صاغَ القيون وركبوا*

وقال لبيد بن ربيعة[١٩:١٧١] :

فأصحبت مثل السيف غيّر جفنهُ تقادُم عهد القين والنَّصل قاطعُ

ويحدثنا تميم بن أبيّ بن مقبل عن سيفه الذي عقر به ناقته لينحرها ، وهو غير مصقول . ويأتي لفظ القين بمعنى الهالكي أو "الصيقل" قال تميم [١٤:٢٣٣]:

عرضتُ لها السّيف عن قدرةٍ وما احدث القينُ فيه صقالا

وقالت الخرنقُ ترثي بشراً[١٠١:٥١] :

بأيديهم صوارمُ مُرهفاتٌ جلاها القينُ خالصةُ البياض

والقين هنا هو الهالكي صانع الأدوات الحربية .

وقال عمرو بن الأهتم [٤٣:١٧٦] :

---

* الأسل : الرماح ، والأسلة : الرمح .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سوى كلّ مـــذروب جلا القينُ حدّه وسهـــمٍ سريعٍ قـــتلُهُ وسنـــانِ*

ويحدثنا احيحة بن الجلاح عن حصنه الذي اعده لنوئب الدهر،ويشبهه بالسيف الصقيل الذي جلاه "القين" ولم يترك فيه عيباً .

قال احيحة بن الجلاح(٣٠٢:٦٨) :

وقد أعددت للحدثـــان حصـــناً ، لـــو ان المـــرء تنفـعه العقـــولُ

طويل الرأس أبيـــض مُشمخـــرٌّاً يلـــوح كأنّـــه سيـــفٌ صقيـــلُ

جلاهُ القـــينُ ثمّـــت لـم يشنـــهُ بشائنـــةٍ، ولا فيـــــه فلـــولُ

وروى صاحب الأغاني عن أبي عبيدة قوله: كان الصمة أبو دريد شاعراً ، وهو الذي يقول في حرب الفجار التي كانت بينهم وبين قريش(١٨) :

وأعـددت للحـــــرب خيفانـــةً ورمحاً طويـــلاً وسيفـــــاً صقيـــلا**

ومحكمـــة مـــن دروع القـــيو ن تسمـع للسيـــف فيهـــا صليـــلا

ويرد الهـالكي بلفظ الصـيقل في مـواضع عـدة من الشـعر الجـاهلي :قـال أبو الطمـحان القيني(٢١٣:٢٨) :

تهادى على نـــيٍّ فجـــال كأنّـــه حســام جلا عنـــه مسنُّ الصياقل ***

وقال حاجز بن عوف الأزدي(٨٢:٢٨):

ستمنعنا منكم ومن سوء صنعكـم صفائح بيض أخلصتـــها الصياقـــلُ

وقال مالك بن خطان(٢٢٩:٤٣) :

بكـل لذيـــذ لم يخنه ثقافُـــهُ وعضب حسام أخلصتـــه الصياقل ****

---

* مذروب : سيف صقيل

** الخيفانة : الفرس

*** المسن : الحجر الذي تحدد وتصقل به السيوف.

**** اللذيذ : الرمح، ثقافه : صناعته. عضب : سيف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجد صورة الصيقل الهالكي الذي يصنع السيوف ويجلوها في شعر امرىء القيس بن جبلة السكوني قال امرؤ القيس بن جبلة(١٤٤:٢٨):

تريني غداةُ البذل أهـــتز للنّـــدى كمـــا جرّد الســـيف اليمـــانيّ صيقلُ

وفي صـورة اخـرى ، يشـبـه الطفـيل الغنوي شبـابه بالسـيف اليـماني الذي أتقن صنعه الصياقل . قال الطفيل الغنوي(٨١:٣٧) :

وكنت كما يعلمنَ والـــدّهر صـــالحٌ كصدرِ اليمـــاني اخلصـــتهُ صياقلهْ

ويحـدثنا خـفـاف بن ندبه عن السيـوف التي اخلص صنعـها الصـياقل فـأصبـحت تفري وتقطع، قال خفاف(٥٣:٨٩):

جلاها الصيقـــلون فأخلـــصوها مواضـــيَ كلُّهـــا يفـــري ببـــتر

وتظهر صورة :"الهالكي" في شعر لبيد بن ربيعة ، فيصوره في إكبابه وميله وانحرافه على يديه، وفي هذه الصورة يشبه لبيد حمار الوحش وأتانه وهما يعومان في الماء بالهالكي . يقول لبيد(٢٣٨:١٩) :

فَعَاما جُنوح الهالكـــيّ كلاهُمـــا وقحَّـــمَ آذيَّ السَّريَّ الجَحَافِـــلَا*

وتتكرر هذه الصورة في شعر لبيد، حيث يشبه انكباب الثور ورفعه رأسه وتحريكه بانكباب الهالكي وميله وانحرافه على يديه ليجتلي ألوان النصال، بعد أن أصبحت زرقا عندما أدخلها الكور، فهو يجلوها بالمسن حتى تصير شُهباً .

قال لبيد بن ربيعة(٧٨:١٩):

جُنـــوح الهالـــكيّ علـــى يديّه مُكبّاً يَجتـــلي نُقَـــب النِّصَـــال **

وفي صورة أخرى للأعشى ، يشبه فيها الثور الذي اندس تحت اغصان الشجر، منكباً

---

* آذي : السبف القوي ، أو التيار ، والرّي : النهر . الجحافل : المشافر .

** النقب : واحدها نقبة . والنقبة : اللون .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على وجه، بالصيقل "الهالكي" الذي انحنى على شماله ليشحذ السيوف. قال الأعشى (٣٢٩:٩):

مُنكرساً تحت الغصون كما أحنى على شماله الصيقلْ

ونجد في الشعر الجاهلي ما يمكن أن نسميه قصة "الصيقل" صانع القوس، يقول أوس بن حجر (٨٥:٤١):

ومبضوعةٍ من رأسِ فرعٍ شظيةً بطودٍ تراهُ بالسّحاب مجلّلا *

فما زال حتّى نالها وهوَ معصمٌ على موطنٍ لو زلّ منْهُ تفصلا

فأقبل لا يرجو التي صعدت به ولانفسهُ الاّ رجاءٌ مؤملا

فلما نجا من ذلك الكربِ لم يزلْ يمظّعها ماء اللحاء لتذبلا

فأنحى عليها ذات حدٍّ وعالها رفيقاً بأخذٍ بالمداوس صيقلا

على فخذيهِ من برايةِ عودها شبيه سفى البُهمى اذا ما تفتّلا

فجردها صفراء لا الطول عابها ولا قصرٌ ازرى بها فتعطّلا

في هذه الأبيات يصف لنا أوس بن حجر قصة صانع القوس، الذي تخير لقوسه عودا قطعه من اعلى الشجرة الذي يبدو لعلوه وارتفاعه مغطى بالسحاب مجللاً . ويصور لنا أوس الحالة النفسية التي كان عليها عندما وصل إلى هذ المكان المرتفع ، حيث يبدو مشفقاً على نفسه من الهلاك، فالموضع الذي يبتغيه عالٍ جدا ، ولو زل عنه لهلك دون أن يصل الى مراده، وما زال يفكر في هدفه ويحدوه الأمل في الوصول إلى ما يريد، حتى استطاع الأمل في النهاية أن ينتصر على الخوف واليأس من النهاية، حتى انتهى الى اعلى الشجرة وحقق ما يريد ، وقطع العود، ثم لم يزل يسقيها ماء لحائها ليكون أجود لها، ولو قشر اللحاء عنها لأفسدها . ثم بعد ذلك أخذ يبري هذا العود، بمدوسه الذي اعده خصيصاً للصقل، ويبدو في الصورة براية عودها

---

* مقطوعة : السفى : شوك البهمى واحدته سفاة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على فخذيه وهو منهمك في عمله ليتقنه ، وما زال يبريها حتى استقام له ما يريد، فجردها صفراء، إذ لو كانت قصيرة لتعطلت وكانت اصغر من أن يرمي عنها . ولم تعب من طول هذه.

الصورة التي رسمها أوس بن حجر لصانع القوس لا تخلو من بعد مثالي يرنو إليه الشاعر ، فقد اختار في الصورة شجرة عالية ، أما العود الذي يريده صانع القوس فيقع في أعلى هذه الشجرة في مكان "ولو زل عنه تفصلا"، ثم وقع صانع القوس بين الخوف والرجاء، حتى انتصر الأمل في النهاية على الخوف والرعب .

ألا تشبه هذه الصورة التي رسمها أوس تلك الصورة التي رسمها أبو ذؤيب الهذلي وقبله ساعدة بن جؤية لمشتار العسل عندما اختار لمشتار العسل أعلى ضروب الشيارة خطراً، فإذا كانت البطولة في نظر الكثيرين تتوقف على البلاء في الحرب. فإننا نجد الشعر الجاهلي يلقي الضوء على الوجه الآخر للبطولة، وهي البطولة المتصلة بالحياة .

وينتقل أوس بن حجر بعد ذلك إلى تصوير صانع السهام الذي تأنق في صناعتها، يقول أوس(٨٩:٤١):

وَحشوَ جفير من فروعِ غرائبٍ ... تنطّع فيها صانع وتنبّلا

تُخيرن أنضاء وركّبن أنصلاً ... كجمر الغضا في يومِ ريحٍ تزيلاً

فلما قضى في الصنع منهن فهمهُ ... فلم يبقِ إلاّ أن تسنّ وتصقلا

كساهنّ من ريشٍ يمانٍ ظواهراً ... سُخاماً لؤاماً لين المسّ أطحلا

وتتكرر قصة صانع القوس "القواس" في شعر الشماخ ، ولكن يبدو في الصورة "القواس" يشتغل بتجارة "القسي" بالإضافة إلى حرفته وهي صنع "القسي" . قال الشماخ (١٨٤:٣٣):

تخيرها القواس من فرع ضالةٍ ... لها شذبٌ من دونها وحواجز

نمت في مكان كنّها واستوت به ... فما دونها من غيلها متلاحزُ

فما زال ينجوُ كل رطبٍ ويابسٍ ... وينغلُّ حتى نالها وهو بارزُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأنحى إليها ذاتَ حدٍّ غرابُها ... عدوٌّ لأوساط العضاةِ مشارزُ

فلما أطمأنت في يديه رأى غنىً ... أحاط به وازور عمنْ يُحاورُ*

فمظّعها عامين ماء لحائها ... وينظر منها أيها هو غامزُ

أقام الثقافُ والطريدةُ درأها ... كما قوّمت ضغن الشموس المهامزُ

فوافى بها أهل المواسم فانبرى ... لها بتّعٌ يغلي بها السّوم رائزُ

فقال له : هل تشتريها فإنها ... تباعُ بما بيعَ التلاد الحرائرُ

فقال إزارٌ شرعبي وأربعٌ ... من السّيراء أو أواقٍ نواجزُ

ثمانٍ من الكيرى حُمرٌ كأنها ... من الجمر ما ذكّى على النار خابزُ

وبردان من خالٍ وتسعون درهماً ... ومع ذاك مقروظ من الجلد ماعزُ

فظل يُناجي نفسه وأميرها ... أيأتي الذي يعطى بها أم يُجاوزُ ؟

فقالوا له : بايعْ أخاك ولا يكن ... لك اليوم عن ربحٍ من البيعِ لاهزُ

فلما شراها فاضت العين عبرة ... وفي الصدر حزازٌ من الوجد حامزُ

هذه الأبيات تمثل صورة متكاملة لقصة صانع القوس ، تبدأ هذه القصة بالبحث عن العود الذي سيصنع منه القوس، فاختاره من شجر السدر "الضال" ، ولكنه اختار هذه الفرع من أعلى الشجرة، وثمة حواجز، ولكنها لم تمنعه من الوصول إلى النبعة التي اختارها. هذه الشجرة نمت "طالت" في مكان متضايق دخل بعضه في بعض من كثافة الشجر الموجود فيه ، فما زال

---

* الشذب : قشر الشجر . نمت : طالت . كنها : سترها في كن. الفيل : الشجر الكثير الملتف .

:متلاحز : متضايق دخل بعضه في بعض . غامز : من غمز القناة إذا سوى المعوج منها . الثقاف : خشبة في رأسها ثقب تدخل فيها الرماح فتقوم .

الطريدة : قصبة توضع فيها السكين يبري بها القداح .

المهامز : جمع مهمزة : وهي حديدة تنخس بها الدابة . الحرائر من الإبل : التي لا تباع نفاسة بها . النواجز : جمع ناجزة كما نقول نقداً . الكوري : الذهب الذي خلص في كور الصائغ بعد ما خلص من تراب المعدن . الخال : ضرب من البرود، أرضها أحمر وفيها خطوط خضر . المقروظ : المدبوغ بالقرظ ، الماعز الشديد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القواس يدخل فيه بمشقة حتى وصل إلى النبعة التي يبتغيها فاقبل يقطعها بفأس ذات حد أعدها لهذه الغاية . فلما حاز هذه النبعة استغنى بها وشغل عمن يخالطهم من الأهل والأصدقاء. ثم ترك ماء لحائها سنيتن حتى تشرب العود ماء اللحاء، وبعد ذلك بدأ بصنعها مستخدماً ادواته "الثقاف، الطريدة" حتى قومها، فأصبحت في حالها تلك تشبه الشموس من الخيل ، ردتها المهامز إلى الأنقياد والمسامحة بعد الشماس .

وعندما استقام له ما يريد قصد بها أهل المواسم "الأسواق" التي يجتمع فيها الناس للبيع والشراء ، فاعترض لها ليشتريها بيعٌ "المشتري" مجرب مختبر لشدتها ولينها.

ويظهر في الصورة الحوار بين البائع والمشتري ،"والحوار الداخلي" بين البائع ونفسه، والحوار بين البائع وبين أهل السوق الذين ينظرون إلى البيع ، والذين نصحوه في النهاية أن لا تمنعه رغبته في زيادة الربح عن البيع، حتى باعها في النهاية نادماً على البيع حزينا على بيع هذه القوس الحبيبة إليه .

ما الذي ارداه الشماخ من سرد هذه القصة الطويلة؟ هل أراد أن يرسم لناصورة للتحدي ويبين لنا أن الإنسان يستطيع الوصول إلى ما يريد بالارداة والأمل؟ فلقد كانت هذه "النبعة" التي اختارها ليصنع منها "القوس" بعيدة وثمة حواجز بينه وبينها ولكنه تخطى هذه الحواجز ووصل إلى ما يريد .

وهذه الظلال الانسانية التي القاها الشماخ على صورة البيع، هل يريد أن يبين لنا أن الانسان يخسر في النهاية ؟

لقد باع "القواس" قوسه في النهاية ولكنه ظل حزيناً نادماً على البيع، إذن هو يشعر بالخسارة لأن القوس لم تعد بالنسبة له شيئا يباع ويشترى ولكنها اصبحت رمزاً للتحدي والأمل في الحياة وقد حفظ لنا الشعر الجاهلي بعض اسماء صناع العدد الحربية (الهالكي).

من هذه الأسماء "أبزي"، "وشرعبٌ، قال الأعشى[٢٥٥:٩] :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولـــــدنٌ مـــن الخطيّ فيه أسنّة ذخـــائرُ ممـــا سنّ أبزى وشرعـــــب *

ومن هذه الأسماء "ابن مجدع" . قال أوس بن حجر(٩٥:٤١):

وذا شطبـــاتٍ قـــدّهُ ابن مُجـدّعٍ لـــــه رونـــــقٌ ذريّهُ يتـــــــاكّلُ

ومن هذه الأسماء "قعضب" قال الطفيل الغنوي(٢١:٣٧) :

وعـــوُجٍ كأحناء السراء، مطت بها مطـــــــاردُ تهديها أسنّة قعضب **

ونود أن نشير في هذا الصور إلى بعض الأماكن التي كانت مشهورة بصناعة عدد الحرب .

فقد اشاد الطفيل الغنوي بنبل يثرب في قوله(٣١:٣٧):

رمـــتْ عن قسيّ الماسخيّ رجالنا بأجـــود ما يبتاعُ مـــن نبل يثربٍ

ومن هذه الأماكن "بُصرى" بالشام ويبدو أنها كانت مشهورة بالصفائح "السيوف" قال الحصين بن حمام (٧٣٨:٣٢):

صـــفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطـــــرداً مـــن نسج داود مبهمـــا

وقد اشار ابو ذؤيب الهذلي إلى القسي "الجعثميات" نسبة إلى بني "جعثمة" من اليمن، قال أبو ذؤيب الهذلي(٢٢) :

كـــأن ارتجاز الجعثميات وسطهم نوائح يشفعن البـــكى بالأزامـــــــل

ومن هده الأماكن "سمهر" وتنسب إليها الرماح فيقال : الرماح السمهرية. وسمهر قرية في البحرين .

قال بشر بن أبي خلزم(١٤٥:٤٧):

---

*ذخائر مدخراً للحرب .

** السراء : شجر يتخذ منها القسي . المطارد : الرماح القصار .

تهديها : تقدمها وتكون موادي لها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحـرجـــوجٍ ينُط النسع فيهـــا أطيـــط السمـــــهرية في الثقاف *

ونجد في الشعر الجاهلي ذكراً للقلع البصري الذي كانت تصنع منه بعض السيوف . قال أوس بن حجر (٤١:٤٥) :

يعلون بالقـلع البصـــري هامهـــمُ ويخـرجُ الفسو من تحـــت الدقارير **

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

*الحرجوج : الناقة الشديدة الخفيفة .

** الدقارير : جمع دقرار : وهو التبان

-٥-

الإسكاف

قال ابن منظور : الإسكاف واحد الأساكفة . ابن سيده : والسيكف والأسكف والأسكوف كله للصانع ، أيا كان وخص بعضهم به النجار ؛ قال :

لـــم يبق إلا منـــطق واطـــــرافٌ ،

وبردتـــــان وقميـــصٌ هفهـــــاف ،

وشعبتا ميسٍ براهـــــا إسكـــــاف .

ابن الاعرابي : أسكف الرجل إذا صار إسكافاً . والإسكاف عند العرب كل صانع غير من يعمل الخفاف ، فاذا ارادوا معنى الإسكاف في الحضر قالوا هو الأسكف ؛ وانشد :

وضـــــع الأسكـــــفُ فيه رُقـــعاً مثـــل مـا ضمـد جنبيه الطّـــــحل

قال الجوهري : قول من قال كل صانع عند العرب إسكاف غير معروف .

قال شمر : سمعت ابن الفقعسي يقول إنك لإسكاف بهذا الأمر اي حاذق؛ وانشد يصف بئراً :

حتى طويناها كطيّ الإسكاف

قال : والإسكاف الحاذق، قال : ويقال رجل إسكاف وأسكوف للخفّاف" [١].

ونجـد في الشـعـر الجـاهلي صـورة الإسكاف الذي يصنح النعـال من الجلد الأسـود "الأرندج"، ويصبغه .

قال الأعشى[٩:٣٤٥] :

عـــليه ديـــا بـــوذ تسربل تحتـــهُ أرندج إسكـــاف يخالط عظْلَمـــا

وفي هذه الصورة يصف الثور ، في ظهره الأبيض وجسمه الأسود ، وكأنه قد لبس ثوباً ناصعاً، من تحته جلد قاتم، صبغه رجل صناع بصبغ "العظلم" الأسود ، وترد صورة الإسكاف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي يرقع النعل بالمسرد .

قال لبيد بن ربيعة (٧٩:١٩):

يَشُكّ صِـــفَاحَها بالـــزَّوْقِ شَزْراً كما خـــرج السَّرادُ مـــــن النّقَـــال *

وفي هذه الصورة يشبه لبيد الثور الذي يطعن بقرنيه الكلاب بالسراد الذي يخرج من النقال.

وتتكرر هذه الصورة في شعر سويد بن كراع العكلي(٤٣٥:٢٠) :

إذا كـــر، فيهـــا كرّةً فكأنهـــا دفـينُ نـــقالٍ يختـــفيـــهن ســـاردُ**

ونجـد في الشـعـر الجـاهـلي ذكـراً لنعـال السبت،وهي النعـال المدبوغـة .قـال عنترة(٢١٩:٦٨):

بطل كأن ثيابـــه فـــي سرحةٍ، يُحـــذى نعال السّبـت ليـس بتوأم

وقال تميم بن ابيّ بن مقبل(٢٢٣:١٤) :

يقـصُّ الإكـــام بسرطمٍ مُتحادب سبطٍ بطـــانتهُ كسبت النّـابل

وقال طرفة بن العبد يصف ناقته -(٢٣:١٣):

وخـد كقرطـــاس الشآمي ، ومشفر كسبـت اليمـــاني، قـــدّه لـــم يُجَـــرَّدِ

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الجلود التي كانت تعمل منها الخفاف مثل "اليرندج"، وهو الجلد الاسود الذي تصنع منه الخفاف ، قال الشماخ(٧٨:٣٣) :

بليل كـــلون السّاجِ اسود مظلمٍ قليل الوغـــى داجٍ كلـون اليرندج

ونجد صورة جراب الجلد التي تصنع منها الخفاف . قال الأعشى(٣٣٥:٩):

حطّت لـــه ريـــــم كمـــا حُـــطت إلى مـلك عيـــابُـــه

---

* النقال : واحدها نقل وهو النعل الخلق .

** إذا كر : يعني الثور الذي يكر على الكلاب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٦-

الصائغ

صور الحلي كثيرة في الشعر الجاهلي. وترد صورة الصائغ في بعض المواضع في الشعر الجاهلي حيث نجد صورة الأكاليل من الياقوت التي فصلها الصائغ ولم يترك فيها عيبا قال أعشى بكر(٨٧):

ترى أكاليل بالياقوت فصّلها صوّاغها لا ترى عيبا ولا طبعا

وتظهر صورة غلمان الصاغة وهم يجلون اللؤلؤ القشب "الجديد" قال لبيد بن ربيعة(٣١:١٩) :

فالماء يجلو متونهن كما يجلوُ التلاميذ لؤلؤاً قشباً *

ونجد في الشعر الجاهلي الأدوات التي كان يستعملها الصاغة في عملهم .

من هذه الأدوات الكور : وهو المجمرة او بيت النار حيث يصاغ المعدن . قال خداش بن زهير(٣٨:٤٤):

فلا تحسبي أني تبذلتُ ذلّة ولا فضني في الكور بعدك صائغُ **

ومن هذه الأدوات الحملاج، وهو الذي ينفخ فيه الصائغ قال المثقب العبدي(١١٢:٧٧):

تَنَبَّعَ من أعطافِها وجلُودِها حميمٌ ، وأضت كالحماليج قودُها***

وفي هذه الصورة شبه الشاعر قرون البقر الوحشية بمنفخة الصائغ.

ومنها "الرِّبْذَة" وهي الخرقة التي يمسح بها الصائغ ويجلو بها الحلي .

---

* التلاميذ : غلمان الصاغة .

** القض : الكسر . والقطع ، والترويض .

*** الحيم : العرق . أضت : صارت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال النابغة(٣٤:١٤٢) :

لعن الله ثم ثنى بلعنٍ ربذة الصائغ الجبانّ الجهولا

ونجد في الشعر الجاهلي صور الحلي، وهي كما قلنا كثيرة نشير إلى بعضها .

من هذه الصور "القرط وهو الذي يعلق في الأذن

قال عبيد بن الأبرص(٥٢:٨٣) :

ناطوا الرعاث لمهوى لو يزل به لا ندقّ دون تلاقي اللبة القرط*

ونجد صورة الذهب المعلق على الترائب . قال المثقب العبدي(٧٧:١٥٩) :

ومن ذهبٍ يلوحُ على تريبٍ كلون العاج ليس بذي غضون

وصور النابغة الترائب التي تتوقد فيها الحلي وكأنها الجمر في الظلام ، قال النابغة(٣٤:١٥٩) :

ترائب تستضيء الحلي منها كجمر النار بُذِّر بالظلام

ونجد في الشعر الجاهلي صورة الألواح المذهبة .

قال النابغة(٣٤:٧٣) :

وأبدت سواراً عن وشومٍ كأنها بقية ألواح عليهن مُذْهَبُ

ويصف لنا المرقش الأصغر الظعائن وقد لبسن الشذر " القطع الصغار من الذهب"، والخرز اليماني "الجزع" قال المرقش الاصغر(١٥:٢٤٥):

تحلّين ياقوتاً وشذراً وصيغة وجزعاً ظفارياً ودراً توائما

ونجد ذلك صورة سبائك الفضة . قال الكلحبة اليربوعي(٤٣:٢٠٩):

---

* ناط : علق . الرعاث : جمع رعثة وهي القرط .

اللبة : موضع القلادة من الصدر . والقرط : ما يعلق في الأذن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كـــأن مسحـــتي ورق عليهـــا نمتْ قرطيـهما أذن خـذيـم*

ونجـد صـورة الحلي الذي يصـاغ على هيـئـة اوسـاط الجـراد. قال قـيس بن الخطيم(٣٥:٦٠):

كـــأن لبـّـاتها تبدّدهـــا هـــزْلـى جـــرادٍ اجـــوازهُ جلف

ونجد صورة "أنضاء الحلي"، وهو ما دق منه ولطف قال علقمة الفحل(٦٣:٨٠) :

مُبتلة كـــأن أنضـــاء حليـــها علـى شادنٍ مـــن صـاحة مُتربّـبِ

ونجد صورة الجمان وهو مثل اللؤلؤ يصاغ من الفضة .

قال لبيد بن ربيعة(١٩:١٩) :

عـلا المسك والديباج فوق نحورهم فـــراشُ المسـيح كـــالجُمان المثقّـبِ

ونجد في الشعر الجاهلي صورة صوت الحلي قال النابغة(٢٤:٤٦) :

يسهد مـــن نـوم العشاء سليُمها يحلـــي النساء في يـــديه قـــعاقعُ

وقال حاتم الطائي(١٠٢:١١٦):

إذا انقلـــبت فـــوق الحشية مرةً ترنـّـم وســـواسُ الحلـــي ترنُّما**

وجـدير بنا وقـد عرضنا صـورة الصنّاع في الشـعـر الجاهلي أن نشـيـر إلى قـضـيـة من القضايا الهامة التي تتعلق بمكانة هذه الحرف في المجتمع الجاهلي، بمعنى هل كان العرب الجاهليون ينظرون الى هذه الحرف نظرة احتقار وازدراء ويأنفون من العمل بها؟ أما كانت هذه الحـرف لهـا مكانتـهـا عند الجـاهليين باعـتـبـار انهـا تمثل ركـاناً اسـاسـيـاً من اركـان حـيـاتـهم الاقتصادية؟

في البداية نود أن نشير إلى رأي ابن خلدون في هذا المجال لما له من أهمية . يقول ابن

---

* السميحة : الصفيحة او السبيكة . الورق : الفضة .

** الحشية : الفراشي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلدون: "إن العرب ابعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك أنهم اعرق في البدو ، وابعد عن العمران الحضري وما يدعو اليه من الصناع وغيرها، والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومي، اقوم الناس عليها لأنهم اعرق في العمران الحضري وابعد عن البدو وعمرانه، حتى ان الإبل التي اعانت العرب على التوحش في السفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة"(٤٠٤:٥).

ويقول الدكتور جواد علي "وقد كان اكثر اهل القرى ينظرون الى الحرف والمحترفين بها نظرة ازدراء كذلك ، ويأنفون لذلك من التزاوج معهم ويعيرون من يتزوج من امرأة كان ابوها قيناً او نجاراً او دباغاً او خياطاً. ويلحق هذا التعير الأبناء كذلك"(٦).

ويرى الدكتور علي العتوم أن الصناعة "كانت احقر مهنة في نظر العرب، وقد بقيت هذه النظرة فيهم الى ما بعد الإسلام، ولعلها باقية الى الآن"(٣٧٢:١٠٣).

ولا نريد في هذا البحث ان نسرد كل الآراء حول هذه القضية ، إذ من الشائع عند الكتاب -قديماً وحديثاً- وسم الجاهليين بالجهل، وتجريدهم من كل مظهر من مظاهر الرقي والتقدم، وقد عرضت إلى جانب من هذه القضية في الفصل الثاني من هذا البحث عندما عرضت لصورة الكاتب .

أما فيما يتعلق بنظرة الجاهليين إلى الحرف والصناعة، فان الصورة الجاهلية في اطارها الموضوعي تثبت ان الجاهليين كانوا على درجة متقدمة من حيث العناية بالصناعات والحرف، فصور الصناعة في الشعر الجاهلي كثيرة، تثبت أن هذه المهن كان لها حضورها المميز في حياة الجاهليين، هذه الصناعة -التي تناولت جزءاً منها اثناء حديثي عن الصنّاع- تشمل المنسوجات، وصناعة الاسلحة، والحلي وغيرها .

بل اننا نجد الشعراء الجاهليين يفتخرون باسلحتهم التي اخلصتها "القيون"، ويفتنون في رسم صور المنسوجات والحلي والعطور والسفن، وصور الزراعة والتجارة، في المقابل فان الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من صور "الرعاة" ، وهذا ما اشرت إليه في الحديث عن صورة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الراعي.

من جهة اخرى فقد كان العديد من الشخصيات المعروفة بالجاهلية والإسلام تشتغل بهذه الصناعات .

من هذه الشخصيات "خبات بن الأرت" وقد كان قينا في الجاهلية فقد اورد العلامة العيني حديثاً لخباب بن الآرت قال : كنت قيناً في الجاهلية وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته اتقاضاه قال لا اعطيك حتى تكفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فقلت لا اكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال دعني حتى اموت وابعث فسأوتى مالاً وولداً فاقضيك"[١٠٤] .

واورد البلاذري عن الواقدي قوله : "اسلم خباب، وكان قينا بمكة . ويكنى ابا عبدربه"[١٠٥]. ولم يقتصر الامر عند خباب بن الآرت، فقد كان العديد من الأشراف (ومنهم من الصحابة) من يعمل في الصناعات " منهم "ابو طالب" فقد كان يبيع العطر وربما باع البر .

وكان "ابو بكر الصديق" بزازاً .

وكان "عثمان" بزازاً .

وكان "طلحة" بزازاً .

وكان "عبدالرحمن بن عوف" بزازاً .

وكان "سعد بن ابي وقاص" يبري النبل .

وكان "العوام " ابو "الزبير" خياطاً .

وكان "الزبير" جزاراً .

وكان "عمرو بن العاص" جزاراً.

وكان "العاص بن هشام" اخو "ابي جهل" حداداً .

وكان "عامر بن كريز" جزاراً .

وكان "الوليد بن المغيرة" حداداً .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكـــــان "عقبة بن ابي معيط" خماراً .

وكان "عثمان بن طلحة" الذي دفع اليه -رسول الله عليه الصلاة والسلام- مفتاح البيت، خياطاً .

وكان "قيس بن مخرمة" خياطاً .

وكان "ابو سفيان بن حرب" يبيع الزيت والأدم

وكان "عتبة بن ابي وقاص" -اخو "سعد"- نجاراً

وكان "امية بن خلف" يبيع البرم .

وكان "عبدالله بن جدعان " نخاساً . له جوار يساعين ويبيع اولادهن .

وكان "العاص بن وائل" -ابو "عمرو بن العاص"- يعالج الخيل والإبل .

وكان "النضر بن الحارث بن كلدة" يغني بالعود.

وكان "الحكم بن العاص" ابو مروان بن الحكم كذلك، وكذلك (حريث بن عمرو، ابو "عمرو بن الحارث"، وكذلك "قيس الفهري" ابو "الضحاك بن قيس" .

وكذلك معمر بن عثمان ، جد "عمر بن عبيدالله بن معمر" وكذلك "سيرين" ابو "محمد بن سيرين".(٥٧٥:١٠٦)

إن ارتباط هذه الشخصيات التي كان لها دور في الجاهلية والإسلام بهذه الصناعات، مؤشراً ذو دلالة هامة في سياق موضوعنا؛ إذ يعزز وجهة النظر القائلة ان هذه الحرف والصناعات كان لها حضور في المجتمع الجاهلي ومن جهة اخرى يثبت لنا ان هذه الحرف والصناعات لم تكن محتقرة عند الجاهليين ولم تكن خاصة بالموالي والعبيد ، وانما كان يمتهنها العديد من الشخصيات التي كان لها موقعها الهام في الجاهلية والاسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

لقد تناول هذا البحث جانباً مهماً من جوانب الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلي، ويتمثل هذا الجانب في أصحاب المهن الذين شاع الحديث عنهم في الشعر الجاهلي ولقد تبين لي من خلال هذا البحث أن العرب عرفوا الكتابة في الجاهلية ، بل شاع الحديث عن صورة الكاتب وأدوات الكتابة وموضوعاتها في الشعر الجاهلي، بخلاف ما شاع عند الكثيرين من أن العرب قبل الإسلام كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، وإن وجدت الكتابة بينهم فإنها كانت قليلة.

وتبين لي أن الأمية التي وصف بها الجاهليون كانت أمية دينية، ولا علاقة لها بالكتابة أو المعرفة وارتبط الحديث عن الكتابة في الشعر الجاهلي بالموقف الطللي . وارتبطت صورة الكتابة في بعض الاحيان -بالكاتب اليماني- ولعل السبب يعود إلى أن الكتابة أصلها من اليمن كما يقول ابن خلدون، وربما تكون صورة الكاتب اليماني المتعود اللحن -كما يقول لبيد- أعلق في نفوس بعض الشعراء الشماليين من صورة الكاتب الشمالي.

ويشيع الحديث في الشعر الجاهلي عن الغناء، وتظهر صورة المغني، ولكن "القينة" حظيت بعناية الشعراء الجاهليين أكثر من المغني، وترد صورة المغني أو "القينة" في مجالس اللهو والشراب .

ويرد ذكر الآلات الموسيقية في الشعر الجاهلي، وهي على ثلاثة أنواع : آلات وترية، وآلات الضرب ، وآلات النفخ.

وتبين لي أن فن الغناء العربي كان أصيلاً ، وإن تأثر في بعض جوانبه بالبيئات الغنائية الفارسية .

ويشيع الحديث عن الصيادين في الشعر الجاهلي، وترد صورة الصائد في اثناء الحديث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الرحلة في الشعر الجاهلي، فإذا ما أراد الشاعر الجاهلي أن يصف ناقته في الرحلة ، جاء بمشهد الصيد، وصور المعركة بين الثور والكلاب، ثم شبه ناقته بالثور الذي خرج منتصراً في المعركة، وثمة نوعان من الصيد في الشعر الجاهلي، هما : صيد المتعة، والصيد من أجل الكسب، وهناك فرق واضح بينهما، فالأول يتخذ من الصيد متعة ورياضة ، بينما يتخذ الثاني مهنة يتكسب من خلالها .

وتبين لي أن الصائد يفشل في النهاية في صيده، ويتمكن ثور الوحش أو حمار الوحش من الفرار، وكان الشاعر الجاهلي يرسم لنا بدقة ووضوح صورة من صور الحياة في أمنها وهناءتها، وفي ضيقها واضطرابها، وفي تقلبها بين العسر واليسر، وبين الأمن والخطر وتبين لي أن شخصية "الصائد" لا تفرض حضورها باستمرار ، فقد تغيب غيبة توشك أن تكون كاملة، كما هي الحال عند امرىء القيس، ويختلف الأمر عند عمرو بن قميئة، وأوس بن حجر، وزهير، والأعشى، والشماخ .

ولاحظت أن صورة صائد حمار الوحش كانت اكثر حضوراً من صورة صائد ثور الوحش .

ويختلف الأمر بالنسبة للغائص، فهو يتمكن من الحصول على اللؤلؤة التي يسعى إليها، وتظهر صورته بوضوح في الشعر الجاهلي، ويتخذ هذا الشاعر الجاهلي الحديث عن الغائص وسيلة لتشبيه صاحبته باللؤلؤة التي أخرجها الغواص من اعماق البحر .

أما مشتار العسل، فقد حظي بعناية شعراء هذيل، واشتهر منهم: ساعدة بن جؤية ، وأبو ذؤيب الهذلي، وتبين لي أن هذين الشاعرين قد اختارا اشد ضروب الشيارة خطراً، وهذا يرفع شأن العسل الذي يشتار، ويرفع شأن الإنسان المشتار .

وقد ظهر المشتار بصورة المنتصر في النهاية .

وتبين لي من خلال البحث وتتبع الشعر الجاهلي، أن هذا الشعر يكاد يكون خلواً من

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صور "الرعاة" ، "فالراعي لا يرد ذكره في ا لشعر الجاهلي إلا وروداً عابراً، ، وقد ورد ذكر بعض أسماء "الرعاة" بالإضافة الى بعض أعمالهم . ولكننا لا نملك صورة واضحة المعالم -للراعي- في الشعر بل إننا إذ قارنا مدى حضور أصحاب المهن الأخرى في الشعر الجاهلي بحضور صورة الراعي، فإننا نخلص إلى أن الشخص الجاهلي قد أغفل صورة الراعي اغفالاً يكاد يكون تاماً .

واتضح لي أن الاجتهاد الاقتصادي الرعوي كان ثانوياً في بنية الحياة الاقتصادية الجاهلية .

وربما يكون ارتباط عمل الراعي بالرقيق أكثر من ارتباطه بالأحرار سبباً في إغفال الحديث عن الراعي في الشعر ، ومما يقوي هذا الاتجاه في التحليل وجود بعض النصوص الشعرية الجاهلية، التي أوردت صورة الراعي في موضع الاحتقار والذم .

أما الزراعة، فقد وردت صور كثيرة للزراعة في الشعر الجاهلي، وحظيت الناقة السانية "الساقية" بعناية الشعراء الجاهليين . وظهرت صورتها كاملة في شعر زهير بن ابي سلمى . وتظهر صورة الساقي في الشعر، وكذلك صور الجداول التي تنساب بين اشجار النخيل. أما اكثر صور الزراعة فتخص زراعة النخيل. وفي الشعر الجاهلي، جنات يكثر ترددها، مثل "جنة يثرب" و "نخيل محلم" و "جنة ملهم" . وقد وجدت في الشعر الجاهلي ذكراً للأشجار المثمرة، مثل الرمان والتفاح والتين وغيرها .

ووجدت صوراً للزراع في الشعر الجاهلي ، وذكراً لبعض أعمالهم، مثل تقسيم الأنهار بين مشارات الزرع ، والسقاية والري، وإصلاح النخيل للتلقيح "تأبير النخيل" ووضع الدعائم لتستند عليها الكروم . ومن خلال ذلك، تبين لي أن العرب عرفوا الزراعة، وكانوا على معرفة -في ظل معطياتهم- بأساليب الري والسقاية .

وبالتالي، فإن صور الزراعة في الشعر الجاهلي تعكس مجتمعاً حضارياً، والشعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجاهلي يصف لنا مجتمعاً تمثل الزراعة بالنسبة له جانباً حيوياً من حياته الاقتصادية.

أما بالنسبة إلى التجارة، فتعد صور تجار الخمر من أكثر صور التجارة التي تمر في الشعر الجاهلي ، حتى غلب لفظ "التاجر" على بائعها وتظهر صورة الأسواق في الشعر الجاهلي ويظهر أن التعامل في هذه الأسواق كان يتم بنظام المقايضة او بالنقد .

وأعترف أنني لم أعثر على صور للقوافل التجارية، ولكنني وجدت ذكراً للقوافل الآتية من الشام، التي كانت تقل خمرا ، وتدخل بها إلى سوق عكاظ للاتجار بها .

أما التجارة البحرية، فقد وردت صورة كاملة للتجارة البحرية في شعر بشر بن أبي خازم الأسدي، ولهذه الصورة أهمية تاريخية ، فهي تبين لنا الطريقة التي كان العرب يصنعون بها سفنهم ، والوسائل التي كانوا يعتمدونها ، كما تبين لنا صلتهم التجارية بالهند، والبضائع التي كانوا يجلبونها منها .

أما الصناعة، فقد شاع في الشعر الجاهلي حديث عن الصناعة والصناع، وحظي القين، والهالكي بأكثر الصور في الشعر الجاهلي .

ووجدت -في الشعر الجاهلي- ذكراً للأدوات التي كان يستعملها الصناع .

وتبين لي أن هذه المهن لم تكن محتقرة عند العرب ، بدليل وجود الكثير من أشراف العرب ممن عملوا بهذه المهن، وهم من الشخصيات التي كان لها دورٌ في الجاهلية والإسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

١. ابن منظور محمد بن مكرم بن منظور (-٧١١هـ) لسان العرب، الطبعة الأولى ، دار الفكر، ١٩٩٠.

٢. الزبيدي، محمد بن محمد بن حسين (-١٢٠٥هـ). تاج العروس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي.

٣. الدكتور شوقي ضيف، العصر الجاهلي، الطبعة الثامنة ، دار المعارف، القاهرة.

٤. الألوسي ، محمود شكري بن عبدالله (-١٣٤٢هـ)، بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجت الاثري، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ج١: ٢٦٤، ١٢، ج٣: ٤٠٠-٤١٨، ٣٦٨-٣٧٠، ٣٦٧-٣٦٨، ج١: ٣٦٩، ج٣ : ٣٦٤، ٤١٧، ٣٨٥، ج١ : ٢٦٤-٢٦٧، ٣٨٨، ٤٠٣، ٤٠٤ .

٥. ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد(-٨٠٨هـ) ، المقدمة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، لبنان .

٦. الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين،بيروت . ١٩٨٠، ج٧ : ٢٠-٢٣، ٥٤٦، ج٨ : ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٠٣ ، ٦٧، ٦٨، ٧١، ٧٤، ٨٨، ٨٩، ، ج١ : ٢١٩، ج٧ : ٧٠، ٣١٩، ٣٢٠، ٢٦١، ٥٩٧، ٥٤٣.

٧. حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، الطبعة الخامسة ، دار الفارابي، بيروت ، ١٩٨٥. ج١: ١٨٩-١٩٠، ٢٠٣ .

٨. الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، الطبعة الخامسة، دار المعارف،١٩٧٨

٩. الأعشى ، أبو بصير، ميمون بن قيس (-٧هـ) ، ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق وشرح الدكتور محمد محمد حسين ، الطبعة السابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٣.

١٠. الدكتور نصرت عبدالرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطبعة الثانية، مكتبة الأقصى، عمان الأردن ، ١٩٨٢، ص٤٣ .

١١. الجاحظ ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (-٢٥٥هـ)، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، مصر ، ١٩٦٠

١٢. سلامة بن جندل، سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد التميمي (٢٣هـ)، الديوان ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧ .

١٣. طرفة بن العبد ، طرفة بن العبد بن سفيان البكري (-٦٤٥م) ، الديوان، تحقيق درية الخطيب، ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ، ١٩٧٥ .

١٤. ابن مقبل ، تميم بن أبيّ بن مقبل بن عجلان (توفي بعد ٦٥٧م) الديوان ، تحقيق الدكتور عزة حسن ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢ .

١٥. المفضل الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلى الضبي (-١٧٨هـ) ، المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، الطبعة السادسة، بيروت ، لبنان .

١٦. الأسود النهشلي، الأسود بن يعفر النهشلي التميمي(-٦٠٠م)، الديوان ، صنعة نوري حمودي القيسي، وزراة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٦٨.

١٧. البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (-٤٨٧هـ) ، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الثالثة، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣. ج٤: ١٢٠١، ١٣٥٥، ١٣٤٦، ١٢٣٨، ١٣٤٦، ج٣ : ٩٢٦، ٧٣٠، ٧٧٨، ٩١٤، ج١:٢٢٨، ٣٢٢، ١٩٨ . ج٢ : ٣٧٦.

١٨. الأصفهاني، أبو الفرج ، علي بن الحسين بن محمد الأموي (-٣٥٦هـ)، الأغاني، الطبعة الثانية ، دار الثقافة، بيروت ، ١٩٥٧.

١٩. لبيد العامري، لبيد بن ربيعة العامري(-٤١هـ) ، شرح الديوان، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢ .

٢٠. امرؤ القيس ، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، (-٥٤٥) ، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤. ص٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢١. داوود غطاشة، حركة الشعر في اليمانيين في الجاهلية الاخيرة، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان ، الأردن ، ١٩٨٥-١٩٨٦ . ملحق ٣ : ١٩٦٨، ملحق ١ : ١٢، ملحق ٣٤٩.

٢٢. السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (-٢٧٥هـ) ، كتاب شرح أشعار الهذليين، حققه عبدالستار أحمد فراج، وراجعه محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة .

٢٣. الدكتور نصرت عبدالرحمن ، الواقع والاسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي ، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٩٨٥ .

٢٤. نورة الشعلان، أبو ذؤيب الهذلي (حياته وشعره) ، الطبعة الأولى ، جامعة الرياض، الرياض ، ١٩٨٠.

٢٥. البغدادي، عبدالقادر بن عمر (١٠٩٣هـ) . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، طبعة الثانية مطبعة الخانجي، مصر ، ١٩٨١ . ج٧ : ٣٤٢، ج٣ : ٣٥٢، ٢٣٦، ٢٣٤.

٢٦. السيوطي، جلال الدين، عبدالرحمن بن أبي بكر(-٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وانواعها، حققه محمد أحمد جاد المولى ورفاقه ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٧. ولفنسون ، إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) ، تاريخ اللغات السامية ، الطبعة الأولى، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٢٩ .

٢٨. الدكتور يحيى الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢.

٢٩. زهير بن أبي سلمى ، زهير بن أبي سلمى المزني (-١٣ق.هـ) ، شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم، الشنتمري ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية، دار القلم العربي، حلب ١٩٧٣.

٣٠. الأخفش الأصغر ، أبو الحسن، علي بن سليمان بن الفضل(-٣١٥هـ)، كتاب الاختيارين ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.

٣١. ابن الشجري، أبو السعادات، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني (-٥٤٣هـ) ، مختارات أشعار العرب، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القاهرة.

٣٢. الأب لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، الطبعة الثالثة ، دار الشرق، بيروت، لبنان ، ١٩٦٧ .

٣٣. الشماخ، الشماخ بن ضرار الذبياني، (-٢٢هـ) ، الديوان ، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي، دار المعارف ، مصر .

٣٤. النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني(-٦٠٤م) ، الديوان، تحقيق الدكتور شكري فيصل، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

٣٥. قيس بن الخطيم، قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (-٦٢٠م) ، الديوان، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد ، الطبعة الأولى، مكتبة دار العروبة ، القاهرة، ١٩٦٢ .

٣٦. الحارث بن حلزة ، الحارث بن حلزة اليشكري (-٥٨٠م) ، الديوان، تحقيق هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد ، ١٩٦٩.

٣٧. الطفيل : الغنوي، طفيل بن عوف الغنوي (-٦١٠م) ، الديوان، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.

٣٨. عدي العبادي، عدي بن زيد العبادي، (نحو -٥٩٠م) ، الديوان، تحقيق محمد جياد المعيبد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد ، ١٩٦٥.

٣٩. لقيط الإيادي، لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي (نحو-٣٨٠م)، الديوان، تحقيق عبدالمعيد خان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧.

٤٠. الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر، (-٣٧٠هـ)، المؤتلف والمختلف، صححه وعلق عليه الدكتور. ف.كرنكو، الطبعة الاولى ، دار الجليل، بيروت، ١٩٩١.

٤١. أوس بن حجر، أوس بن حجر بن مالك التميمي (-٦٢٠م) ، الديوان، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.

٤٢. ابن الانباري ، أبو بكر ، محمد بن قاسم (-٣٢٨) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٩٨٠.

٤٣. الدكتور عبدالحميد محمد المعيني ، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جامعة الملك سعود . نادي القيسم الأدبي، ١٩٨٢.

٤٤. الدكتور عبدالكريم إبراهيم يعقوب، أشعار العامريين الجاهليين ، الطبعة الاولى، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ١٩٨٢.

٤٥. حمدي محمود ناجي منصور، حركة الشعر في قبيلة ضبة في الجاهلية وصدر الإسلام،رسالة دكتوراة ، الجامعة الاردنية، عمان الاردن، ١٩٩٠.

٤٦. الدكتور حاتم صالح الضامن ، شعراء مقلون، الطبعة الاولى ، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٧.

٤٧. بشر بن أبي خازم، بشر بن أبي خازم الأسدي(-٩٨ه) ، الديوان، تحقيق الدكتور، عزة حسن، الطبعة الثانية، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢.

٤٨: الدكتور كمال أبو ديب ، الرؤى المقنعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦. ص٥٨، ٣٢٥، ٤٧٩.

٤٩. عمرو بن قميئة ، عمرو بن قميئة بن نويح البكري (-٤٠ه) ، الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، مصر، ١٩٦٥

٥٠. المتلمس الضبعي، جرير بن عبدالعزى، أبو عبدالمسيح (-نحو ٦٩ه) ، الديوان ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية ، مصر ، ١٩٧٠.

٥١. أبو داود الإيادي، جارية بن الحجاج الإيادي، ديوانه (ضمن دراسات في الأدب العربي لفوستاف فون غريناوم، ترجمة الدكتور إحسان عباس وزملائه)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩, ٢٥٢٢، ٢٥٣.

٥٢. عبيد بن الأبرص، عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي(-٦٠٠م)، الديوان، تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ، ١٩٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٣. جان برتليمي ، بحث في علم الجمال ، ترجمة الدكتور انور عبدالعزيز، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

٥٤. ابن عبدربه ، أحمد بن محمد (-٣٢٨هـ)، العقد الفريد ، شرحه وضبطه وصححه أحمد أمين ورفاقه، مطبعة لجنة التأليف للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩. ج٦ : ٢٧ .

٥٥. فارمر ، هنري جورج ، تاريخ الموسيقى العربية، عربه جرجيس فتح الله المحامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص٥٤، ٥٥، ٥٦.

٥٦. الدكتور ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠. ص٢٦-٢٧، ٤٧-٦٢ .

٥٧. ابن فارس، أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ) ، معجم مقياس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الاولى ، دار الجليل، بيروت، ١٩٩١ مجلدة:٤٥ .

٥٨. المرزوقي ، أبو علي، أحمد بن محمد بن حسن (-٤٢١هـ)، شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبدالسلام محمد هارون، الطبعة الاولى ، دار الجليل، بيروت، ١٩٩١.

٥٩. ابن سيدة ، أبو الحسن، علي بن إسماعيل (-٤٥٨هـ)، المخصص ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨. مجلد ٤، ص١٣: ١١-١٢، ١٢، ١٣، ١٥.

٦٠. ابن قتيبة ، أبو محمد بن مسلم (-٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد الشاكر، دار المعارف.

٦١. الطبري ، أبو جعفر، محمد بن جرير ، (-٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت ، لبنان، ج٢: ١٢٦.

٦٢. حسان بن ثابت، حسان بن ثابت بن منذر الخزرجي (-٥٤هـ) ، شرح الديوان، وضبطه وصححه عبدالرحمن البرقوقي، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٩.

٦٣. علقمة الفحل، علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس التميمي (-٦٠٣م)، الديوان، تحقيق لطفي الصقار ودرية الخطيب، الطبعة الأولى ، دارالكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩.

٦٤. الدكتور محمد التونجي، الأعشى شاعر المجون والخمرة، الشركة المتحدة للتوزيع ، النمر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٥. ابن تولب، النمر بن تولب بن زهير بن أقيش العكلي (-٤ق هـ)، شعره، صنعه نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد.

٦٦. ابن الشجري، أبو السعادات، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني (-٥٤٢هـ)، الحماسة الشجرية، تحقيق عبدالمعين الملوحي، وأسماء الحمصي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٠.

٦٧. ابن سعيد الأندلسي، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد (-٦٩٥هـ)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق الدكتور نصرت عبدالرحمن، الطبعة الاولى ، مكتبة الاقصى ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٢. ج١ : ١٧٩ .

٦٨. أبو زيد القرشي ، محمد بن ابي خطاب القرشي (متوفى في بداية القرن الرابع الهجري)، جمهرة أشعار العرب، شرحه وضبطه علي فاعور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.

٦٩. ابن طباطبا، أبو الحسن، محمد بن أحمد بن محمد، (-٣٢٢هـ)، عيار الشعر ، تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغول سلام، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة. ١٩٥٦.

٧٠. الدكتور وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢. ص١٤٨-١٤٩.

٧١. الدكتور محمد لطفي الصباغ، فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر، الطبعة الاولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣. ص٧٠ .

٧٢. الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا، شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، الطبعة الاولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٧٤.

٧٣. عبدالقادر حسن أمين ، شعر الطرد عند العرب، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٢.

٧٤. الدكتور طه حسين، في الأدب الجاهلي ، الطبعة الخامسة عشرة، دار المعارف، القاهرة.

٧٥. الدكتور أحمد محمد الحوفي، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٦. الدكتور حسين عطوان، وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي الثاني.

٧٧. المثقب العبدي، العائذ بن محصن بن ثعلبة(- نحو ٣٥ق.هـ) ، الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١، ص٧٩.

٧٨. الدكتور حسين عطوان، مقالات في الشعر ونقده، الطبعة الاولى، دار الجليل، بيروت، لبنان ، ١٩٨٧. ص٤٥.

٧٩. سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥.

٨٠. عبدالله خليفة شملان، لؤلؤة البحرين، مركز البحرين للدراسات والبحوث، ١٩٨٧.

٨١. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ، ياقوت بن عبدالله الحموي (-٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر ، بيروت، ١٩٥٥، ج١ :٣٤٧، ج٢: ٤٣٢.

٨٢. المسعودي، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي (-٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف أسعد داغر، الطبعة الاولى ، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٥، ج١: ١٦٩، ١٦٨.

٨٣. الجاحظ ، أبو عثمان، عمرو بن بحر بن محبوب (-٢٥٥هـ) ، الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، المجمع العربي الإسلامي ، بيروت ، لبنان، ١٩٦٩، ج٥ : ٤١٧.

٨٤. ي. أ. بلياييف، العرب والإسلام والخلافة العربية، نقله إلى العربية الدكتور أنيس فريحة، الطبعة الاولى ، الدار المتحدة للنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٣.

٨٥. الدكتور صلاح الدين علي الشامي، الواقع الاقتصادي العربي قبل الإسلام، منشأة المعارف، الاسكندرية.

٨٦. أيمن محمد سليم الأحمد، الرق في العصر الجاهلي واثره في الشعر، رسالة ماجستير ، الجامعة الاردنية، عمان، الاردن، ١٩٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨٧. الجراوي التادلي، ابو العباس ، احمد بن عبدالسلام، (-٦٠٩هـ)، الحماسة المغربية، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، الطبعة الاولى ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩١. ج٢ : ١١٨٩، ج١: ١٢٤، ١٤١، ١٥١.

٨٨. خليل الرفوع، الأقوام غير العربية في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، عمان ، الاردن، ١٩٩٣.

٨٩. خفاف بن ندبة، خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي ، (-٦٤٠م) شعره ، جمع وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف، بغداد ، ١٩٦٧.

٩٠. دريد بن القمة، دريد بن الصِّمة الجشمي البكري(-٨هـ) ، الديوان، جمع وتحقيق محمد خير البقاعي.

٩١. برهان الدين دلو ، مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٥.

٩٢. ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (-٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق الدكتور أحمد ملحم ورفاقه، الطبعة الرابعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨. مجلد٣، ج٢ : ٢٠٠ .

٩٣. عبدالعظيم القناوي، الوصف في الشعر العربي، الطبعة الأولى شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، مصر ، ١٩٤٩. ج١: ٢٩٠.

٩٤. عباس بيومي عجلان، عناصر الابداع الفني في شعر الأعشى ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ص٦٣ .

٩٥. الدكتور محمد محمد حسين ، أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢.

٩٦. ابن حبيب، محمد بن حبيب بن أمية البغدادي (-٢٤٥هـ) ، المنمق في أخبار قريش، عني بتصحيحه والتعليق عليه خورشيد احمد فارق، الطبعة الاولى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٩٧ ابن حبيب ، محمد بن حبيب بن امية البغدادي (-٢٤٥هـ) ، المحبر ، اعتنيت بتصحيحه إيلزه ياحتن، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٩٤٢.

٠٩٨ جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر، مكتبة الانجلو ، مصر.

٠٩٩ السليك بن السلكة، السليك بن عمير بن يثربي بن سنان السعدي التميمي (-نحو ١٧ ق.م) ، أخباره وشعره، دراسة وجمع وتحقيق حميد ثويني، وكامل سعيد عواد، الطبعة الاولى، مطبعة العالي ، بغداد ، ١٩٨٧.

١٠٠ ذو الإصبع العدواني، حرثان بن محرث (-٢٢ او ٢٥ق.هـ) ، الديوان، جمعه وحققه عبدالوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدليمي، وزارة الإعلام ، مطبعة الجمهور، الموصل ، ١٩٧٣.

١٠١ الخرنق، الخرنق بنت بدر بن هفان (-٥٧٠م)، الديوان، تحقيق، د. يسري عبدالغني عبدالله الطبعةالأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ١٩٩٠.

١٠٢ حاتم الطائي (-٦٠٥م)، الديوان، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت.

١٠٣ الدكتور علي العتوم، قضايا الشعر الجاهلي، الطبعة الأولى .

١٠٤ العيني أبو محمد، محمود بن احمد (-٨٥٥هـ) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه شركة من العلماء ، ادارة الطباعة المنيرية، مصر.

١٠٥ البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر(-٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق الدكتور محمد حميدالله، معهد المخطوطات العربية. ج١: ١٧٦.

١٠٦ ابن قتيبة، ابو محمد عبدالله بن مسلم (٢٧٦هـ) المعارف، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة ، دار المعارف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملاحـــق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

	صفوي	ثمودي	لحياني	سبئي	نبطي
ا	𐩠	𐩠	𐩠	𐩠	א
ب	𐩡	𐩡	𐩡	𐩡	ב
ج	𐩢	𐩢	𐩢	𐩢	ג
د	𐩣	𐩣	𐩣	𐩣	ד
ه	𐩤	𐩤	𐩤	𐩤	ה
و	𐩥	𐩥	𐩥	𐩥	ו
ز	𐩦	𐩦	𐩦	𐩦	ז
ح	𐩧	𐩧	𐩧	𐩧	ח
ط	𐩨	𐩨	𐩨	𐩨	ט
ي	𐩩	𐩩	𐩩	𐩩	י
ك	𐩪	𐩪	𐩪	𐩪	כ
ل	𐩫	𐩫	𐩫	𐩫	ל
م	𐩬	𐩬	𐩬	𐩬	מ
ن	𐩭	𐩭	𐩭	𐩭	נ
س	𐩮	𐩮	𐩮	𐩮	ס
ع	𐩯	𐩯	𐩯	𐩯	ע
ف	𐩰	𐩰	𐩰	𐩰	פ
ص	𐩱	𐩱	𐩱	𐩱	צ
ق	𐩲	𐩲	𐩲	𐩲	ק
ر	𐩳	𐩳	𐩳	𐩳	ר
ش	𐩴	𐩴	𐩴	𐩴	ש
ت	𐩵	𐩵	𐩵	𐩵	ת

مع كتاب تاريخ اللغات السامية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* وليس هذا الحرف مقابل في عربيتنا وهو بين السين والزاي
(٢٠٠٣)

من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (١)

من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٧٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

شكل (٢)

من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٢ ص ٧٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (٣)

٧٨

من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٧ ص ٧٨٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

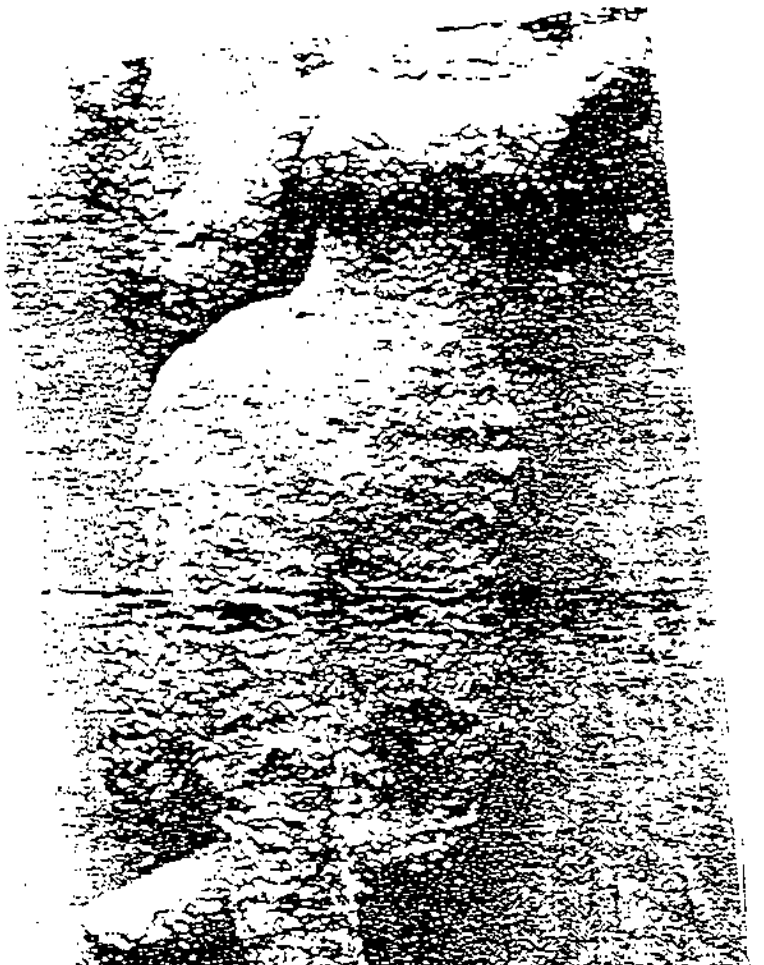

من كتاب Qataban and Sheba (ص ٣٠٥)

شكل (٤)

من كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ ٧ ص ٨٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

Title: The Craftsmen In The Pre-Islamic Poetry
Prepared by : Ali Mustafa Mohammed Asha

The study investigates craftsmen in the Pre-Islamic poetry. One of the reasons of this study was the common talks about craftsmen in the Pre-Islamic poetry and the scarcity of studies on this topic.

The thing which may enhance the importance of investigating this topic and studying it comprehensively, which can explain the importance of these crafts and their role in the composition of the Pre-Islamic economical life , was the correlation of this topic with the Arab economical life in the Pre- Islamic period.

It was common among many researchers to state that the Pre-Islamic life was Bedouin and pastoral life ;it was empty of any aspects of civilization and refinement . Therefore, it was necessary to restudy that period ; carrying out a new study through the Pre-Islamic poetry so that we might determine whether the Pre-Islamic poetry talked about a civilized or a pastoral life.

The study was based on a basic hypothesis which was summed up in that the Pre-Islamic poetry talked about many crafts and careers. the least of which was the shepherd career. Moreover it assumed that the Pre-Islamic poetry talked about the farmers , traders , manufacturers and art people than it talked about shepherds.

The study aims at revealing craftsmen's images in the Pre-Islamic poetry and investigating the viewpoints which have become popular about the dominance of shepherd career in the Arab life.

٤٢٠٩١٦

The study was based on two methods: the descriptive method which helped me in finding out how much it was common in talking about craftsmen, while the other method was the analytical method which I used to analyse the findings using the investigational statistics.

The researcher has found that the Pre-Islamic poetry was almost empty of shepherds ' images . Thus , the Pre-Islamic poetry had depicted

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

for us the civilized life which was based on agriculture , manufacturing and trading , while at the same time shepherd career was more correlated with slaves than it was with free people as it appeared in the Pre-Islamic poetry .

So, the Per-Isilamic poetry had deicpted the writers, farmers, munfacturers , traders and art people , while it neglected talking a bout shepherds.

The study showed that crafts were not despised by the Pre-Islamic Arabs , and provided that some Arab did that , this was true only among Bedouins , but not among urban populations who settled down in cities and villages , and who were basically dependent on agriculture , manufacturing and trading .

Thus, the study has come to support the hypothesis from which the study has started, that is, the per-Islamic poetry had depicted a civilized life, and not a bedouine one .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit